السنة السادسة والعشرون   العددان ٨ و ٩   آب وايلول ١٩٢٨

المشرق

نسب السيد المسيح

لا تناقض في الاناجيل

بقلم الاب انطون صالحاني اليسوعي

٢

اليك بيان الآراء التي تنفي التناقض بين ما اورده متى ولوقا في نسب السيد المسيح وشرح سبب الاختلاف بينهما :

الرأي الاول : النسب الطبيعي والنسب الشرعي

ان سبب اختلاف متى ولوقا في نسب السيد المسيح، من داود الى يوسف خطيب العذراء، هو ان متى اورد نسب يوسف الطبيعي ولوقا نسبه الشرعي . وهذا الرأي هو ليوليوس الافريقي الذي اشتهر في اوائل القرن الثالث المسيح وقضى قسماً عظيماً من حياته في فلسطين، وأكّد انهُ اقتبس من اقارب المسيح ما ذكرهُ عن نسبه . قال(١ ان ماتان الذي من ذرّية سليمان بن داود رُزق من استا امرأته ابناً سمّاه يعقوب . ثم ترمّلت استا فاقترنت بمتات(٢ من ذرّية ناتان

١) اورد قوله اوسابيوس في تاريخه ك ١ ف ٧ (مجموعة الآباء اليونان لمين المجلّد ٢٠ العمود ٨٩)   ٢) روى يوليوس « ملكي » عوض « متات » واغفل ذكر متات ولاوي اللذين يذكرهما لوقا بين عالي وملكي . كما ان بعض آباء الكنيسة ايضاً اهملوا ذكرهما كامبروسيوس وغريغوريوس التريتري ويوحنا الدمشقي في ابضاحو

ابن داود فولدت لهُ عالي(١ . فيعقوب وعالي هما اخوانِ من امٍّ واحدة لا من ابٍ واحد . فيعقوب هو من ذرّية سليمان بن داود . وعالي من ذرّية ناثان بن داود . ومن ثمَّ يؤكد متى الذي كتب انجيله بالعبرانية لاجل اليهود ان يسوع هو من النسل الملوكي ، ولهُ حقّ الملك كما تنبأ الملاك جبرائيل اذ بشّر العذراء قائلاً «وسيعطيه الرب الاله عرش داود ابيه ويملك على آل يعقوب الى الابد ولا يكون لملكهِ انقضاء» (لوقا ١ : ٣٢و٣٣) . وفي اعمال الرسل (١٥ : ١٥و١٦) : «وعليهِ وافق الانبياء حيث قالوا اني بعد هذا أرجعُ فأقيم مسكن داود الذي سقط وأبني ما سقط منهُ وانصبهُ ثانيةً» . فيورد متى نسب يسوع الملوكي فلا يذكر الّا اسماء الملوك من سليمان الى يكنيا الذي رذله الله هو وذرّيته لاجل آثامه فأجلي الى بابل . اما بعد جلاء بابل حيث زال الملك فاورد متى اسماء من كان لهم حقّ الملك وان لم يملكوا لانهم كانوا من ذرّية الملوك . كما انَّ في فرنسة في الازمنة الاخيرة لمّا ألغيت الملكية وقامت مكانها الجمهورية او الامبراطورية بقي حقّ المُلك للكونت دي شامبور هنري الخامس لانهُ من عائلة بوربون الملوكية . وبعد وفاته اذ لم يكن لهُ ولد انتقل حقّ الملك الى فرع آخر من عائلة بوربون ، الى الكونت دي باري . ثم الى ابنه الدوك دورليان . ولما توفي هذا ولم يكن لهُ ولد انتقل حقّ الملك الى فرع آخر ، الى الدوق دي غيز . هكذا عمل متى في ايراد الانساب من يكنيا الى المسيح .

امّا لوقا فانهُ كتب لاجل المتنصّرين من الوثنيين فاورد نسب يسوع الشرعي من فرع ناثان بن داود فلم يذكر احداً من الملوك

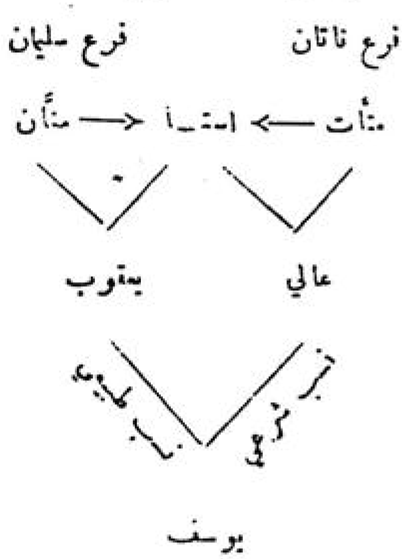
ثم ان عالي تزوّج وتوفي قبل ان يُرزَق ولداً . فتزوّج ارملته اخوه يعقوب

الايمان المستقيم (ك ٤ ف ١٦) (في مجموعة الآباء اليونان لمين المجلد ٩٦ العمود ١١٥٧) . فأثبتنا اسم متّات عوض ملكي وفقاً لانجيل لوقا وما يقتضيه شرح يوليوس

١) نثبت في مقالتنا هذه الاسم «عالي» كما ورد في طبعة الكتاب المقدس اليسوعية . ويروى في طبعة البروتستانت «هالي» . أريد بالحرفين ‹ ع و ه › التعبير عن النفخ الشديد او النبرة (esprit rude) التي ترافق في اليونانية الحرف الاول من الاسم «إلي» والمعبر عنه في اللاتينية بالحرف h : Heli . ومع ان الحرف ه يعبّر احسن من الحرف ع ، كان الاوفق ان يُستغنى عن كليهما ويُكتفى بالهمزة «إلي» . ومعلوم ان إلي مجتزأ من إلياقيم

لِيُقيم لهُ نسلًا عملًا بما أمر الله بهِ في الناموس : « اذا اقام اخوانِ معاً ثم مات احدهما وليس لهُ عقب فلا تصِر زوجة المَيْت الى خارج لرجل اجنبي بل اخوه يدخل عليها ويتخذها زوجة لهُ ويُقيم عقباً لاخيه . ويكون البكر الذي تلدهُ منهُ هو الذي يخلف اسم اخيه المَيْت فلا يندرس اسمه من اسرائيل » (تثنية الاشتراع ٢٥ : ٥و٦ ومتى ٢٢ : ٢٤) . فمن هذا الزواج وُلد يوسف خطيب مريم العذراء . وهكذا كان ليوسف نسبانِ احدهما طبيعي والآخر شرعي . لانهُ كان ابن عالي بحسب الشريعة وابن يعقوب بحسب الطبيعة . فذكر متى نسبه الطبيعي ولوقا نسبهُ الشرعي . وقد بيّنّا ذلك في الرسم التالي :

نسب يوسف خطيب العذراء



وهذا الرأي قد عرضهُ ايضاً ستروس الالماني (١ الّا انهُ لم يسلّم بهِ لانهُ يأبى قبول كلّ رأيٍ يوافق رواية الاناجيل . ومع ذلك اقرّ بانه رأي مُحتمَل

الراي الثاني لاوغسطينوس : نسب التبنّي

ان اوغسطينوس في تأليفه عن اتفاق الاناجيل (٢ يرتأي ان عالي وهو في قيد الحياة تبنّى يوسف ، دون ان يفرض اوغسطينوس كون عالي ويعقوب اخوين من امّ واحدة لا من اب واحد كما قال يوليوس . ومن ثم يعلّل الاختلاف الموجود

١) ستروس في حياة يسوع الجديدة الترجمة الفرنسية المجلد ٢ ص ١٥
٢) ك ٢ ف ٣ ع ٥-٧ (الآباء اللاتين لمين المجلّد ٣٤ العمود ١٠٧٢)

بين متى ولوقا بان يوسف كان ابن يعقوب بالطبيعة وابن عالي بالتبنّي.

معلومٌ ان التبني كان دارجاً عند اليهود فعلاً من قديم الزمان وان لم يخصص لهُ لفظ التبني. نعلم ذلك من سفر التكوين (٤٨: ٥) فان يعقوب بعد انتقاله الى ارض مصر تبنَّى ولدَي يوسف ابنه قال: «والآن فابناك اللذانِ وُلدا لك في ارض مصر قبل قدومي عليك الى ارض مصر هما لي افرائيم ومنسّى مثل راوُبين وشمعون يكونانِ لي» اي انهما يرثانِ مثل سائر اسباط اسرائيل. وكذلك تبنّت ابنة فرعون موسى الطفل: «ولمّا كبر الصبيّ جاءت بهِ ابنةَ فرعون فاتخذتهُ ابناً لها وسمّتهُ موسى قالت لأني انتشلته من الماء» (خروج ٢: ١٠). ونعلم ايضاً من سفر استير (٢: ٧) ان مردكاي تبنّى ابنة عمه استير: «كان حاضناً لهدسّة التي هي استير ابنة عمهِ اذ لم يكن لها ابٌ ولا امٌ... فلمّا مات ابوها وامُّها اتخذها مردكاي ابنة لهُ».

ويروى في قصّة حيقار(١ الذي كان في ايام طوبيا البارّ انهُ توسل الى الله لكي يرزقه ولداً. فقيل لهُ: «حيث انك اتكلتَ اولاً على الاصنام والمنحوتات وقدّمتَ لهم القرابين كذلك تبقى بلا والد ولا بنين ولا بنات. بل قُم خُذ نادان ابن اختك واجعلهُ لك ولداً وعلّمهُ علمك وادبك وحكمتك وهو يرثك بعد موتك». فمن كل هذه الآيات يتضح ان التبنّي لم يكن نادراً عند اليهود وعند كلّ الشعوب السامية. فبكل صواب فرض اوغسطينوس تبنّي عالي ليوسف ابن يعقوب. لكن اوغسطينوس بعد ما اطّلع على رأي يوليوس الافريقي استحسنه وفضّله(٢.

الرأي الثالث: نسب يسوع بواسطة جده عالي

الرأي الثالث يقول ان متّى اورد نسب يوسف ولوقا نسب مريم العذراء. ومن ثم يُنفى كل تناقض بين متى ولوقا.

---

١) قصة حيقار في المجموعة «طرائف فكاهات في اربع حكايات» الطبعة الثانية ص ٢ بمطبعتنا الكاثوليكية

٢) اوغسطينوس في كتاب إعاداته (Rétractations) ك ٢ ف ٧ ع ٢ (الآباء اللاتين لمين المجلّد ٣٢ العمود ٦٣٣)

قبل ان نشرح هذا الرأي يُفيدنا ان نقدّم بعض الملاحظات. اولاً: من المعلوم ان لوقا اثبت في انجيله حوادثَ عن حياة مريم العذراء لم يأت بها غيره من الانجيليين كظهور الملاك جبرائيل للبتول مريم وبشارته لها. وزيارتها لنسيبتها اليصابات. وذهابها مع يوسف رجلها الى بيت لحم للاكتتاب. وتقدمتها الطفل يسوع في الهيكل. وفقدانها الطفل يسوع ووجدانها اياه في الهيكل. فبكل صواب يُعتبر لوقا انجيلي طفولية يسوع وحياة والدته في طفوليتهِ. فلا عجب ان يكون ذكرَ نسبها بذكر نسب ابيها. ثانياً: ان والد العذراء يسمَّى يواقيم. يُعرف ذلك من التقليد القديم. ولعلّ هذا التقليد يستند الى بعض اناجيل الزور التي قد تصدق في بعض الامور. فان انجيل ميلاد مريم يقول ان ابوي مريم العذراء هما يواقيم وحنة. ولا ريب في ان الاسم يواقيم او يوياقيم هو الاسم إلياقيم ذاته. يؤيد ذلك ما ورد في سفر يهوديت حيث يسمَّى الكاهن العظيم تارة إلياقيم وتارة يوياقيم: «وكتب إلياقيم الكاهن الى جميع الساكنين قُبالة يزرعيل... ان يضبطوا مراقي الجبال التي يمكن ان تُسلك الى اورشليم... فعمل بنو اسرائيل كما رسم كاهن الرب إلياقيم» (يهوديت ٤:٥و٧). «واتى يوياقيم الكاهن العظيم من اورشليم الى بيت فلوى مع جميع شيوخهِ لدى يهوديت» (يهوديت ١٥:٩). ويروى في سفر اخبار الايام الثاني (٣٦:٣و٤) وفي سفر الملوك الرابع (٢٣:٣٤) ان ملك مصر عزل يواخاز بن يوشيا واقام «إلياقيم اخاه ملكاً على يهوذا واورشليم وغيَّر اسمه يوياقيم». ولا يخفى احداً ان الاسمين إلياقيم ويوياقيم في العبرانية يدخل في تركيبهما اسم الله وان لاسم الله تعالى في العبرانية لفظتين هما «إلْ» و «يهو». فالاسمان «إلياقيم» و «يهوياقيم» (وبالاختصار يوياقيم) هما صورتانِ لمسمَّى واحد. ومعلوم ثالثاً: ان العامَّة كثيراً ما تتصرَّف باسامي العلم اما اختصاراً واما استحساناً. ويتبع العامَّة في ذلك الكتبة والمؤرّخون. فالاسم يهوياكين «يوياكين» (٤ ملوك ٢٤ : ٦ و ٨و١٢). يصير «يكنيا» (ارميا ٢٧ : ٢٠ واخبار الايام الاول ٣:١٦و١٧) و «كنيا» (ارميا ٢٢ : ٢٤). وهكذا في سائر اللغات وخاصة في العربية: فالاسم جبرائيل يصير عند العامة جبرُ وجَبرا وجبور وجبران. واليصابات يصير صابات. وانطونيوس يصير انطون

وطانيوس وطنوس. الى غير ذلك من التغييرات. فالاسم «إلي» (عالي او هالي) مجتزأ من إلياقيم الذي بمعنى يوياقيم. ومن ثمّ يكون الاسم «إلي» في انجيل لوقا (٣:٢٣) اسم والد مريم العذراء وجدّ السيد المسيح. وعليه يمكن تأويل آية لوقا في اليونانية هكذا: وهو (اي يسوع) الذي كان يُظنّ انهُ ابن يوسف كان ابن إلي. اي انهُ ينتسب الى جدّهِ إلي بواسطة والدته مريم. فالعبارة «الذي كان يُظنّ انهُ ابن يوسف» هي جملة معترضة. والعبارة «ابن إلي» خبر للمبتدأ «هو» اي يسوع. فيُستنتج من ثم ان لوقا اورد نسب مريم العذراء بنسب ابيها وأوصل هذا النسب الى ناثان بن داود.

شاع هذا الرأي بين العلماء منذ اوائل القرن السادس عشر للمسيح لما فيه من البساطة ونفي كل مضادّة بين متى ولوقا. ولا مانع من قبول هذا التأويل ومن ان يُنسب يسوع لجدّه إلي كما لا مانع من ان يُقال (متى ١:٨) «يورام ولد عزيا» وبين يورام وعزيا ثلاث حلقات احزيا ويواش وأمصيا. قال ستروس: «لا يسعنا ان ننكر ان المضاف اليه في عبارة لوقا (في النص اليوناني) لهُ معنى النسبة فيقبل معنى اي نسبة كانت ومن ثم يكون لهُ معنى الصهر والحفيد»(١). فيكون معنى ابن إلي ان يسوع هو حفيد إلي.

اما اذا لم يُقبل هذا التأويل واعتُبرت النسبة خاصّة بيوسف بمعنى ان يوسف هو ابن إلي فمع ذلك نقول انهُ لا مانع من ان يكون لوقا اورد نسب مريم العذراء لان يوسف هو ابن إلي بالتبني لا بالطبيعة. ونسب إلي هو نسب ابنته مريم. فيكون إلي تبنّى يوسف بن يعقوب ثم اعطاه ابنته مريم عروسةً لهُ ليبقى ميراثها في عائلتها اذ يوسف هو ابن عمها وذلك عملًا بالشريعة (عدد ٣٦:١١و١٢) «صارت محلة ... بنات صلحفاد زوجات لبني اعمامهنّ ... فبقي ميراثهنّ في سبط عشيرة ابيهنّ»

حلقات النسب المهملة

يتضح من اسفار الكتاب المقدس انه قد أُهمل في سلسلة نسب المسيح كثير من الحلقات. وهذا الاهمال في الانساب ليس خاصًا بمتى ولوقا فانهما اتبعا كتبة

١) حياة يسوع الجديدة ترجمة ليتري الفرنسية المجلد الاول ص ١٥٨–١٦٠

العهد العتيق ونقلا عنهم. ومن ثمَّ نقول اولاً: انَّ متى اهمل بين يورام وعُزّيا اسماء ثلاثة ملوك لم يكن ان يُجهلوا وهم احزيا ويواش وامصيا . هؤلاء كانوا من نسل عثايا ابنة آحاب وامرأة يورام. وكان الله توعّد بيت آحاب بالشرّ: «ها انذا جالبٌ عليك الشرّ ومُبيد نسلك» (٣ ملوك ٢١ : ٢١) . ولا يخفى ان الذرّية في الكتاب الكريم تُحسب الى الجيل الرابع . فلهذا السبب اغفل متى ذكر هؤلاء الثلاثة الملوك . ثانياً : كتب متى ان يوشيّا والد يكنيا . ونعلم ان يوشيا هو جد يكنيا. فقد ورد في سفر اخبار الايام الثاني (٣٦ : ٤و٨): ان يوشيا والد إلياقيم الذي غيّر اسمه ملك مصر وسماه يوياقيم وان يوياكين (وهو يكنيا) هو ابن يوياقيم . ثالثاً : لم يذكر متى ولوقا بين فارص ونحشون الّا ثلاثة اشخاص هم حصرون وارام وعميناداب وفقاً لسفر اخبار الايام الاول كما يُرى في الجدول الاول الذي قدّمناه . وهذا العدد قليل بالنظر الى المدّة التي بقي فيها الاسرائيليون في مصر سواء كانت هذه المدّة ٤٣٠ سنة كما حسبها البعض ام ٢١٥ سنة كما حسبها غيرهم . رابعاً : بين سلمون (او سلما) ويسّى ابي داود لم يذكر متى ولوقا الا شخصين هما بوعز وعوبيد. وهذا قليل ايضاً لمدة ثلاثمائة سنة ونيف. لان سلمون ابا نحشون يُذكر في سفر العدد (٧ : ١٢) في السنة الثانية لخروج الاسرائيليين من مصر وبين الخروج من مصر وبناء سليمان لهيكل اورشليم كانت المدّة ٤٨٠ سنة كما يتضح من سفر الملوك الثالث (٦ : ١): «وكان في السنة الاربعمائة والثمانين لخروج بني اسرائيل من ارض مصر ... بنى (سليمان) البيت للربّ» . خامساً: بين زربابل ويعقوب والد يوسف خطيب العذراء لم يذكر متى الّا ثماني حلقات بينما لوقا يذكر ثماني عشرة حلقة . ومعلوم ان جلاء بابل انتهى ٥٣٨ سنة قبل المسيح . فيكون متى اهمل كثيراً من الحلقات في سلسلة نسب المسيح . وذلك لا سهواً ولا خطأً بل تعمّداً منه . لانه اراد ان يقتصر على ذكر بعض الحلقات كاعلام نُصبت في طريق المسافر ليهتدي بها في مسيره . فان كتبة الاسفار المقدسة ، في ايراد نسب ايّ شخص كان، لم تكن غايتهم ان يوردوه تامّاً بتعداد جميع الاجداد الذين سبقوه، بل كان مرادهم فقط ان يربطوه ببعض اسلافه المعروفين ويرقوه الى اصل مشهور.

فيضربون صفحاً عند ذكر سلسلة آبائه عن كثير من الحلقات التي تربطه بهذا الاصل ويكتفون بايراد بعض الحلقات الاكثر شهرةً وذلك طبقاً لمرادهم. وهي الخطّة التي نرى كتبة العرب ومؤرخيهم يتبعونها في كثير من تآليفهم . وهذه الخطّة لا تنافي صحة ما يُذكر من الحلقات في النسب وإن أهمل بعضها .

ومما يحسن الانتباه اليه ان متى في ايراده سلسلة نسب المسيح عدّد ٤٢ حلقة قسمها ثلاثة اقسام من ابرهيم الى داود١٤ حلقة او سبعتان. ومن داود الى جلاء بابل ١٤ حلقة او سبعتان. ومن جلاء بابل الى المسيح ١٤ حلقة او سبعتان . فتكون الجملة ست سبعات

وقد اعاد في بدء القسم الثالث اسم يكنيا الذي ينتهي به القسم الثاني لانه اعتبر يكنيا في القسم الثاني كملك فذكرهُ مع الذين ملكوا . اما في القسم الثالث فاعتبره كفرد من الافراد الذين كان لهم حقّ الملك ولم يملكوا لانَّ الملكية كانت أُلغيت مع جلاء بابل فاثبت اسمه في بدء هذا القسم

اما لوقا فانه عدّد في سلسلة نسب المسيح ٧٧ حلقة قسمها اربعة اقسام : من يسوع الى زربابل ٢١ حلقة او ثلاث سبعات . ومن شألتيئيل الى ناثان بن داود ٢١ حلقة او ثلاث سبعات . ومن داود الى ابرهيم ١٤ حلقة او سبعتان كما في انجيل متى . ومن تارح الى الله تعالى ٢١ حلقة او ثلاث سبعات . فتكون الجملة احدى عشرة سبعة. فمن المحتمل أن يكون متى ولوقا سلكا هذه الطريقة عمداً ليسهّلا لطالعي الانجيل حفظ هذه الأنساب

شألتيئيل وزربابل

بقي مشكلٌ يجب علينا حلّه . ان متى ولوقا في ايرادهما سلسلة نسب المسيح بين داود ويوسف خطيب مريم العذراء لم يتفقا الّا في حلقتين فقط هما شألتيئيل وزربابل . قال متى (١ : ١٢) : « بعد جلاء بابل يكنيا ولد شألتيئيل وشألتيئيل ولد زربابل » . وقال لوقا (٣:٢٧): « ريسا بن زربابل بن شألتيئيل بن نيري » .

ان بعض شارحي الاناجيل ينكرون كون شألتيئيل وزربابل اللذين يذكرهما

متى هما نفسا الشخصين اللذين يذكرهما لوقا. فيكون اتفاق الاسماء في الانجيلين بالعرَض . فاذا صحّ هذا الرأي زالت الصعوبة

ألّا ان كثيرين من مفسري الكتاب المقدس يرجّحون بكل صواب ان متى ولوقا يتكلمان عن الشخصين نفسيهما. ومن ثم نقول ان يكنيا الملك كان جُلي الى بابل وزُجَّ في السجن وبقي فيه مدةً ٣٧ سنة الى وفاة نبوكدنصّر. وحينئذٍ اخرجهُ من السجن اويل مروداك ملك بابل واكرمه . كما ورد في نبوّة ارميا (٥٢ : ٣١ و ٣٢) وفي سفر الملوك الرابع (٢٥: ٢٧—٣٠). فيوياكين هذا (وهو المسمّى يكنيا) إما انه كان وهو في السجن فقد اولاده المذكورين في أخبار الايام الاول (٣: ١٧ و ١٨) . واما اذا فرضنا ان يكنيا لم يكن فقدَ جميع اولاده لم يتجاسر ان يسمّي احدًا منهم خلفاً لهُ لئلا، بعد ما تأدب وتاب في السجن، يخالف تهديد الرب له في نبوّة ارميا (٢٢ : ٢٤ و ٣٠): «لو كان كنيا بن يوياقيم ملك يهوذا خاتمًا في يدي اليمنى لنزعتك من هناك.. هكذا قال الرب اكتبوا هذا الانسان عقيماً رجلًا لا يُفلح في ايامهِ ولا يُفلح من ذرّيته احد يجلس على عرش داود ويتسلط في يهوذا من بعدُ» . فلئلا تفنى الذرية الملوكية يكون تبنّى شألتيئيل بن نيري من ذرية ناتان بن داود . ومن ثم يُمكن ان يُنسب شألتيئيل الى يكنيا كما فعل سفر اخبار الايام الاول (٣ : ١٧) وكما فعل متى (١ : ١٢) . ويمكن ان يُنسَب الى نيري كما فعل لوقا (٣: ٢٧) . وسنرى ان شألتيئيل تبنى زربابل ابن اخيه فدايا. وهكذا اجتمع في شألتيئيل الذي من ذرّية ناتان وفي شخص زربابل الذي من ذرّية سليمان فرعان من نسل داود فرع ناتان وفرع سليمان . ولهذا السبب اتفق متى ولوقا في ذكر شألتيئيل وزربابل

زربابل

كتب متى (١ : ١٢) : «شألتيئيل ولد زربابل» . وقال لوقا (٣ : ٢٧) : «زربابل بن شألتيئيل» وورد في نبوّة حجّاي (١ : ١٤) : «نبّه الربّ روح زربابل بن شألتيئيل حاكم يهوذا» . وفي سفر عزرا (٣ : ٨) : «زربابل بن شألتيئيل». ألّا اننا نقرأ في سفر اخبار الايام الاول (٣ : ١٩):

«وابنا فدايا زربابل وشمعي» . فكيف يمكن ان يكون زربابل ابن فدايا وابن شألتيئيل وفي سفر اخبار الايام الاول(٣: ١٧و١٨) يُذكر ان فدايا هو اخو شألتيئيل: «وابناء يكنيا اسير وشألتيئيل وملكيرام وفدايا...» وقد بيَّنا سابقاً ان شألتيئيل هو ابن يكنيا بالتبني وابن نيري في الحقيقة فيكون اخاً لفدايا بالتبني. وقد سبق القول ان زربابل هو الشخص نفسه عند متى ولوقا. فنقول ان شألتيئيل لم يكن له اولاد يتضح ذلك من سفر اخبار الايام الاول الفصل الثالث حيث تُذكر اسماء الملوك من سليمان الى يكنيا وذرية يكنيا وذرية زربابل. ولم تُذكر البتة ذريةٌ لشألتيئيل . فيكون شألتيئيل تبنى زربابل ابن اخيه فدايا . ومن ثمَّ يمكن ان يُنسب زربابل الى فدايا كما فعل سفر اخبار الايام . او الى شألتيئيل بالتبني

يهوذا . يوحنا . ريسا . ابيهود

ورد في انجيل لوقا (٣: ٢٦و٢٧): «يهوذا بن يوحنا بن ريسا بن زربابل». وورد في انجيل متى (١ : ١٣): «زربابل ولد ابيهود» . فنقول ان بعض شارحي الانجيل حاولوا توحيد الاسمين يهوذا وابيهود . فان هذا الاسم ورد للشخص نفسه مختلفاً في الكتابة: يهوذا (لوقا ٣ : ٢٦ وعزرا ٣ : ٩). يهوذا ابن السَّنوءة (نحميا ١١ : ٩) . هودايا (اخبار الايام الاول ٣ : ٢٤) . هودويا (عزرا ٢ : ٤٠) : هودويا بن هسَّنوءة (اخبار الايام الاول ٩ : ٧). فيقولون انه هو المسمَّى أبيهود (متى ١ : ١٣)

وقد حاولوا ايضاً توحيد اسم يوحنا الذي ذكره لوقا وحننيا بن فدايا الوارد في سفر اخبار الايام الاول (٣: ١٩). ولا يخفى ان العامة عند كل الشعوب وفي كل الازمنة كثيراً ما تتصرف بحرية في أسامي الأعلام كما بيَّنا ذلك . فمتى درج الاسم في العامة يستعمله ايضاً الكتبة

وارتأى بعضهم (١ ان «ريسا» في آية لوقا «ريسا بن زربابل» ليس اسماً علماً بل هو لقب لزربابل وان اللفظة «ابن» ادخلها خطأً النساخ بين الكلمتين

١) شرح انجيل لوقا للكاتب البروتستاني پلومر Plumer . الطبعة الرابعة ص ١٠٤ وقد تبعه في هذا كثيرون من البروتستانت

ريسا وزربابل وان الرواية هي « ريسا زربابل » اي زربابل الرئيس او القائد لانه قاد جمهور العائدين من جلاء بابل . وقد قال عنه النبي حجاي (١ : ١٤) : « زربابل بن شالتيئيل حاكم يهوذا »

وفي الختام نعيد ما سبق لنا قوله انه يكفينا ان نعرض للقرّاء شرحاً معقولاً وتفسيراً مقبولاً لآيات متى ولوقا ، ليحقّ لنا ان ننفي عنها المناقضة وان ظهر بينهما اختلاف . فان كلًّا منهما سلك طريقاً مختلفة عن الآخر الغاية صوابية قاصداً الحقيقة ومتوخياً الصدق . فلا يجوز ولا يمكن ان يُنسب اليهما او لاحدهما اغلاط طالما لا يقدر احد ان يبيّن الخطأ في ما كتباهُ ولا ان يؤيده ببراهين ثابتة .

أرز لبنان

في

هيكل سليمان

لحضرة الخوري بطرس روفائيل

٢

وفي سنة ٥٣٦ اي بعد ٥١ سنة من حصار نبوكدنصّر ، أطلق كورشُ ملك فارس في مملكتهِ كلّها نداء وكتابات قائلاً : « هكذا قال كورش ملك فارس : جميع ممالك الارض قد اعطانيها الربّ اله السماوات وأوصاني أن ابني لهُ بيتاً في اورشليم في بلاد يهوذا ، فمن كان منكم من شعبه فليصعد الى اورشليم . وكل من بقي من بني اسرائيل في أحد المواضع حيث هو متغرّب فليُمدِدْهُ أهلُ موضعهِ بالفضة والذهب والمال والبهائم فضلًا عمّا يتطوّعون بهِ لهيكل الربِ في اورشليم »

ثم أخرج الملك كورش آنية بيت الربّ التي كان أخذها نبوكدنصّر من اورشليم ووضعها في بيت آلهتهِ . أخرجها كورش وسلّمها لرئيس بني اسرائيل .

وأمر كورُش ان يُبنى الهيكل بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب الارز والنفقة تكون من بيت مالهِ . ومن مال الملك من خراج

عبر نهر الاردن ، تُعطى النفقة معجّلةً لليهود ولشيوخهم لئلا يتعطّلوا.

فقام كلٌّ من في بلاد بابل من الاسرائيليين المنفيين ، والتفّوا حول زرُبّابل أحد رؤساء الشعب ، وهو من ذرّية داود. ورجعوا الى اورشليم وشرعوا حالاً بالعمل . وأمّا زرُبّابل فلكي يضمن نجاح المشروع التجأ الى الفينيقيين ، بعد استئذان كورش ، ووكل الى سكّان صور وصيدا أمر تشييد الهيكل ثانيةً . وكان بنو اسرائيل يعطون فضة للنحّاتين والنجّارين ، وطعاماً وشراباً وزيتاً للذين يأتون بخشب الارز من لبنان الى يافا . وكانت توضع أسس الهيكل بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصفّ من خشب الأرز. بُدِئَ بالشغل سنة ٥٣٥ لكنهُ ما عتّم ان أُوقف بسبب وشايات رُفعت الى ملك فارس ، وفي سنة ٥٢٠ استؤنف العمل على عهد الملك داريوس ؛ ولم يُنجز الّا سنة ٥١٦ قبل ميلاد السيد المسيح. وقد كان لخشب الارز في هذا الهيكل الثاني نصيب عظيم في اقامة جدرانهِ وسقوفهِ. وكان داخلهُ كلّهُ مزيّناً بخشب الارز المنقوش ، حتى ان زكريا النبي يدعو هذا الهيكل « لبنان » لكثرة ما فيه من خشب الارز فيقول : « افتح يا لبنان ابوابك ولتأكل النارُ أرزك ».

فينتج ممّا سبق ان الفينيقيين ، عُبّاد البعل وعشتروت ، شيّدوا ايضاً بأرزهم وحجارتهم للاله الحقّ ، هذا الهيكل الثاني ، الذي سيجلس فيه من هو اكبر من سليمان ، اعني يسوع فادي العالم ومخلصهُ.

وقد قال الرب عن هذا الهيكل الثاني بسبب جلوس فادي البشر فيه : « اني أزلزل جميع الامم ، ويأتي مُشتهى جميع الامم ، فأملأ هذا البيت مجداً ، قال ربّ الجنود.

« وسيكون مجدُ هذا البيتِ الاخير اعظم من الاول ، قال رب الجنود.

« وفي هذا الموضع أُعطي السلام ، يقول ربّ الجنود. »

ان اسكندر الكبير قد زار هذا الهيكل الثاني وذبح فيه ذبائح للاله الحق . وجاء بعدهُ انطيوكوس ملك سوريّة فدنّس الهيكل ، وابطل الصلاة فيه للاله الحق. وبنى على مذبح المحرقات مذبحاً صغيراً للاصنام ، واخذ مذبح الذهب ، ومنارة النور مع جميع ادواتها ، ومائدة التقدمة والمساكب والجامات ومجامر الذهب والاكاليل والحِلية الذهبيّة التي كانت على وجه الهيكل ،

وحطمها جميعاً ، واخذ الفضة والذهب والآنية النفيسة ، وما وجد من الكنوز المكنونة ، اخذ الجميع وانصرف الى ارضهِ.

وفي السنة الثالثة والستين قبل ميلاد مخلّص البشر ، استولى بومبيوس القائد الروماني على اورشليم ، وولج وحاشيتهُ حتى الى قدس الاقداس. انما لم يمدَّ يدًا الى كنوز الهيكل ولا الى ادواتهِ . وفي اليوم التالي أمرَ فطُهّر الهيكل ، وقُدّمت فيهِ المحرقات. امَّا كراسوس القائد الروماني الآخر فدنَّس ما كان احترمهُ بومبيوس ، ووضع يدهُ على كل الكنوز التي كانت العائلات الاسرائيلية قد ودعتها في الهيكل.

ولمـا تُوّج هيرودوس في رومية ملكاً على اليهودية سنة ٣٩ ، رجع الى اورشليم تصحبهُ الجنود الرومانية . فحاصر المدينة فهرب الملك انطيغون خصمهُ مع اليهود انصارهِ ، الى جبل موريّا . وبعـد حصار دام خمسة اشهر سقطت المدينة وسلّمت ، فنهب الرومانيّون الهيكل وانتهكوه واحدثوا اضرارًا فيه، انما لم يخربوهُ.

وكان هيرودوس هذا قد شيّد هياكل عديدة باسم القيصر عاهل رومية ، وساعد اهل جزيرة رودس الوثنيّين في اقامة هيكل لابولون. فاراد ان يستميل اليه اليهود ويرضيهم ، فرمَّم هيكل زربّابل ، وزيّنهُ احسن تزيين ، وكبّرهُ ووسّعـهُ ، ولم تُبطل فيهِ الخدمة الالهية في اثناء العمل . وقد استخدم لذلك عشرة آلاف رجل ، وعلّم نحو الفٍ من الكهنة واللاويّين بمهنة نحتِ الحجارة ونَقش الخشب ليُصلحوا قـدس الاقداس ، حيث يتعذّر الـدخول على العملة العلمانيين.

وكان لاهل فينيقية ولبنان اليد الطولى في تجديد البناء ، وادخـال الارز فيهِ بكمّيات عظيـمة.

وكانت الحجارة ذات حجم جسيم ، وكان قياس بعضها يبلغ اربعين ذراعاً طولًا . وقد تكون تلك الحجارة التي تكلّم عنها المخلّص. ذكر متى الانجيلي ذلك قال : « وبينما كان يسوع خارجاً من الهيكل تقدّم اليهِ تلاميـذهُ يُرونهُ بناء الهيكل اما هو فقال لهم : أترون هذه البنايات ؟ الحقَّ الحقَّ اقول لكم

انهُ لا يُترك فيها حجرٌ على حجر الّا سينقض ».

وكان البناء قائماً بثلاثة صفوف من الحجارة وصفٍّ من خشب الارز ، وكان داخلُ الهيكل كلهُ بسقفهِ وجدرانهِ مُغطًى بخشب الارز المنقوش كما كان هيكل سليمان.

ففي هذا الهيكل الذي رمَّمهُ هيرودس الاول، قُدِّم يسوع مخلص العالم الى ابيهِ السماوي ، وقُدِّم عنهُ زوج يمام . وفيهِ كان يأتي مع امهِ ومار يوسف للاحتفال بالاعياد. وفيهِ علَّم وهو في الثانية عشرة من عمرهِ ، وجلس بين العلماء يجادلهم . وفيهِ لما بدأ بالتبشير كان يصلي مع تلاميذه . وفيهِ ايضاً غضب وطرد من الاروقة البيَّاعين والصيارفة وقال لهم : « قد كُتب بيتي بيت الصلوة يُدعى وانتم تجعلونهُ مغارةً للصوص ».

ولما تبوأ هيرودوس اغريبا عرش ابيهِ ، احبَّ ان يزيد في علو الهيكل ليساوي علوَّ هيكل سليمان ، فأتى بخشب لبنان من أرزٍ وسرو لهذا الغرض ، وانفق في سبيل ذلك مبالغ جسيمة ، الّا ان الحرب اشتعلت نارُها بين اليهود والرومان فاستُخدم هذا الخشب لاعمال الدفاع.

وفي السنة السبعين بعد ميلاد المخلّص، تمرّد اليهود وثار ثائرهم على الرومانيين ، فاستولوا على حصن إنطونيا وذبحوا حاميتهُ وكانت من الجنود الرومانيين . فهاجمهم طيطوس القائد الروماني بعسكرهِ . وكان السيد المسيح قد سبق وقال لتلاميذهِ : « متى رأيتم الجيوش تحيط باورشليم وتحاصرها ، فاعلموا حينئذٍ ان يوم خرابها قد قرب . فالذين يكونون في اليهودية فليهربوا الى الجبال ، والذين يكونون في المدينة فليخرجوا منها ، والذين يكونون في الحقول فلا يخالجهم فكر الرجوع الى المدينة ».

اذكَرَ المسيحيون نبوَّة سيّدهم وانتبهوا ، فتركوا اورشليم على منظر من الجنود الرومانيين ، وفي مقدَّمتهم اسقفهم سمعان ، وهربوا الى الجبال ومكثوا فيما وراء الاردن الى ان تمَّت النبوَّات على المدينة الجاحدة.

وبعد ان طال امرُ الحصار ضربت المجاعة والأمراض اطنابها في اورشليم ، فدخل طيطوس وجنوده المدينة وارتكبوا فيها الفظائع ، فأخربوا وأحرقوا كلَّ

شيء.. وكل من وقع من اليهود بين ايديهم كان يُذبَح ذبحاً بدون شفقة ولا رحمة.

الجنود متقطعون الى النهب والتدمير ، وطيطوس مهتمّ كلّ الاهتمام بصيانة الهيكل من كل ضرر ، لانهُ كان من اجمل وافخم الآثار في السلطنة الرومانية. لكن ارادة الله كانت غير ذلك. ظهر جنديّ كأنهُ مدفوع بقوّة الهيَّة ، فطلب ان يُرفع الى عاوٍ احدى نوافذ الغرَف الملاصقة للهيكل ، ورمى جمرة، فاشتعلت النار وانتشرت. عرفَ طيطوس بذلك فأسرع على عجلتهِ ، وأصدر أمرهُ بالكلام والاشارات أن اطفئوا النار ، فتمامى الجنود كي لا ينظروا حركاتهِ وتصامّوا كي لا يسمعوا كلامهُ ، فما عتم ان سقط البناء، ولكثرة الخشب فيهِ ، التهمت النار كلّ شيء بسرعة غريبة.

ولمّا تمّ الانتصار لطيطوس أتت الشعوب المجاورة تقدّم لهُ مع التهاني اكاليل الغار والزهور، فاجابَ القائد الظافر الوفود قائلاً: «اني لم اكن الّا آلة للانتقام الالهي».

وبعد ذلك بستين اقام ادريانوس الامبراطور الرومانيّ في مكان الهيكل بناية نصب فيها تمثالهُ وتمثال جوبيتر كبير الالهة ، فجاء قسطنطين فأمر بهدمها.

ولمّا تقلّد المُلك يوليانوس الملقب بالجاحد ، رام تجديد بناء الهيكل فشمّر عن ساعد الجدّ ، ووضع في تحقيق فكرته كل نشاطهِ ونفوذهِ وكنوزهِ ، فخيّل ان النجاح مضمون لان المشروع قد صادف انصارًا ومساعدين من كل الجهات: الامبراطور في رومية ، والحكام في اليهوديّة ، والشعب. العلم والقوّة والغنى. وما كان يحول دون انجازهِ الا امرٌ واحد ألا وهو نبوّة يسوع الناصري.

تلك النبوّة لم يكن لها اقلّ اعتبار في عيني يوليانوس. بل انهُ سيبذل وسعهُ في تكذيبها.

أخذ الجميع يعملون بنشاط وحماسة: الرجال والنساء والاولاد. وكان يوليانوس يستنهض همّة اليهود فاراد كلٌّ منهم ان يكون لـهُ حجر في ذلك الهيكل. لكن خاب ظنّهم وحبط مسعاهم وباطلاً كان ادّعاؤهم.

كان اليبيوس رئيس نظّار الاشغال يشرف يوماً على العمل بصحبة حاكم اليهوديّة ، واذا بريح ناريّة مرعبة خرجت من أُسس البناء. فالتهمت مرارًا العملة، وجعلت ذلك المكان قفرًا. فأُهمل المشروع تماماً وغُلِب يوليانوس على أمرهِ.

كان يسوع الناصري قد قال: «الحقَّ الحقَّ اقول لكم لن يبقى في هذا البناء حجر على حجر.»

وها قد صدقت نبوّتهُ. وما يريدهُ الله لا يقاومهُ البشر.

* * *

نقول، ولا مبالغة، ان هيكل سليمان، آية زمانهِ، وطُرفة العهد القديم، قد اقامهُ ابناء فينيقية، ابناء لبنان. فينيقيًّا كان المهندس الذي اشرف على الاعمال. فينيقيين كان الصاغةُ والنقّاشون والبنّاؤون ونحّاتو الحجارة. من فينيقية اكثر الموادّ اللازمة للبناء، وفي اولها خشب الارز. ان عبّاد عشتروت وبعل الفينيقيين هم الذين شيّدوا وزيّنوا هيكل الاله الحقّ.

ان ننسَ لا ننسَ ويلات الحرب الكبرى التي اجرت الدماء انهرًا، وما حلّ بلبناننا العزيز وجبالنا وسهولنا من المصائب. تلك الحرب قد دمّرت بلادنا فأقفرت الارض، ويتّمت من بقي من الاولاد، وهدّت اركان العيال، وجعلت القرى العامرة قبورًا دُفِن فيها سكانها عشراتٍ عشراتٍ، مئاتٍ مئاتٍ، بل الوفًا الوفًا.

في تلك الايام السوداء قام اللبنانيون المتشتتون في بلاد المهجر، مذعورين، ونشطوا الى مساعدة ذويهم الذين يهلكون في الوطن جوعًا وضنكًا وهمًّا وفاقةً وظلمًا. ارسلوا الاعانات افرادًا وجماعات، نشروا الكتابات مستصرخين، حبّروا المقالات مستغيثين، ألّفوا الجمعيات مستعطين، ليسدّوا رَمَقَ مَن هم في لبنان المحبوب هدفُ سهام الجور والتعصّب.

وكان بين تلك الجمعيات جمعيّة عُرفت في الولايات المتحدة باسم «جمعية بنات لبنان» اعضاؤها عقيلات وكريمات مواطنينا الكرام، وغايتها مساعدة من يتضوّر جوعًا في لبنان. ففي سنة ١٩١٧ تأسّس في مدينة بوفالو فرع لهذه الجمعيّة. ويومًا ما كانت سيّدة وابنتها تتفاوضان في امر الجمعية بحضرة اسرائيلي كريم معتبر يُدعى المستر شوستر، فاستوضحهما الرجل عن غاية الجمعية. ولما عرفها قدّم مبلغًا من المال قائلًا: «نحن يا سيّدتي مديونون بهيكل سليمان لأرز لبنان. فعلينا جميعًا ان نهتمّ بخلاص الأرز، وبلاد الأرز، واولاد الأرز.»

حبّذا القول! ونعمَ القائل!

سورية وطريق الهند

بقلم الاب لامنس اليسوعي

ان يرسخ في قلبنا اعتقاد ، منذ زهاء اربعين سنة ونحن ندرس تاريخ هذه البلاد ، فهو اعتقادنا خطورة مركزها الجغرافي ، واملنا بمستقبلها الباهر. وهذه العواطف قويت فينا لما جمعنا المواد لتأليف كتابنا «تاريخ سورية» المطبوع في العام ١٩٢١ ، فانعمنا النظر في مصيرها على تطورات الايام ، فرأيناها رابطة الجأش صابرة على النكبات . حل الاعداء عليها فعاثوا فيها فساداً ، ونزلت بها نوازل المجاعات والطاعون والزلزال ، فصرعتها، لكنها لم تلبث ان نهضت وجددت شبابها كأن الزوابع تزيدها نشاطاً ، والكارثات تورثها حياةً . ولم يكن صبرها على الجور والاستبداد ايام حكامها الظالمين باقل منه بسالة على آفات الطاعون والمجاعة

وحسبنا ، في هذا الصدد، ان نعود بالذكر الى عهد المماليك (١٢٩١–١٥١٦) والى ايام دولة بني عثمان ، وهي الاقرب زماناً منا والاشد ضرراً بنا . أتستطيع بلاد مقاساة ما قاسته سورية في تلك الايام ولا تفنى عن بكرة ابيها .

اناخ المماليك بكلكلهم على البلاد والعباد ، سحابة قرنين ، فسلبوا ونهبوا واستباحوا الدماء ، وهم عصبة شذاذ مغامرين ، وارقاء ابناء ارقاء ، لان المملوك معناه العبد الرقيق ، دأبهم الفوضى والقتال ، فاقتتلوا واجهز بعضهم على بعض ، ولم يهتموا بامر السوريين الا فيما كان يعود عليهم بالارباح والمغانم . وان دولة المماليك انقرضت وباد اثرهم ، اما سورية فلم تتحول الى قفر ولم تمت .

على انها بدلت حكاماً بحكام ، وخلف الباشاوات الاتراك المماليك ، في العام ١٥١٦ ، وحذوا حذوهم فحكموا واستبدوا وتركوا مقاليد الدولة لعبة بين ايدي الرشوة والطمع والفوضى ؛ وما كان دأبهم سوى تحصيل الاموال باسرع الوسائل واقرب الطرق . اما معدن الاموال لهم فهم السوريون .

كانت القسطنطينية اشبه منها بالسوق تُعرض فيها الوظائف للبيع ، فيتقاسمونها ويتصافقون عليها. وكانت وظيفة الباشا في حلب او في دمشق يبلغ ثمنها ما يوازي مليوناً من عملتنا اليوم ، ووظيفة الدفتردار نصف ذلك. ولم تكن تلك المبالغ بكثيرة على اصحابها ، وهم يستعيضون عنها بعدة عام يقضونه في الولايات . فيعودون الى استانبول وقد وفوا ديونهم وزادوا ثروتهم اضعافاً . ثم يخلفهم غيرهم في تلك الوظائف فيقبضون على زمام الامر ويأكلون ويشبعون ولم يكن ذهب سورية يشبع جشع هؤلاء فقط بل كان يبلغ عن ايديهم قصر السلطان ومنهُ يوزع على سراريه ووزرائه .

طالت دولة الاتراك اربعة قرون واهرقت من الدماء ما اهرقت ثم انقرضت عقبَ الحرب العظمى وسورية لا تزال تتمتع بحياتها وعمرانها .

من اين لها هذه الحياة العجيبة ؟ انّى الكنوزها ان تتجدَّد وتتوفَّر بعد السلب وبعد النهب ؟ كيف عادت المياه الى مجاريها وقد حاول المماليك والاتراك استنزافها من مناهلها ؟ ألعلَّ الفضل في ذلك عائد الى تربة البلاد وخصبها ؟ نعم لقد نظر اليها البدوي ابن الصحراء معجباً بغناها وسماها « ارض الخمر والخمير والديباج والحرير »(١) ولكن خصبها اشبه منه بالغرسة الضئيلة بالنسبة الى الشجرة ، اذا ما قابلته بخصب مصر « وتربتها الغبراء ونهرها الميمون الغدوات، المبارك الروحات »(٢)

ولم تكن معادنها اساساً لثروتها لان ما تحتويه طبقاتها الارضية من الدفائن لا يزال امره مبهماً غامضاً .

ان موارد ثروتها الحقيقية، والسلاح التي تقلدتهُ لتقهر نكبات الدهر، انما هو موقعها الجغرافي ، فهو خير مستند تتكل عليه لتنظر الى مستقبلها الاقتصادي بعين الثقة والارتياح .

لا تلقي نظرك على خارطة آسية الغربية ، ايها القارئ اللبيب ، حتى تبدو

١) (اغاني ١٤ : ١٥٦)

٢) عمرو بن العاص في كتابه الى عمر بن الخطاب

لك بقعة هيئتها هيئة المربع المستطيل الممدود بين البحر المتوسط والبادية ، وموقعها على مفارق الطرق بين اقطار العالم القديم اعني اوربة وآسية وافريقية . تلك هي البلاد السورية وهي تحلّ في العالم المتمدن محلّ النقطة المركزية من الدائرة،لان حضارة مصر واليونان وبابل احاطت بها وأثرت فيها ، وروتها من ينابيع خيراتها . فلا عجب اذن ان قال فيها السير رنه پينون : « ان سورية في العالم البشري كالنقطة الحيوية من الانسان.» وهي كاداة الوصل للعالم القديم لانها تربط آسية بافريقية.وهي وجه المشرق الوضاح يغتسل بمياه البحر المتوسط ويتنسم من طيات موجه نسمات الغرب البليلة

هذه هي بلادنا . وليست هي بشرقية محضة ، وليست بغربية محضة . انما هي جسر يصل جزيرة العرب الماحلة المجدبة وصحراءها بارياف النيل الغنية واودية الفرات المخصبة بل هي ارض الحركة والمعاطاة التجارية والمعاملات الاقتصادية . وما ان نتصفح الكتاب المقدس حتى نتحقق انها كانت منذ القدم ارض المرور التاريخية.

في سورية مر ابراهيم ابو الشعب العبراني والعربي بعد خروجه من اور الكلدانيين . وبسورية اجتاز التجار الاسماعيليون ، فقطعوا بطونها وحزونها ، وابتاعوا يوسف من اخوته وسافروا به الى مصر . والى سورية أمّ الملوك من اوفير وسبأ ، اسياد البلاد الغنية بالذهب ، وارباب الأيالات الشهيرة بالعطور والندّ والطيب . ومن سورية اشرق عليهم نور فاجتذبهم اليها.وبفضل روحاتهم وجيئاتهم اصبحت سورية سوقاً يتبادل فيه البشر محصولات الخافقين . تلك المواكب الملوكية والركب الفخمة لا يزال ذكرها حياً في ما روته التوراة ، واليك بعض شذراتها : " وكان وزن الذهب الذي ورد على سليمان في سنة واحدة ست مئة وستة وستين قنطار ذهب غير الوارد من المكاسين وتجار الجلب وجميع ملوك العرب وولاة الارض الذين كانوا يأتون سليمان بالذهب والفضة (١ ايام : ٩ ؛ ١٣،١٤) وقال حزقيال ان اغنياء التجار كانوا يفدون الى صور من بلاد سبأ واليونان وما بين النهرين ويتزاحمون في اسواقها.(حز ؛ ٢٨)

* * *

اما في يومنا فما من مؤرخ يستطيع ان يضع موضح الريبة تأثير طريق الهند التجارية في تطوّر التاريخ وفي حياة الشعوب الاقتصادية . وان الاستيلاء على تلك الطريق المؤدية الى الغرب بحصولات الشرق انما هو دأب الدول المعروفة بجرأتها ونشاطها.

هكذا كان الامر على ايام الدول البابليَّة والمصرية والحثيَّة، وهكذا لا يزال الى يومنا . على هذه البلاد الفريدة في نوعها تقاتلت البشرية بالامس ولا يزال قتالها متواصلاً الى اليوم . وهو تارة محصور في دائرة السفارات والدواوين ، وتارة منتشر تحت لواء الحروب الهائلة . رجال الحكم ورجال التجارة يطمحون الى اسواق الهند كأن برقاً خلباً ذهب ببصائرهم . وكلما توفرت وسائل النقل واقتربت المسافات بفضل الاختراعات الحديثة ، تبارى أولو الامر وتسابقوا في الوصول الى مآربهم . وما اشدَّهم كدّاً في الجدّ اليه ، وسعياً الى التمتع به وحدهم . فلا يزاحمهم عليه مزاحم . وكان من آثار ذلك الاجتهاد فتح ترعة السويس ومدّ الخط الحديدي البغدادي . حتى قال بعضهم ولم يغالوا : ان المسألة الشرقية هي في حقيقتها مسألة الهند . ولخص الالمان القضية كلها بهذه الكلمات (Drang nach Osten) اي « الزحفة على الشرق » . ولم تكن الزحفة في الحقيقة الّا على طريق الهند ، وليست هي من اقلّ العوامل التي اضرمت نيران الحرب الكونية سنة ١٩١٤ .

في العهد القديم ، وفي القرون الوسطى ، كانت المعادن الثمينة والابزار التي اشتهرت بها الهند هدفاً للمطامع ومدعاةً للمشاكسات . وقد نشبت ، في اواخر القرون الوسطى ، حرب فريدة في نوعها دعيت « حرب البهار » . اما اليوم فليس القتال على البهار والقرفة والقطن فحسب ، بل هو ايضاً على البترول ولا غنى عنه للصناعة العصرية (١

فلا عجب ان يدور دولاب التاريخ ويجدّد في الزمان الحاضر حوادث العهد الغابر ، لان الاحتياجات ذاتها الناتجة عن المطامع ذاتها هي التي تحوّل الطرق

١) راجع الفصل الاول من كتابنا : «La Mecque à la veille de l'Hégire»

التجارية العظمى الى طرق لحركة الجيوش والتحام المعارك.

وان الممر السوري هو الاقرب مسافةً والاقلّ نفقة للتنقل بين الهند واوربا وهو بريّ وبحريّ معاً. لان مياه شط العجم كانت في سالف الزمان تلجه من مصب النهرين الكبيرين (دجلة والفرات) الى قلب البر كأن وادي الفرات ترعة اخترقتها الطبيعة صلةً بين البحر المتوسط وخليج فارس. وكان التجار يركبون السفن ويجتازون عليها المياه من الشرق الى ان يبلغوا منبج وجرابلس، وهم على قاب قوسين او يكادون، من الاسكندرونة، حيث مياه البحر تختلج الاراضي السورية، وحيث كوع الفرات يتجه نحو البحر المتوسط كانه يلتمس له مصباً فيه ليقرب بين الشرق والغرب.

وان الطريق من الهند الى اوربة عن مجرى الفرات هي اسرع من غيرها واوفر وآمن، ولا سبيل الى الريبة في الامر. وحسبنا شاهداً على صدق كلامنا ما رواه التاريخ عن وفرة عدد المارّين عليها على مدى الزمان، فضلاً عن وجود المدن الكبرى على جانبيها، واثارها الى يومنا تنطق بغناها، وقد كانت حياتها على المياه ومن المياه. تلك المياه المحيية قد قيّض لها في يومنا ان تغور في الصحراء فلا حياة على مجاريها ولا عمران

كيف انقلب خصبها القديم الى صحراء عقيم؟ ذلك لأن المنازعات السياسية والحروب والاضطرابات حالت دون حركة الاسفار التاريخية، فترك المسافرون طريق الفرات الى غيرها، محوّلين سيرهم عن البادية نحو الجنوب، وكانوا اينما توجهوا فتحوا باباً للتجارة والعمران

وقد يخطر على بالنا، ونحن نذكرهم، تاريخ تدمر ونشأتها المدهشة وعزها الشامخ. فانها برهان على ذكاء الاعراب وحزمهم، لانهم قدروا قيمة الصحراء واستغلّوا موقعها الجغرافي، اذ حطّوا رحالهم فيها وابتنوا مدينتهم بين الفرات والثغور السورية. وما يقال عن تدمر يطلق ايضاً على بترا (عاصمة النبطيين) وعلى غيرها من المدن التي ازدهرت في اودية العاصي والفرات، ولا تزال انقاضها تنطق بسالف عمرانها. فما احرانا بالاسف عليها وبندب ايام حولت ميدان الثروة والمدنية قاعاً صفصفاً

قال العلامة رينه دوسو في مؤلفه المنون « اماكن سورية التاريخية » :
« ما ان يقطع المسافر تلك المسالك المقفرة حتى يعتاص عليه امرها . ولا يصدق ما يروى عن عمرانها السالف الا اذا احيا صورتها في مخيلته ، وتذكر تارة الشرق وفارس والهند ، وطوراً الغرب . فلا يلبث ان يفهم ان طريق الصحراء كانت مطروقة معبدة للقوافل ولحركة التجارة »(١ هذه هي اسباب النجاح في الماضي

* * *

فينتج مما تقدم ان ليس بين الطرق المؤدية من اوربة الى الهند طريق اسهل مسلكاً من سورية ، فمن الواجب ان نعتني به اعتناءنا باحد مرافقنا الحيوية ، فنبذل الجهد لتجهيزه بما يحتاج اليه التنقل العصري ، لان نجاحه متعلق بسائر العوامل المؤثرة في الحركة النقلية البرية ؛ وغنى البلاد منوط امره ليس بالدولة وحسن ادارتها فقط ولكن برواج حركة النقل ايضاً ، والمحافظة على طريق الهند . ومن الشاهد على ذلك ان اكتشاف رأس الرجاء الصالح كان له تأثيره السيء في امهات المدن السورية القديمة اعني بها انطاكية وسويدية واللاذقية وغيرها من المرافئ

على شاطئ الفرات السوري نشأت سلسلة مدن قديمة ، هي شاهد على حركة التجارة على النهر ، أنقاضها تنعيها اليوم واكثرها لا يُعرف منها الا اسمها نهتدي به تدريجاً الى الاطلاع على الخطاط تلك الطريق التجارية . وكان كلما ابطأت حركة المسافرين كسدت سوق التجارة وجمدت حركة الماطاة في سورية
تقلص ظل الدولة الرومانية في البلاد السورية ، فاخذت مصابيح مدنها الفراتية تنطفئ واحداً واحداً . ثم ظهرت الدولة العباسية فرغبت عن سورية في العراق ، ولم تكترث لمصالحها وتجارتها فانقطع سير السفن على الفرات واصبحت اراضيه قفراً يُغير فيه البدو على القوافل فينهبونها
لم ننه تحرير هذه الاسطر الا وقع نظرنا على النشرة الافرنسية الاسبوعية

---

١) راجع R. Dussaud : Topographie historique de la Syrie p. 249

(جورنال دي ديبا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٨) فقرأنا فيها ما يلي « إيلتا والفسيان ان مركز سورية الحربي هو مفتاح من مفاتيح طرق المواصلات العالمية في المستقبل . كلما عمدنا الى السفر والنقل ابتغينا فيه السرعة ومن وسائل هذه السرعة الطيارات والسيارات والخطوط الحديدية . وان موقع سورية في ملتقى الطرق الجوية والبرية الدولية . وباديتها المفتوحة للمواصلات على ايام الرومان قد اوشكت ان تستعيد سالف اهميتها » . ونوّه صاحب المقال بما يُنسب الى ايطالية من المطامح فقال : « من قبض على زمام السير في سورية كانت في يده مقاليد الاتصال بين الشرق الاقصى والغرب وبين آسية واوربة »

* * *

فيحق اذاً السوريين ان يعلقوا الذ الاماني على مستقبل وطنهم الاقتصادي . لكنه لا بد لهم من التفطن الى ان العناية الالهية لا تبتذل العجائب ابتذالاً ، ولا تخلص من الغرق من يترك دفة سفينته العوبة الموج والرياح . لقد قام جيراننا يزاحموننا على طريق الهند (وحسبنا ذكر فلسطين) لعلهم يحولونها اليهم ، وهم يعللون النفس بالظفر لما يبذلونه من العناية في سبيل تنظيم السفر وشدّ حبل الامن ليستفيضوا بذلك عما تفوقهم به سورية من قرب المسالك

فعلى السوريين ان يتقوا تلك المخاطر وقد بيّنت الاضطرابات الحديثة انها ليست اضغاث احلام . ان الجغرافية محالفة لهم فليحالفوها . ولتكن سورية الطريق الدولية المؤدّية الى الهند ، المفضّلة على سواها ، ليس فقط لقربها ، ولكن لنظامها وسرعتها ووفرة اسباب الراحة والامن فيها . ولا بد ان يهتم اولياء الامر آجلاً او عاجلاً بشأن الملاحة على الفرات

وان ما عرضنا امره للقراء لهو برنامج واسع . انما هو عنوان النهضة الاقتصادية وتجديد حركة المواصلات . ولا يدخل في حيّز الفعل الا بالتضحيات المالية . اما المال المبذول في سبيل تحقيقه فهو اثر من مآثر الفطنة ، وزرع يأتي حصاده باحسن المحصولات

الدين والحرية

بقلم حضرة الاب ا٠س٠ مرمرجي الدومنيكي

من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

من اسبغ ما غمر به الخالق عبده الانسان من الآلاء هو تلك الهبة المنقطعة النظير ، والعاجز عن وصفها كل لسان ، الا وهي الحرية ، الممكنة صاحبها من تخيّر الاشياء واتيان اعماله بما خوّله من سلطان . وما احسن صنع البشر ، لتنّهم بهذه الدرّة الكريمة ، وافتخارهم بهذه المزيّة الفريدة . وما كان اضلّ القوم المدّعين ما لا يقبله العقل ، ويمجّه الذوق السليم ، وهو خلوّ المرء من هذه الصفة الجزيلة القدر والفائدة ، على ان كثيرين من ابناء هذا العصر ، ان لم ينكروا الحرية نكراناً تامّاً ، فقد حادوا عن جادّة الصواب في ما يرجع الى ماهيتها وطريقة استعمالها . وقد استدرجهم الى هذه الوهدة التعاليم الفلسفية الاجتماعية المموّجة ، ونجاح المجتمع الحالي في المادّيات ؛ فطمحت النفوس المتهوّرة الى اساءة العمل ، باسم الحرية ؛ والمغالاة في ادّعاء الاستقلال الذاتي ، او الاباحية . ولذا ، فالجدير بذوي الحجى والنهى ، ان يستطلعوا كنه هذه المزية ، المفارقة بني البشر عن بقية الخلائق الارضية ، ليقفوا على ما هي عليه من الكرامة ، فيحسنوا ممارسة اعمالها ، غير مفرطين ولا مفرّطين ، متذكرين ان خير الامور الوسط ، وحب التناهي غلط . وما من وسيلة انجع لبلوغ المرام ، في هذا المقام ، من تمحيص نظرية الحرية ، وحقيقتها بذاك المحك الفعّال ، محك الدين القويم . واذ كان اعداء الدين قد تاهوا في بيداء الضلال ، منهم بنكرانهم وجود الحرية ؛ وبعضهم بجهلهم او تجاهلهم ماهيتها ؛ وغيرهم بادعائهم ان الدين مناهض لها ؛ لاق بنا ان نستفتي الدين في كل قضية من هذه القضايا .

١ وجود الحرية

بين معتقدات الدين المسيحي ، حقائق فائقة الادراك البشري ، يجب ان يؤمن بها المرء استناداً الى علم الله غير المتناهي ، وصدقه ، قولاً وفعلاً . وهذه العقائد هي ما ندعوه اسراراً . بيدَ انَّ هناك حقائق متفق على اعلانها الدين الطبيعي ، والدين العلويّ . ومن جملتها قضية وجود الحرية . فانها عقيدة من عقائد الايمان ، وحقيقة من الحقائق الفلسفية . ولذا تتضافر في ايضاحها الأدلّة اللاهوتية ، والبيّنات المنطقية . وفي مقدمة المستمدّات ، في ذا الشان ، هو الكتاب العزيز . فان مختلف اسفاره يحوي الآيات الجمّة ، التي ترينا الله ، عز وجلّ ، متشكياً ، غالب الاحيان ، من انصراف البشر عن خدمته ، ومقاومتهم لمشيئته . فتارة يتوعدهم بالهلاك ، ان هم اصرّوا على العصيان ؛ وطوراً يعدهم بالغفران ، ان هم عادوا اليه تائبين . وهو أمر يفرض دون ريب وجود الحرية ، في هؤلاء العباد . اذ لولا الحرية ، لما كان من معنى للوعد والوعيد ، ولا من داعٍ لكل الوصايا المسنونة لدفعنا الى الخير وصدّنا عن الشرّ ، ولا من مسوّغ لانزال القصاص الزمني والابدي في من يخالف الشريعة ، والمكافأة بالخيرات والجنة الخالدة لمن يسير بموجبها . لانه حيث تسود الضرورة ، والاجبار ، فلا محل للثواب والعقاب ، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة

فضلاً عن شهادة الكتاب ، هناك شتى الشهادات العقلية . اولاها مستمدة من طبيعة نفس الانسان وهي اتصافها بالروحانية او التنزّه عن المادة ، اي عدم الاختلاط بها والخضوعَ لاحوالها ، كالكمية ، والحركة ، والقياس . اذ غير ممكن ان يقال ، الا بطريق المجاز ، ان النفس ، او العقل ، او الفكر مدوّر او مربّع ، ابيض او اسود ، بارد او حارّ ، عالٍ او واطئ ، واقف او جالس ؛ اذن خواص المادة ليست بخواص الروح . واذ كانت النفس غير منحصرة في دائرة المادّة ، فهي ممتدّة القوى ، ومتجهة نحو الاشياء العامة او غير المحدودة . ولذلك اتّسعت سلطتها على الكائنات ، وهذا الاتساع مصدر حرّيتها . لان النفس تشرك العقل بغزارة حياتها ، بمّا يمنحه القدرة على معرفة الاشياء المختلفة

منزّهةً عن المادة . وقوة الارادة تابعة لقوة العقل ، وبذلك تتصف بهذه الصفة اي الميل الى الموجودات المطلقة ميلًا ينجم عنه حريتها . زد على ذلك ان قوانا البشرية جارية اعمالها بنظام لا يشوبه ادنى تنافر او اضطراب . اجل ! اننا لسنا بجاحدين ان هناك مجالًا فيه الانسان معدوم الحرية ، وهو مجال الحقائق البديهية ، التي لا مناص للعقل السليم من قبولها ؛ ومجال الخير الاعظم الذي تميل اليه الارادة تائقة هائمة دون منة منها . لكن خلا هذا ، هناك ميدان فسيح الارجاء ، هو ميدان الامور الحادثة ، والخيرات الجزئية ، فيه يرى الادراك سارحاً ، والمشيئة مارحة ؛ فلا العقل يحكم احكاماً متضارعة ؛ ولا الارادة تعطف ، ضرورةً ، الى خيرٍ دون غيره من الخيرات . وداعي ذلك هو ، على ما جاء به مار توما اللاهوتي ، ان القوة المدركة اذا جالت بين الحقائق النسبيّة الجزئيّة ، لا تشعر بذاتها متقيدة بحكم واحد ؛ اذ لو كان الامر كذلك ، لقضى جميع البشر ، في كل الشؤون ، قضاء واحدًا ، مهما تباينت احوالهم ؛ مما كان ينشأ عنه ، حتماً ، تماثل اعمالهم ؛ كما نشاهد ذلك جارياً في افعال الحيوانات الغريزية . وما يقال في شأن العقل يقال في شأن الارادة ، لانها تميل الى ما يحكم العقل بخيريّته ، طبقاً للمبدأ المنطقي القائل : « لا يُرغب في الشيء الّا بعد عرفانه . » فاختلاف اميال الارادة وحريتها مستند الى اختلاف احكام العقل وحريته

وهذا الاختيار مما نتحققه في ابسط الاشياء واكثرها مزاولة بين الناس . فان كلّا منّا يشعر ، عند رفعه يده ، ان في استطاعته ان يعليها او ينزلها ، او يميل بها يمنة او يسرة ، او ان يدعها دون حركة . وكذا القول في بقيّة حركات الانسان او سكناته . من مثل القيام والقعود ، والسير والثبوت ، والتكلم والسكوت ، الى غير ما هناك ، مما هو متعلق بمشيئة المرء ، دون ان ينفذ فيها فعل محرك خارج عنها . وما نجدهُ في نفسنا نراه في غيرنا . ودليله شعورنا بعجزنا عن دفع اقراننا في البشرية الى فعل ما نريده إنْ لم يرضوا به ، ويميلوا اليه ، من تلقاء نفوسهم

ومن منّا لا يدلّه وجدانه على ثبوت هذه الحقيقة ؟ اذ لا ندحة لامرئ

من ان يحس من نفسه براحة واطمئنان ، عقيب فعله الخير ؛ وبأسف وحزن وقلق ، بعد اتيانه الشر ؟ وهذا امر يفرض المسؤولية فينا ، والمسؤولية تفرض الحرية ، لما هو معلوم من انه حيث لا حرية ، فلا مسؤولية . وما اصوب كلام فينلون الخطيب الفرنسي الذي جاء به في احد تحاريره على الدين ، قال :

« ائتوني برجل متفلسف ناكر الحرية ، فاني لا اجادله بل امتحنه في فرصة اكثر الفرص حدوثاً في الحياة ، لأخجل نفسه بنفسه . فافرض ان امرأة هذا الرجل لا تحفظ له الامانة ، وان ابنه عاصٍ عليه ومحتقر له ، وان صديقه يخونه ، وان خادمه يسرقه . فان تشكى منهم ، اجبته : « الا تعلم ان لا واحداً من هؤلاء مذنب في ما يأتيه ، لكونهم ليسوا باحرار لان يتصرفوا غير هذا التصرف . وانت مقرّ بانهم مدفوعون الى ارادة ما يريدونه كما يميل الحجر الى السقوط حين لا يسند . » او تظنون ان هذا الرجل يرضى بهذا البرهان فيعذر خيانة امرأته ، وجسارة ابنه ونكوده ، وغدر صديقه ، وسرقة خادمه ؟ او ليس من المحقق ان هذا المتفلسف الجاحد وجود الحرية عند الجدال على مقاعد المعاهد ، يفرض وجودها فرضاً اكيداً في بيته ، فلا يخفف من شدة صرامته نحو هؤلاء الاشخاص ، كما لو كان كل حياته قد آمن بعقيدة الحرية التامة . فالواضح اذن ان هذه الفلسفة ليست بفلسفة حقيقية ، وانها تضاد نفسها دون حياء . » .

فالناجم من هذه البراهين الساطعة ، انه لولا الحرية لاضحت حياة الانسان دون معنى ، ولا غاية . فتقوضت بذلك اركان الالفة ، ودرست معالم التاريخ ، ومحيت الآثار المخلدة اسماء عظماء البشرية . اذ لا يعزب عن ذي نهى ان هناك اناساً ، وان طوي بساط حياتهم في هذه الفانية ، فهم لا يزالون أحياء بجميل ما خلّدوه في المجتمع الانساني . والألفة تنشد محامدهم ، وتنشر مآثرهم ، وتعتزّ بهم ، مقرّة بفضلهم العميم . واظهاراً لامتنانها ، تقيم لهم الانصاب ، والتماثيل ؛ وتشيد المباني الفخمة ؛ وترسم الرسوم الفتانة ، وترفع الاقواس العالية ، وتعمّر الهياكل البديعة . وبالحق ان جميع هؤلاء الاعاظم قد رحلوا عن هذه الدار ، وصيتهم ذائع في اربعة اقطار العالم ، فمنهم من قد اشتهروا بالعلوم

والفنون ، او بوضع الانظمة والدساتير ، او الاختراعات والاكتشافات العجيبة، المفيدة للالفة . وغيرهم تولوا في مقدمة الجيوش الجرّارة ، الى حومة القتال ، فسفكوا دماءهم ، في سبيل نيل النصر ، والفخر ، لاوطانهم . وفي جملتهم ، من قد وقفوا ذواتهم ، واموالهم ، على مؤاساة المساكين ، وخدمة المرضى ، والاعلاء . وفي عدادهم من تسابقوا في ميدان الفضل ، ففازوا بقصب السبق، في القداسة . على ان هؤلاء الرجال لم يصبحوا اهلاً للمديح ، والذكر الحسن ، الّا لانهم أتوا هذه الاعمال الباهرة ، بحرّية مطلقة . فان لم تكن الحرية عند هؤلاء الابطال ، ابطال البشرية ، فلنقرأنّ السلام ، على الامجاد والمفاخر ؛ فلنقرأنّ السلام ، على البسالة ، والشهامة ؛ فلنقرأنّ السلام ، على الفضيلة ، والقداسة . ثم لنعمد الى الاسفار التاريخيّة ، فنمزّقها ونحرقها ؛ والى الانصاب والتماثيل ، فنسقطها ؛ والى الاقواس النصرية ، فنحطمها ؛ والى القصور الشامخة ، فندكّها ؛ والى المباني الاثرية الفخمة ، فنقوّضها ؛ والى الكنائس ، والمعابد ، فنخربها ، وندمّرها . اجل ! لنمحُ آثار الاقدمين ، اذ لا معنى لها ، ولا صواب ؛ ولان كل ما ندعوه مفاخر ، ومآثر ، انما هو مضاحك ، ومهازئ ؛ ولان الذين ننسب اليهم الفضل ، والكرامة ، لم يكن لهم فخر ، لانجازهم اعمالهم مضطرين . فهل يا ترى للشمس فخر وأجر ، اذا اضاءت على المعمورة ؟ وهل للارض فضل ، باخراجها الاشجار ، والاثمار ، موفورة ؟ وهل للاسد مجد ، اذا ارعد بزئيره ، فرائص حيوانات البقاع المهجورة ؟ فكذلك لا فضل ، ولا قدر ، لكبار الرجال — بمعزل عن الاصاغر — في ما جاءوا به من المفاخر ، ان لم يكونوا احرارا .

زد على ما تقدم اننا اذا ازلنا الحرية ، اصبحت المحاكم باطلة ، والعدالة ظالمة قاسية . اذ ما الحجة على اصابة رأينا في تحبيذنا افعالا وتقبيحنا افعالا ؟ لم يا ترى نذمّ الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، ونمدح التواضع ، والسخاء ، والمحبة ، ان كان الانسان خلوًا من الاختيار ، خاضعاً لحكم الضرورة والاقدار ؟ باي حق ننزل القصاص في من ندعوهم مذنبين، اذا كان اعتقادنا انهم مقدمون على اعمالهم مضطرين ؟ ما الفرق ، والحالة هذه ، بين السارق ، والحيوان المفترس ؟ ما

الاختلاف بين القاتل ، والنمر الضاري ؟ ما المميز بين العصاة الثوّار ، وبين العواصف القالعة الاشجار ، والزوابع المغمرة السفن في البحار ؟ . اننا لا نتأخر عن قتل الوحوش ، وكسر شوكة العواصف ، بما لدينا من الوسائل ، وسائل القوة القاهرة ، كلما وجدنا الى ذلك سبيلًا . ونعم الفعل فعلنا ، اذ المقصود منه صيانة حياتنا . الّا اننا ، ان لم نستطع كبح جماح هذه القوّات ، بقوة اشدّ منها ، فلا نرافعها الى الحاكم ، طالبين القضاء عليها بالعقاب ؛ لانه لم يرد قط في تاريخ الدواوين العدلية ان رفعت اليها دعوى نهب ، او هجوم ، او جرح ، او قتل ، على احد الحيوانات الضاربة ، او الطيور الكاسرة ، او الحشرات السامّة . كل ذلك لعلمنا اليقين انها انما تنزل المضارّ عن غير اختيار . اما الانسان ، والانسان وحده ، فنعاملهُ غير هذه المعاملة ، لاننا واقفون على ما يترتّب عليه من المسؤولية ، الفارضة الحرية . فلولا هذه الخاصيّة ، خاصية الحرية ، لما اقيمت مجالس ومحاكم ؛ ولا منحت مكافآت على المكارم ، ولا انزل القصاص في مقترفي الجرائم .

ومن هذا كله ، يظهر ، باجلى بيان ، ان في الانسان وجودًا للحرية ، شاء ام ابى المكابرون ، واذ قد اثبت الدين والعقل وجود الحرية ، ساغ لنا التخطي الى استطلاع ماهيّتها

٢ ماهية الحرية

في ذا الصدد ضلال قلّ من لا زلّ قدمه في وهدته ، وهو ضلال الذين يظنون ان حقيقة الحرية متوقفة على تخيير المرء بين الخير والشر ، او في قيام الارادة متوازنة بينهما ، شاعرة بالقدرة على الميل الى احدهما ، دون اضطرار . وهذه هي الطامّة الكبرى ، لكون قابلية الجنوح الى الشرّ ليست من مقدّمات الحرية ، بل من توابع حالتها الحاضرة، اي الساقطة، التي فيها يجد المرء نفسه اميل الى الشر منها الى الخير . اما حدّ الحرية ، من باب الاطلاق ، ولا من باب النقصان والوهن ، فهو قابليّة العمل ام تركه ، او القدرة على اختيار احد خيرين متساويين او متفاوتين . ولذا يمكننا القول عن الرجل الحائز هذه الحرية انه

عائش على الارض ، كما يرفرف الطير في الهواء ، او كما يسبح السمك في الماء .
افيجوز ، والحالة هذه ، الادعاء بان الطير حبيس في الجواء ، او ان السمك
سجين في الانهار ؟ كلا ! بل الاولى قولنا بان السمك مائت ، لا محالة ، اذا
اخرج من الماء ؛ والطير بائد ، دون شك ، اذا حبس عنه الهواء . وهذا الشأن
هو شأن الانسان . فانه اذا عاش منعطفاً الى الخير ، تمتع بحياة الحرية ؛ واذا
جنح الى الشر ، مات موت العبودية

ومما يزيد في مبلغ بيان هذا مبلغاً هو المغبات السيئة الناشئة عن انكاره :
وفي طليعتها حصول التناقض ، لا بل التنافر ، بين طبيعة الانسان وطبيعة
الحرية . لأنه ، لو كان كمال الحرية قائماً في اختيار الشر ، لكان كلما ازداد
المرء صلاحاً ، نقص حرية . والحال ، من المقررات ، بدليل الاختبار ، ان ابن
آدم ، كلما قمع اهواءه المنحرفة ، جادت اعماله ، وحسنت صفاته . وبقدر ما
يكسر من شوكة رذائله ، يضعف فيه ميله الى الشر ، ويقوى انعطافه الى
الخير . مما يمكن الجزم معه ، بسابق علم ادبي ، ان الرجل الذي تدرّب في
طريق الفضيلة ، اذا عرض عليه الخير والشر ، في وقت من الأوقات ، اندفع
غاية الإندفاع الى الخير ، نافرًا من الشر النفور كله ، فاذا كان الامر كذلك ،
افيا ترى من الصواب ان يقال عن هذا الرجل الهائم في الخير انه خالٍ من
الحرية ، وان الرجل المائل الى الشر حاصلٌ عليها ؟ كلا ثم كلا ! بل يسوغ لنا ،
بعكس ذلك ، اذ نطلق القول بان اوفر الورى حريةً ، اسماهم فضيلة وقداسة .
ودونك بعض الامثلة ، تعزيزًا لهذه القضية التي هي من الخطورة بمكان :

نحن النصارى ، نعلم ، من تعاليم ديننا ، ان طائفة من اولياء الله قد
عُصموا من الخطيئة ، واثبتوا في حال البرارة ، بانعام رباني خاص مما جعلهم
يميلون الى الخير ميلًا ، جاز لنا معه التأكيد بعجزهم عن الهيام في اودية الضلال ،
وركوب متن المعاصي . فهل يا ترى جاء هذا الانعام سبباً لحرمانهم من مزية
الحرية ؟ امنا العذراء مريم ، عليها اشرف السلام ، لم يكن الشر لينفسل في
ارادتها ادنى فعل ، مهما كان طفيفاً ، فهل كانت لذلك غير متمتعة بالحرية ؟
ويسوع ربنا ، لاسمه السجود ، لم يكن قادرًا على اتيان اي عمل شابه من

القبح ولو ظله ؛ فهل قام ذلك حائلاً دون مطلق اختيـاره ؟ والله ربّ العزّ والجبروت ، المجتمعة كمالاته في وحدة طبعه ، والعاجز عجزاً مطلقاً عن الشرّ ، مها كانت صفته ؛ فهل من قائل بعدم حريته ؟ .

فاذا اتضح ذلك قلنا : كلما اقترب الانسان من مُثلى الكمالات الالهية ، فقد اقترب من مُثلى الحرية المطلقة . ومتى وجدنا رجلاً مائلاً الى الخير ميلاً ينفر معـه من مجرّد تصوّر الشر ، نفوراً يكاد يكون غريزياً ، لزم ان نقضي جازمين انه قد حقّق في نفسه مثال الحرية البشرية الكاملة ، وانه جـدير ان يلقّب بالحرّ حرية مطلقة . فاذن قابلية اصطفاء الشر ليست من كمال الحرية ، بل هي من نتائج حالتها الحاضرة ؛ هي من حاصلات ضعفها وكلالها ، ولا من مفاعيل قوتها وشدتها ؛ هي من آفاتها ، ولا من منافعها ؛ هي مبدأ انحطاطها ، ولا عنوان تقدمها ورقيها . وان رمنا دليلاً حسّياً ، واقعياً ، فوق هذه الأدلّة ، وجدناه في الذين ينكرون هذه الفكرة ، وهـذا النـاموس ، ناموس الحرية الخيرية ؛ فان حال شرّهم فانحطاطهم ، لاقوى شهادة على ما نحن في صدده . وذلك ، لان صانع الشرّ من تلقاء نفسه ، وبتعمد منه ، ينقص فيـه الحرية بدل ان يزيدها . وكلما تمادى المرء في ارتكاب المساوئ ، واعتاد الرذائل ، قعدت به حرّيته ، وهذا ما قد حصر الكتاب العزيز سرّ حقيقته ، بقوله : « من ارتكب الخطيئة ، فقد صار عبداً للخطيئة »

على ان الله خلق الانسان متصفاً بالنطق ، فجعلـه نطقه اليفاً ؛ وصيّرته أُلفته عضواً في جسم البشرية ؛ فكان له حياتان : حياة انفراد ، وحياة اجتماع ؛ ممّا انشأ فيـه حريتين : حريةً فردية ، وحرية اجتماعية . فـالفردية هي التي رأيناها . فما عسى ان تكون الحرية الاجتماعية ؟ هي عين الحرية الاولى ، مع هذا الفرق وهو ان الحرية في الفرد ، سير ارادة واحدة سيراً مطلقاً في سبيل الخير . واما في المجتمع ، فهي سير ارادات متعـددة ، في تلـك الطريق ، باشتراك وتضامن . وكما ان الفرد كلما ازدادت حريته تضـاعفت خيريته ؛ فالمجتمعات الاكثر حرية اجتماعية هي المجتمعات الاسبق جرياً في مضمار الخير ، والاقوى سلاحاً لصدّ هجمات الشر .

قلنا « احد هجمات الشر » لان من حقوق الخير ، بعد وجوده ، ليس العمل دون عائق وحسب ، بل الوقوف في وجه الشر ، منعاً له من انزال المضرة فيه. وهذا الحق مصدر كل حرية صادقة وعدلة. فان اهتضم ، تقوّضت اركان الحرية الاجتماعية. وعليه ، فالقاعدة الاساسية لحياة الشعوب الحرّة ، هي ان يسير القوم في محجة العدل ، طبقاً للنظام ، وبروح المحبة ، دون ان يلحقهم ادنى أذى من قبل الظلام ، واعداء السلام ، ارباب الثورات الهدّامة المشؤومة. وحيث تصان الحقوق ، وتراعى الآداب ، ويعيش المرء بمأمن من كل سوء ، فهناك يهنأ الناس بنعمة الحرية. الّا ان هذه الحالة ، حالة جنةِ الخلد ، لم تفضل بها الطبيعة علينا ، ولا رضيت بها العناية نصيباً لنا ، لما لا نزال نراه من مهاجمة الشر للخير ، في هذه الدار الفانية. وهذا ما كان سبباً في انشاء المحاكم ، على اختلاف اصنافها ، وكل جماعة خلت من سلطة تقيم قسطاس العدل ، امست مسرحاً للظلم والجور. وما الغاية من القوة الحاكمة سوى صون الحقوق ، ونشر لواء الحرية. مما دلت عليه آية التنزيل العزيز النازلة على لسان الرسول المصطفى: « ان الملوك هم خدام الله للخير »

هذا واذ سطعت انوار حقيقة الحرية الصادقة ، هان علينا ان نبدد باشعتها ظلمات الاباحية ، اي الحرية الكاذبة الفاسدة التي قوامها الضلال ، وغايتها تضليل العقول ، وافساد القلوب. تلك الاباحية التي يحاول بها ، ناشرو لوائها ، مساواة الحق بالباطل ، والرذيلة بالفضيلة ، والنجاسة بالقداسة ؛ تلك الاباحية القاضية بان تعتبر السلطة الشرعية هذه المتناقضات على حد سواء في الالفة ؛. اي ان تمنح حقوقاً متعادلة للدين والالحاد ، للآداب الصالحة والآداب السيئة ، او بكلمة واحدة ، للخير والشر ؛ وان تبيح لارباب الكفر والخلاعة ، ان يضلّلوا الناس بآرائهم السقيمة ويفسدوهم باقوالهم وافعالهم السمجة. هذه هي المبادئ الوخيمة التي يبذل اهل الضلال العصري قصاراهم في تنفيذها بين الورى، باسم الحرية. الّا ان هذا لا يقبله العقل السليم ، ويشجبه الدين القويم ، وينفر منهُ كل امرىء فيه بقية من شرف الانسانية. وذلك لان الشرّ لا حقَّ لهُ بالوجود ، لانهُ غير موجود ، وليس هو سوى نفي الخير ، وعدم الوجود. هذا

وعلى فرض اننا سلّمنا بالاباحية ، ومنحنا للشرّ ما نمنحه من الحرية للخير ، افيقف الشرّ عند حدّه ، ويرضى بنصيبه ؟ كلّا ، فان الاختبار والتاريخ دليلان واضحان على ان الشرّ من طبعه قاهر ظلّام ، لا يكتفي بما قسم لهُ ؛ ومن فطرته الاعتداء على الخير ، وهضم حقوقه . ولكان محا الخير ومحقه لو بلّغته الى ذلك ذريعته . ولذا فحيث ضربت الاباحية اطنابها ، تفرقت مبادئ الخير ايادي سبأ ، وتشتّت شمل النظام ، والعدل ، والحرية ؛ فتقرىء السلام على الأُلفة الاجتماعية .

٣ الدين نصير الحرية

ينجم مما تقدم ان اعظم الحريات ينبت زرعها في تربة اعظم الخيرات ،وفي اصلح المجتمعات ، اذ ان مَربَى الحرية الصلاح ، وما الصلاح الا فضل من افضال الدين الذي من اركانه الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فالدين اذن نصير الحرية ، لكونه ينبوع الخير ، الضروري وجوده لسير الحرية ، بمأمن من كل ضير . وهذا مفصله :

من مطلبات الصلاح المرغوب فيه لحياة الحرية ، في الالفة البشرية ، ان يقوم كل فرد من الافراد ، وكل فئة من الفئات ، باعباء ما يحتمه عليهم الواجب الاجتماعي . فمن كانت بيدهم مقاليد الامور ، ينبغي ان يكون العدل شعارهم ، واساساً لحكمهم ؛ والظلم مكروهاً في عيونهم ، وخارجاً عن اعمالهم . واما الباقون ، فيلزمهم الخضوع لأوليائهم ، واداء الخدم المفروضة عليهم ، للمصلحة العامة . بيد ان هذه العلاقات ، بين الحكام والمحكومين ، لا تعود بالفائدة المنشودة ، إنْ لم يكن لها ضابط يضبطها ، خشية ان يجنح اولياء الامر الى الاستبداد ، او يرفع الشعب لواء العصيان ؛ أي يجب ان يكون هناك ، فوق الأدنين والأعلين ، شرائع وقوانين يحترمها الجميع ، كل في مقامه . وبذلك تحصل المقوّمات للحرية الاجتماعية الحقّة . والحال ، ليس من كفيل يحقق هذه المطلبات ، سوى الدين . اذ انه ، بفضل تعاليمه الالهية ، يرقى بكل شريعة الى مصدرها الاول ، وهو ارادة الله ، واحكامه الازلية ، المدبرة الكائنات ،

مهما كان نوعها . ولانه يفصل بين النواميس فصلاً ناشئاً عن الحكمة ، باعلانه ما فيها ازلي ، ثابت ، غير مشوب ، على تعاقب الادهار ، وتطوُّر الاحوال ، اعني به النواميس الطبيعية ، والسنن الالهية ؛ وببسطه ما فيها وضعي ، بشري ، تابع لمقتضيات المكان ، وظروف الزمان ؛ كالشرائع ؛ والقوانين الدنية . فان الدين لا يجزم في شأنها بشيء البتة ، بل يدع الحرية جائلةً ، عاملةً ، في حمى السلطة الشرعية . وتراه في ما ينوط بنظام الحكم ، لا يظهر مأثرة طريقة على طريقة اخرى ، ولا يحدد في ذلك عقيدة لا مردّ لها . فلا يأمر بالحكم المطلق ، والمقيد، او الجمهورية ؛ بل يفسح المجال لكل شعب ، فيختار النظام الموافق لمشاربه الاجتماعية ، او مأثوراته القومية . اضف الى ذلك ان الدين لا يتسرَّع في الامور ، بل يتربص متهزاً الفرص اللائقة ، خلافاً لروح الثورات التهجم المتهوّر . واذ كان الدين صادراً عن الله ، تجده متخذاً ، في اعماله ، طريقة الله ذاتها ، وهي ان يترك الامور تجري مجراها ، وسنن الاخلاق تأتي مأتاها . وعملاً بهذا المبدأ ، لا يضغط على حرية القوم ، بل يتوقع الازمنة المفيدة . ومثله في ذلك ، مثل البستاني الذي يصبر على الشجرة حتى ايام الموسم فيقبل عليها وقد نضج ثمرها، فيجنيه ، ويأكله يانعاً ، شهياً . ومن خواص الدين ، في سنه الشرائع ، المقصود منها تحرير الشعوب ، انهُ لا يجتزىء بالنظريات العقيمة بل يبذل جهده في ايجاد الحرية المحسوسة ، في الحياة المالوفة ، وهي الحرية المدنية المتوقفة على ان يباح لكل احد اتيان الاعمال المشروعة التي لا تجحف بحق الغير ولا تنزل المضرة به .

اما ارباب الحكم فان الدين يدرّبهم في مسالك الصلاح ، وبذلك يجعلهم لائقين بمقامهم وقائمين بفروضهم احسن قيام ، اذ معلوم ان افضل الحكام من تحاشوا القسر والظلم ، ومهّدوا للامة سبل الخير ، والحرية المرغوبة . والحال ان هذه الصفات الحسنة لا تتحقق في اولياء السلطة ، الا اذا كانوا سائرين بموجب احكام الدين . فان روح الدين يدفعهم الى معاملة الرعية ، لا معاملة السادة للعبيد ، بل معاملة الآباء للبنين . تعليم الدين ان الرؤساء وكلاء الله .

فنعم الوكيل من تشبه بموكِّلِه. والحال ان ربَّنا مع كونه خالق الاكوان، ومالك رقاب العالمين، قد اراد ان تكون صلتنا بهِ صلة البنوّة والابوّة، فعلمنا ان ندعوه: ابانا الذي في السموات. واذا كان الرؤساء آباء، والمرؤوسون بنين، فاحرِ بالامة ان تصبح بمثابة عائلة. وهل يا ترى من شيء اخلق بالحرية من حالة الابناء الخاضعين لسلطة آبائهم، تلك السلطة التي منشأها المحبة، فضيلة السعي في خير القريب، وخدمة مصالحه؛ وهي التي قد وضعها السيد المسيح اساساً لتحرير الشعوب بقوله: «من اراد ان يكون فيكم كبيراً، فليكن للكل خادماً.» هذا، وان بعض ذوي الشوكة والصولة، من تبعة الدين، قد اساءوا التصرف بما سُلّم لعنايتهم، فلم يكن ذلك من نتائج الدين، بل من وهن الطبيعة البشرية، واعتساف الحرية. وما من ملك او أمير عدل عن محجة الحق والعدل، وتمادى في اعمال الظلم والجور، الا وقد سبق فنبذ وراء ظهره شرائع الدين المقدس.

ثم ان من شأن الدين ان ينشىء احسن المرؤوسين، باعداده الافراد، لقبول السلطة، والخضوع للقوانين، خضوعاً مصدره اليقين، وطيب السريرة، وحسن السيرة وبهذا يمهد لهم السبيل الى عيشة الحرية الحقة، الفارضة وجود سلطة حاكمة، في كل الفئة خليقة بهذا الاسم. اذ ليس من شعب حرّ، حرية صادقة الّا اذعن لرئاسة؛ لان النظام الضروري لحياة الحرية، يتطلّب ائتمار الأدنين باوامر الاعلين. وهذا ما نلاحظه في نفس الآلات الصماء، التي لو حاول احد دواليبها التمنع من الانقياد للدولاب الاعلى، لنشأ الاضطراب، ووقع العطل في الجهاز كله. ومن ثم فلا شيء اضر بروح الحرية المقدسة من روح الاستقلال الموهوم، او الاباحية المرذولة. وبالعكس، ما من حرية حقيقية الّا جرت اعمالها ضمن دائرة السلطة الشرعية.

هذا والخبرة تفيدنا انه مهما كانت الحكومة مقتدرة، وارباجها ذوي حُنكة سياسية، فلا سبيل لهم الى قيادة شعب قد خلت منه الفضائل الادبية وفشت بين ظهرانيه الرذائل، وليدة الاهواء الدنيَّة. وعليه، فمن اراد ادارة

قوم ، تحتم عليه ان يُعدّه لهذه الحالة ؛ وبذلك يهبه الحرية . والحال ان هذا لا يحصل الّا بفضل الدين وقوته . لانه ، كلما انتشر روحه بين امة ، حمل ابناءها على الاستسلام الى تدابير مدبّريهم، اذ يكون قد سبق فعوّدهم السلوك في طريق الفضائل المطلوبة ، وعلمهم ، خاصةً ، ثلاثاً منها ، لا مندوحة لشعب من امتلاكها ، والعمل بها ، وهي : المحبة للقريب ، والاحترام للرؤساء ، والاذعان للقوانين ، واذا كانت هذه الحال الفضلى حال الجماعة ، هان الأمر على اوليائها ، وكفتهم مؤونة العمد الى ذرائع القسر والعنف ، وبذلك يحصل النظام ، وتسود الراحة ، وتملك الحرية ، ويستتبّ السلام. مما يمكن القول معه ان لا حرية اجتماعية ، الّا بالانقياد ؛ ولا انقياد ، دون الفضيلة ؛ ولا فضيلة حقيقية ، دون الدين ؛ ولا دين ، الّا بتملك ربّ الدين ، في حياة الافراد ، وحياة الجماعات البشرية .

زبدة المقال هي ان الحرية صفة من صفات الانسان ، خاصة بطبعه ، وضرورية لاعماله . بيد ان الحرية حريتان : حرية كاملة حقة ، وهي تخيّر الارادة الاشياء الخيرة ، في طريق الصلاح ؛ وحرّية ناقصة موهومة ، وهي الاباحة للفرد ، والجماعة ، باتباع الشرّ ، واقامته في الألفة ، بازاء الخير ، بل فوق الخير . وهو ضلال لا يقبله العقل ، ولا النقل ، ولا الدين . اذ ان الدين نصير الحرية ، والحامي عن حقوق الخيرية ، والمساعد للبشر على العيش باطمئنان ورفاهية . مما ينجم عنهُ ان لا حرية الّا حرية ابناء الله السائرين تحت ظلال الدين القويم . وبهذه الحرية الصحيحة ، لا بالاباحية المقوتة ؛ تقوم الحضارة المثلى والتقدم المفيد ، والروح العصري المقبول . وهي كافلة النجاح والفلاح في سبيل الكمال المادي ، والمعنوي ، والمدني ، والديني . والسلام .

التلبيس الكهربائي

بقلم انطوان باز

المهندس من المكتب الافرنسي في بيروت ، ومن مدرسة الكهرباء العليا في باريس

إنَّ لتلبيس المعادن ، بواسطة الكهرباء ، شأناً عظيماً في عالم الصناعة ، خصوصاً في صناعة الحلي والمجوهرات . كيف لا وبه يمكنك ان تعطي للمعادن العادية ، قشرةً فضية او ذهبية ، فتزيد في رونقها وجمالها دون ان يتجاوز ثمنها مبلغاً زهيداً . وهي طريقة جُلّى اذ تجمع البذخ الى الاقتصاد ، وتُجيز ، للعامة من الناس ، حمل الحلى ، وكانت قبلاً من مميزات الاغنياء واصحاب الثروة . وقد عرفَ بائعو المجوهرات ان يستفيدوا منها فعمدوا الى تذهيب الاسورة والحلق والخواتم ، وغيرها فزاد ذلك في اشغالهم التجارية ويفضّضون كثيراً من الحلى النحاسية لزيادة قيمتها الخارجية كسلاسل الساعات والدبابيس وغيرها . وعند الاغنياء يفضّضون آنية الطعام من ملاعق وصحون ، حفظاً لها من التأكسد بالهواء والحوامض

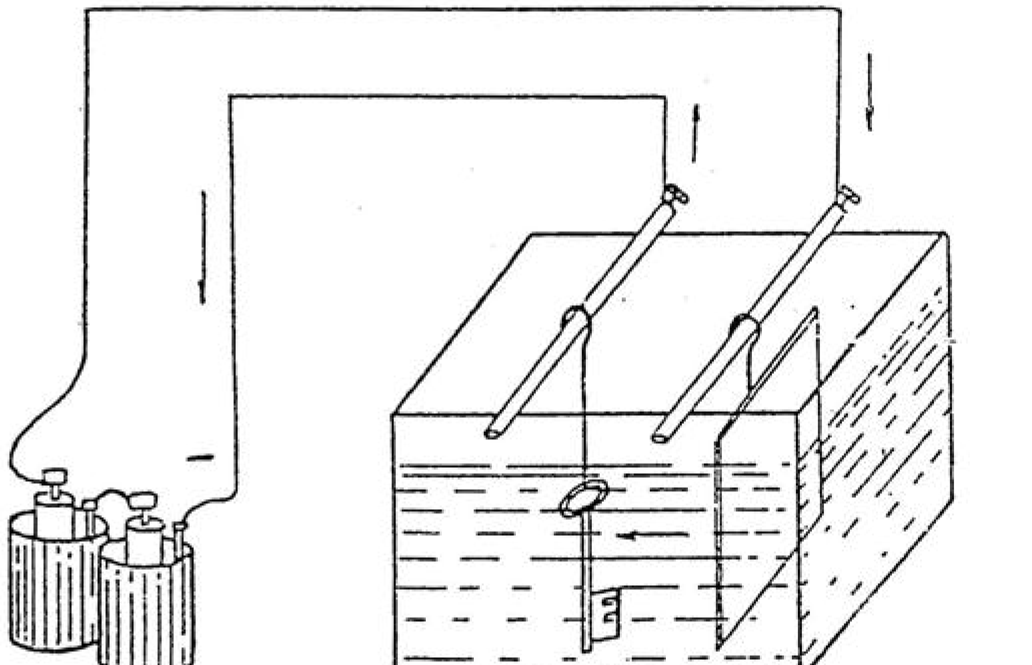
ولم ينحصر التلبيس الكهربائي بالفضة والذهب بل عمّ كثيراً من المعادن الصناعية لاسيما النحاس والنكل . امّا التنحيس فيستعمل لكثير من الحاجيات كالريش المعدنية ، والمسامير ، والشريط الفولاذي . والتنكيل يستوعب جميع الاشياء الحديديَّة قصدَ حفظها من الصدأ والزيادة في رونقها . وله اليوم اهمية كبرى في صناعة السيارات ، والتلفون ، وآلات الجراحة ، وماكنات الحياطة الخ الى حدّ أنَّ ٩٩ في المائة ممّا نراه من الآنية المعدنية البيضاء ، هو ملبَّس بالنكل .

ولم تتوقف فوائد الكهرباء على التلبيس فقط ، بل اجازت نقل كثير من المصكوكات والنحوت ، فكانت مساعداً قوياً للفنون الجميلة في انتشار بدائعها ، وسهّلت اشغال الحفر في المطابع . وانّنا سندرس كيفية ذلك مع بعض مسائل

التلبيس في بابين ، غير انه لا بُدَّ لنا اولًا من ان نبيّن اساس النظرية اجمالًا ، وهي مرتكزة على مفعول الكهرباء في تجزّء بعض المحلولات المعدنية

نظرية التلبيس

لنأخذ وعاء من الزجاج ، ولنضع فيه محلولًا لملح معدني ، كمحلول كبريتات النحاس مثلًا ، وهو معروف عند العامة « بالشبَّة الزرقاء » . ثم نغطّس فيه قطعتين معدنيتين الاولى صفيحة من معدن المحلول اي النحاس ، والثانية آلة نريد تلبيسها كمفتاح مثلًا ، ونصل الصفيحة النحاسية بالقطب الايجابي من مجموع بطاريتين كهربائيتين ، والمفتاح بالقطب السلبي ، كما في الرسم ادناه . فاذ ذاك يسير المجرى من القطب الايجابي من البطارية الى الصفيحة النحاسية ، الى المفتاح بعد مروره في السائل ، الى القطب السلبي من البطارية . اما ذلك التيار ، بمجرد مروره في السائل ، يقسمه الى اجزائه اي الى نحاس معدني والى اوكسيجين كبريتي ، وهو كناية عن جزء من الكبريت لاربعة من الأوكسيجين . وهذه



الرسم ١ - كيفية التلبيس + : القطب الايجابي - : القطب السلبي

الاجزاء او الذرّات(molécules)هي صغيرة جدًّا بحيث انها لا تُدرك بالعين. امّا الذرّة النحاسية فتسير مع المجرى وتلصق بالمفتاح فتكوّن قشرة معدنية. والذرّة الكبريتيّة تعود الى الصفيحة النحاسية فتسلبها ذرةً نحاسية لتكوّن بها كبريتات النحاس ، مجدّدةً هكذا المحلول الاولي . فكأنّا ، والحالة هذه ، قد نقلنا النحاس من الصفيحة النحاسية في القطب الايجابي ، الى القطعة التي نريد تلبيسها في القطب السلبي . لذلك فالصفيحة النحاسية لا تزال تبرى الى ان تذوب تماماً فيصير استبدالها بغيرها . ولا يُلبَّس من المفتاح الَّا الجهة المقابلة للنحاس . فاذا قُصد تلبيس الجهتين ، كما في القالب ، يُجعل هذا في وسط الوعاء ويُمدّ الى صفيحة ثانية من النحاس تُوضع في الجهة المعاكسة ، وتُوصل ايضاً بالقطب الايجابي .

يُستنتج ممَّا سبق أنَّ التلبيس بواسطة الكهرباء يستلزم:

١ً ينبوعاً كهربائيًّا كبطّاريتين مثلاً للاشغال الصغيرة او مولّدة مخصوصة للاعمال الصناعية

٢ً محلولاً من ملح المعدن الذي نُريد التلبيس منه

٣ً صفيحةً من نوع المعدن نفسه ، غارقة في المحلول ، موصولة بالقطب الايجابي من البطارية ، ولذلك ندعوها « الايجابية » (anode)

٤ً القطعة التي نريد تلبيسها ، غارقةً ايضاً في المحلول ، موصولة بالقطب السلبي ونسميها « السلبية » (cathode)

صناعة النقل

هذه هي عملية التلبيس . امّا اذا اردنا نقل قطعة حفرية ، بواسطة الكهرباء ، فما علينا الَّا ان نستبدل السلبيَّة ، في المثل السابق ، بقالب من الشمع او الطبرخي (gutta percha) أُخذت فيه علامات الرسم او المصكوكة (médaille) المنوي نقلها ، فتجتمع عليه قشرةٌ معدنية يمكن فسخها عن القالب الشمعي فتعطي نسخةً للصورة الحقيقية . وكثيرًا ما تُعمل هذه النسخ من النحاس لأنَّ القشرة التي يكوّنها المجرى ، بالنحاس ، متساوية ، وتُعمل باسرع ممَّا في

بقية المعادن. وقد تبلغ ثخانة هذه القشرة او الراسب الكالفاني مليمترًا واحدًا في الاربعة والعشرين ساعة ، للنحاس . ولا يخفى أن هذه القشرة قابلة بدورها التفضيض والتذهيب الخ

ويُعمل القالب بان تؤخذ قطعة من الطبرخى ، فتُليَّن في الماء السخن بدرجة ٧٠ سنتغزاد ثم تُفرك بالأسرب (plombagine) كي لا تعود تلصق بالرسم المنقوش عند طبعه فيها . وبعد ذلك تنظّف المصكوكة ، او القطعة المنوي نقلها ، بالبترين لإزالة ما يكون قد علقَ بها من المواد الزيتية او الدهنية ، ثم تُطبع في الطبرخى فتُبقي رسمها فيه . ومن الضروري ، اذ ذاك ، فركُ هذا القالب بالاسرب تكرارًا ، بواسطة فرشاة صغيرة ، ليسهل مرورُ المجرى الكهربائي ، اذ إنَّ الاسرب موصلٌ حسن والطبرخى موصلٌ ردئ

وقد يُستعاض عن الطبرخى ، في عمل القوالب ، بتركيب شمعي ، خصوصاً اذا كانت النقوش خفيفةً ، خاليةً من الدقة . فيذيبون في اناء تسعةَ اجزاء من الشمع العسلي مع جزء ونصف من التربنتينا الجامدة وربع جزء من الاسرب الناعم ثم يسكبونها صفائح ، ثخانتها سنتيمتر واحد ، تُستعمل عند الحاجة كما سبق

المغطس الكالفاني

امّا السائل المستعمل غالباً او المغطس الكالفاني فهو محلول من كبريتات النحاس او « الشبّة الزرقاء » حسب الوصفة الآتية :

ماء مقطّر	١٠ اجزاء
كبريتات النحاس	١
حامض كبريتي	٠,٥٠

وقد يُستغنى عن الحامض الكبريتي ، انما وجوده يزيد في ايصالية السائل الكهربائية (conductibilité électrique) فيسهّل مرور المجرى فيه ويسرع في انهاء العملية

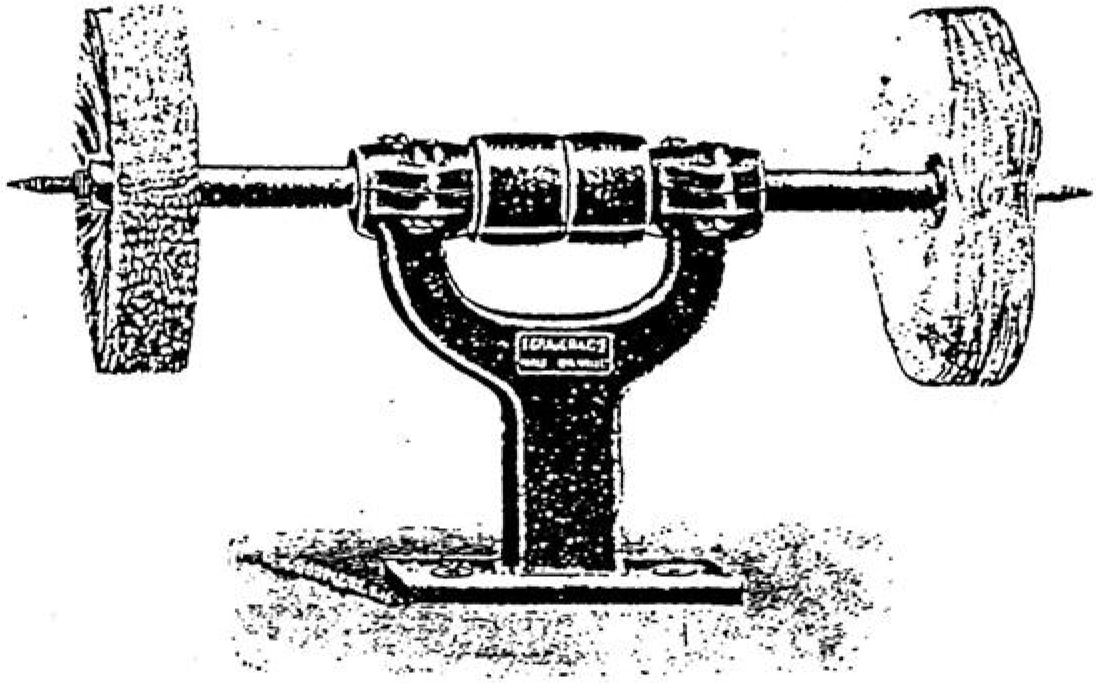
كيفية العملية

بعد تحضير القالب يوضع قسمٌ من المحلول السابق في وعاء زجاجي ، او برسلاني ، او خشبي مبطّن داخله بالطبرخي حفظاً من مفعول المادة الكيماوية ، ثم يغطّس فيه ، القطعة النحاسية من جهة ، والقالب من جهة اخرى بحيث يكون النقش مقابلاً القطعة الاولى . ثم توصل هذه بالقطب الايجابي والقالب بالقطب السلبي من بطارية او ينبوع كهربائي . فلا يلبث ان يتغشّى وجه القالب قشرة نحاسية تزداد ثخانةً مع الوقت ، فاذا بلغت المليمتر الواحد ، او الاثنين ، عُدَّ ذلك كافياً فتُقطع المجرى ، وأخرج القالب من السائل ، ونزعت عنه القشرة المعدنية التي جاءت بالرسم الاول فأُغسلت بالماء ، ونُشفت بنشارة الخشب . وكثيرًا ما يزيدون سمك هذه القشرة ، ضنا بحفظها ، لاسيما اذا استعملت للطبع ، فيصبّون وراءها مزيجاً (alliage) من معدن لين

تلك هي عمليةُ النقل ، وقد اخذت اليوم دورًا مهمًا في المطابع لحفظ صفحات المؤلفات ، كما فعلت المطبعة الكاثوليكية في «المنجد» وغيره . فبعد إن صُفّت حروف هذا الكتاب صفحاتٍ صفحات ، أُخذت نسخةٌ من كل واحدة منها ، بواسطة الكهرباء ، فجاءت الاحرف فيها قطعةً واحدة . وهذه النسخ اسهلُ حفظها من الحروف المركّبة ، وبها يمكن اعادة طبع الكتاب تكرارًا دون عناء .

صناعة التلبيس

بقي علينا أن نبحث في القسم الثاني من هذا الفن ، ألا وهو فنُّ التلبيس بذاته وفيه التنحيس ، والتنكيل ، والتفضيض ، والتذهيب الخ . وفي كل الاحوال ينبغي ، قبل كل شيء ، جلي القطعة المقصود تلبيسها ، لتتساوى سطوحها . وهذه العملية تُجرى على الدوّار (tour) بواسطة حجر ناري ، او دولاب خشبي ملبّس من جلد الثور ، او دولاب من اللبّاد او الجوخ ، كما في الرسم : ٢ . والدوّار كناية عن محورٍ سطحي ، محكمٌ في طرفيه دولابان ، يدور بسرعة . فاذا



الرسم ٢ : صورة الدوّار

قربت القطعة المعدنية الخشنة من احد هذين الدولابين، اخذت بالاحتكاك نعومة ولمعاناً . وكثيراً ما يُبدأ بالجلي على الحجر الناري ، كي يذهب بالخدوش الكبيرة ، ثم يصير التنعيم بالدولاب اللبادي بعد ان يدهن وجهه مادةً آكلة

وعندما تُجلى القطعة المذكورة يُعمد الى ازالة المواد الدهنية عنها ، وهي مانع لمرور المجرى ومتانة التلبيس ، فتُحمى في النار او تُغلى في محلولٍ قلوي ككربونات البوتاس ، او الصودا ، او محلول ١٠٪ من القطرون . ثم تُغسل بالماء وتغطّس في محلول من الحامض الكبريتي جزء لعشرة يذهب بالاوكسيدات التي تغشى سطح المعدن . وعلى اثر ذلك تؤخذ فرشاة نظيفة ناعمة مغموسة في مغلي الكلس فيُفرك بها جيداً سطحَ القطعة ، لازالة ما يكون لحق بها من المواد الدهنية بلمس الايدي ، ثم تعلّق بشناكل ، وتُغسل طويلاً بالماء الحلو ، جاهزةً لأن تلبّس ايَّ معدنٍ كان

تلك هي الاعمال الاولية في التلبيس ، وهي واحدة سواء قصدت التنحيس او التنكيل او التفضيض او التذهيب الخ

التنحيس

تُنحَّسُ الاشياء المعدنية بان تُلبَّس قشرةً نحاسية بواسطة الكهرباء . والتنحيس ضروري قبل تلبيس بعض المعادن بالفضة والذهب كالحديد والتوتيا ، لان تلك المعادن تعلق بالنحاس اكثر منها بالمعادن الثمينة . فاذا اردت اذاً تلبيس قطعة حديدية فضةً او ذهباً عليك اولاً ان تلبسها قشرةً خفيفة من النحاس الاحمر ثم تعود فتفضضها او تذهّبها بالطريقة نفسها . وفي التنحيس يجب ان تكون الايجابية قطعة من النحاس الاحمر والمغطس النحاسي كما يأتي :

ماء مقطر	ليتر واحد
خلات النحاس	٢٠ غرام
كربونات الصودا	٢٠ «
بيسولفيت الصودا	٢٠ «
سيانور البوتاس	٢٥ «

ويُعدَّل المجرى بحيث لا يتجاوز الستة اعشار الامبير (ampère) لكل مادة سنتمتر مربع من السلبية او القطعة المنوي تنحيسها ، فيجيء التلبيسُ ناعماً متساوياً . فلو فرضنا قطعة عرضها ١٠ سنتمترات وطولها ١٥ ، اي مساحتها ثلاثمائة سنتمتراً مربعاً ، لاضطررنا الى مجرى قوته ١,٨٠ امبير على الاكثر . والامبير مقياس السيلان الكهربائي كما سترى

التنكيل

تُعدّ اليوم صناعة التلبيس بالنكل من اهمّ الصناعات ، لرخص هذا المعدن نوعاً ، ولجماله اذا صقل . ومما زاد في استعماله ، ثبوته ضدّ عوامل الرطوبة ، كالتأكسد بالهواء وغيره ، وصلاحيته لتحضير الاطعمة فيه دون خطر ما . وكاد لم يترك صناعةً الّا تسرّب اليها . وقد المنا في بدء هذه المقالة الى صناعاتٍ شتى زاد التنكيل في انتشارها . اما المغطس المستعمل فمركّب من :

كبريتات النكل او النشادر المزدوج	٦٠٠ غرام
« النكل	٣٠٠ «
ملح طعام عادي	٣٠٠ «
ماء	١٠ ليترات

وهو محلول ذو لون اخضر جميل . وثقل الجرى (densité de courant) يتراوح بين ٠,٣٠ و٠,٥٠ امبير لكل مائة سنتمتر مربع من السلبيَّة ، فلا تلبث تلك ان تاخذ قشرة بيضاء تبلغ بساعة واحدة ثخانة جزء من اربعين من المليمتر وهذا كافٍ ليعطيها الصلابة المطلوبة . ثم تُخرج القطعة من المحلول فتغسل جيداً ، وتنشَّف بنشارة الخشب ، وتصقَل على الدوَّار بواسطة دولاب من اللباد مدهون بمعجون كيماوي

التفضيض

واذا اردت تفضيض آلة ما ، فان كانت نحاسية عليك ان تضعها بضع ثوانٍ في محلول بيوكسيد الزيبق (غرام واحد في ليتر ماء . يذوَّب بان يضاف اليه قليل من الحامض الكبريتي) قبل عملية التلبيس . واذا كانت مفضضة من ذي قبل ، واردت تجديد القشرة الفضية ، فمن الضروري نزع القشرة الاولى تماماً ، وذلك بان تضع القطعة في مزيج من الحامض الكبريتي والحامض النفتي ، اجزاء عشرة لواحد ، ثم تبدأ بالتلبيس حسب الاصول . والمغطس الفضي محلول مركب من سيانور الفضة والبوتاس

التذهيب

لقد بيَّنا سابقاً انه يمكن تذهيب الاشياء النحاسية والفضية رأساً دون وسيط . اما القطع الحديدية وغيرها فالاحسن تنحيسها قبل التذهيب . ومغطس التذهيب مزيج من فوسفات الصودا المبلورة ، وسيانور البوتاس ، وكلورور الذهب ، يُباع تجارياً ضمن علب محضَّرة تُذوَّب في الماء . والتذهيب الكهربائي يكون اما بالطريقة الباردة واما بالطريقة السخنة وهي تفرق عن الاولى بان يُسخَّن المغطس ، قبل استعماله ، حتى درجة ٦٠ سنتغراد . اما الايجابية ، فاذا عملنا بحسب النظريَّة العمومية ، يجب ان تكون سبيكةً من الذهب الخالص .

انما التلبيس ، في تلك الحال ، يجيء بطيئاً . لذلك فكثيراً ما يُستعاض عنها بشريط من البلاتين ، على أن يجدد المحلول كلما ضعفت فيه المادة الذهبية التي تكون قد تجمعت قشرةً صفراء على السلبية . ومن الغريب انه يمكن الحصول على الوانٍ شتى منها الذهبي الاصفر، والاحمر، والاخضر، حسب قوة المجرى واملاح كيماوية تضاف الى المغطس كسيانور النحاس للون الاحمر، وسيانور الفضة للاخضر.

هي بعض عمليات التلبيس احببنا تبيانها . واننا ، مخافة ان نملَّ القرّاء ، نضرب صفحاً عن كثيرٍ غيرها كالتلبيس بالنحاس الاصفر والقصدير والتوتيا الخ. غير انه لا بدَّ لنا من كلمةٍ في تلبيس القطع الصغيرة كالمسامير والدبابيس التي ، لو قُصد تلبيسها واحدةً واحدةً كالقطع الكبيرة ، لما استطيع الى ذلك سبيلاً، اولاً لصغرها ، وثانياً لعددها الوافر. لذلك فغالباً ما توضع هذه كلها ضمن مصفاتٍ من خزف تنزل في المغطس او الاحسن ضمن برميل ، كثيرُ الثقوب من جميع جهاته ، يدور في المغطس بحركةٍ خفيفة ، كي يتمكن الراسب الكالفاني من الوصول الى سطوح كل المسامير على السواء.

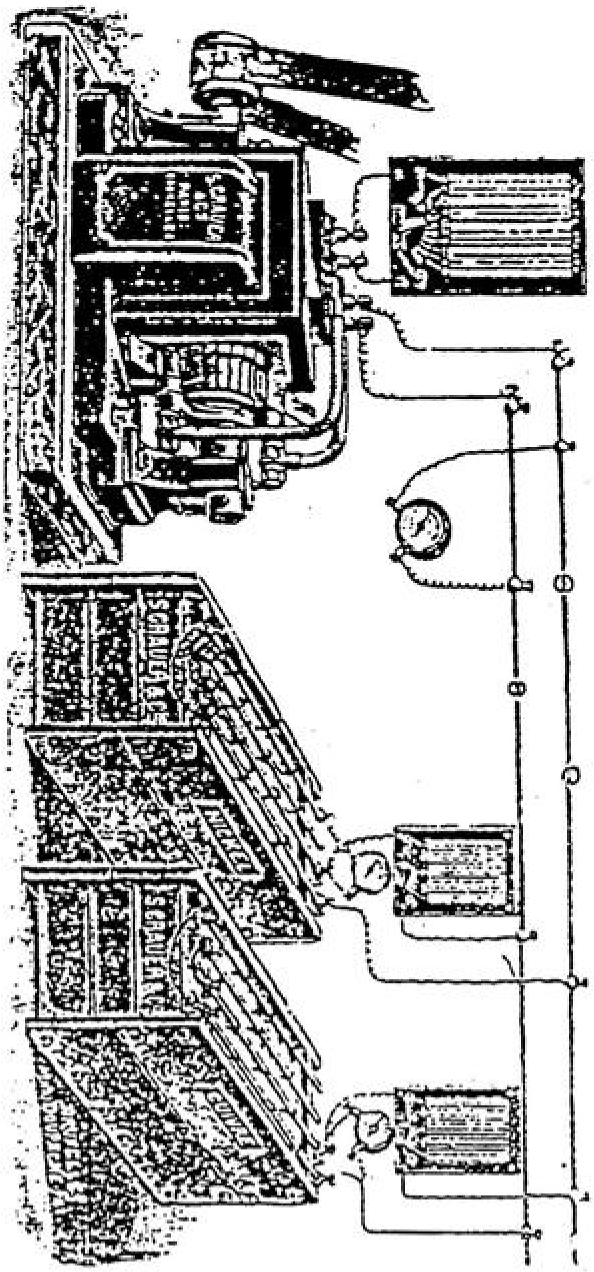
هذا وتعميماً للفائدة نعطي ادناه جدولاً بميزات كلٍّ من العمليات السابقة من مثل توتر المجرى ، وقوته ، وكمية الراسب الذي يتجمع على السلبية في الساعة ، والوقت اللازم لكل من تلك العمليات :

نوع التلبيس	توتر المجرى فولت	ثقل المجرى امبير لكل مائة سم	كمية الراسب المعدني في الساعة لقوة امبير واحد	معدل الوقت اللازم ساعة
نحاسي: لنقل النحوت	٠،٥٠ الى ١،٥٠	١ الى ٢	١.١٨ غرام	يختلف بحسب الثخانة
نحاسي (للتلبيس)	٣	٢،٠ الى ٦،٠	٣.٢٢	من ١/٢ الى ١
نكل على الحديد	٢ الى ٣	٠،٢٠ الى ٠،٥٠	١.٠٩	١ الى ٢
″ على النحاس الاصفر	″	″	″	١/٢ الى ٣/٤
فضي	٠،٥٠ الى ١	٠،٢٠ الى ٠،٦٠	٤.٠٢	١ الى ٨
ذهبي	٢،٥٠ الى ٣	٠،١٠ الى ٠،٢٠	٣.٦٨	١/٢ الى ١ ١/٢

نوع المجرى المستعمل للتلبيس

ان نظرية التلبيس مرتكزة على نقل المعدن من الايجابية الى السلبية كما بيّناه . فلهذا يجبُ استعمال المجرى المستمر ، اي ما كان قطبه الايجابي ثابتاً ، وكذلك السلبي . امّا المجرى المتناوب فلا يصلح للتلبيس لان قطبيه ينعكسان مائة مرة في الثانية (للمجرى العادي ذي التكرار ٥٠ دفعة) . فالذرات التي

تكون نُقلت من القطب الايجابي الى القطب السلبي ، مدة ١٠٠/١ من الثانية الاولى، تعود فتُنقل بالعكس متى انقلب القطبان مدة ١٠٠/١ من الثانية ايضاً وهلم



الرسم ٣ : قاعة التلبيس

جرًا بحيث انه في آخر الامر لا يعلق بالسلبية شيء من المعدن . وهذا ما منع المجرى المستمر من التلاشي ، رغم تقدم المجرى المتناوب . فهو لا يزال يستعمل في احوالٍ مخصوصة منها الجرّ ، وصناعة التلبيس ، والكيميا الكهربائية . وتوتر المجرى في التلبيس يتراوح بين ٠،٥٠ و ١٠ ڤولت حسب نوع المعدن . امّا قوة المجرى ومقياسها الامپير فتابعة لمساحة القطعة المنوي تلبيسها ونوع التلبيس كما

رأينا . ويجب ان لا نخلط قوة المجرى ، ومقياسها الامپير ، بقوة التوتر ومقياسها الڤولت . فلو اردنا التشبيه بين السيّال الكهربائي والسيّال المائي لقلنا انّ قوة المجرى اشبه بثخانة القسطر المائي ، والتوتر بالضغط او سرعة سيلان الماء . اما القوّة الكهربائية فمقياسها الوات اي جزء من ٧٣٦ من الحصان . وهي نتيجة ضرب التوتر بقوة المجرى . مثلاً مولّدة كهربائية تعطي مجرى عشرة امپير بتوتر ٦ ڤولت تكون قوتها ١٠ × ٦ = ٦٠ وات ، اي ٧٣٦/٦٠ من الحصان . وهذه القاعدة لا تصح تماماً الّا في المجرى المستمر

قلنا اذاً انّ التلبيس الكهربائي يقتضي مجرًى مستمرًا . ففي الاشغال الصغيرة من مثل تفضيض ايقونة او آلة دقيقة ، نقدر ان نستعمل بطاريتين او خزّانين . انّما الاحسن استعمال مولدة مخصوصة ، خصوصاً لمن اتخذوا هذا الفنّ مهنةً يعيشون منه . ففي المدن ، حيث لم يعد المجرى المستمر اثر ، يحوّلون المجرى المتناوب الى مجرى مستمرّ بواسطة مجموع مركّب من محرّك كهربائي ومولدة كهربائية . يسير الاول بقوة المجرى المتناوب فيُدير الثانية فتعطي المجرى المستمر . والرسم ٣ ، في الصفحة المقابلة ، يمثّل قاعةً للتلبيس يُرى عن شمالها المولدة الكهربائية ، وعن اليمين الصناديق المستعملة للتلبيس ، منها للتشكيل ومنها للتنحيس ، وفي كلّ منها المحلول الكيماوي اللازم لهذه الغاية . امّا التيّار الكهربائي فيأتي لكلّ واحدة منها بواسطة جهاز مخصوص ولوحة لوزن التوتر وتعديل المجرى

الخلاصة

يظهر ممّا سبق أنّ صناعة التلبيس صناعة جُلّى تشهد بقوّة السيّال الكهربائي وبما له من المكانة في تغيير هيئة المعمور واحواله الاقتصاديّة . انما نأسف ان يعمد الانسان احياناً الى استعمال ما وضعه الله بين يديه ، من الوسائل العلمية ، لعمل المنكر . فقد تبيّن انّ البعض كانوا يعمدون الى طريقة التلبيس ، لتقليد السكك والنقود ، غير ان هؤلاء الجناة كثيرًا ما لقوا جزاءهم اشدّ العقوبات . ثم كم من الصاغة يستعملون التلبيس قصد الغشّ وترويج بضائعهم ، وهو فعل مستقبح اجارنا الله من شرّه . . .

صفحة من تاريخ سورية

تنازع الاسقفية في انطاكية (٣٦٢-٣٩٢)

بقلم الاب غوستاف نيرون استاذ الفلسفة في كلية القديس يوسف

١

ان سورية كما لا يخفى هي من البلدان الاولى التي استولت عليها الديانة المسيحية . فان اعمال الرسل تنبئنا ان في عاصمتها انطاكية بدأ استعمال كلمة «مسيحي». لذا كان التبشير فيها ، منذ اول عهده ، سريعاً جداً . ففي اوائل الجيل الرابع ، بينا كان الغرب لم يزل معظمه وثنياً، ولا يعدّ في كثير من اقطاره الّا بعض مراكز متفرقة للمسيحيين ، اذا بسورية قد توطد فيها الدين الجديد مؤلفاً في جميع انحائها جماعات متلازة من المؤمنين.

اما ارتداد قسطنطين فلم يكن الا ليزيد في تعزيز موقفها . فمنذ ذاك العهد ، لا يتميز تاريخ كنيسة سورية عن تاريخ البلاد الذي كانت الحوادث الدينية لحمته . ولكن لا نتوهمنَّ اننا لا نجد في هذا التاريخ موضوعاً نسرده سوى انتصارات الايمان والروح المسيحي ؛ فان الديانة المسيحية ، بانتصاراتها نفسها ، وبامتياز موقفها ، كانت عرضة لاخطار جديدة اعظم ، على نوع ما ، من اخطار الاضطهادات الوثنية . فان الامبراطور ، وقد غدا من ابناء الكنيسة ، استعمل في سلطها نفوذًا كبيرًا خوّلته اياه مجاري الامور . ومن ثم كان يُخشى ان يدفع الطمع بعض الاكليريكيين المفسدين للتألب حوله ، سعياً وراء تنفيذ اميالٍ غير اميال الانجيل.

ذلك ما جرى خصوصاً اثناء المنازعات الاريوسيّة التي ملأت القسم الاكبر من الجيل الرابع . فان البدعة الاريوسيّة ، التي طرحت الوهية المسيح على بساط النقد ، لم تنل نجاحاً بين الشعب المسيحي : امرٌ عرفهُ الجميع عندما حرم المجمع النيقاوي بدعة آريوس . لان تحديدات هذا المجمع قُبلت في جميع

الاقطار بخضوع وسرور تأمين . غير انهُ اذا كان المؤمنون الاتقياء قد نبذوا هـذا الضلال المقوّض لاركان الايمان ، فان فئة من الاحبار ، رجال الطمع والسياسة ، ارادوا لاسباب مختلفة ان يترتّب مصيرهم على مصير آريوس . وكانوا لذلك يجتهدون بكل ما لديهم ليتيحوا لهُ الاخذ بالثأر ، مما اثار اضطرابات مستطيلة ، وانقسامات شديدة، واحياناً اضطهادات لا تقل قساوة عن اضطهادات الملوك الوثنيين انفسهم . بيد انهُ لا توجد كنيسة تألمت من هذه الحالة الموجعة اكثر من كنيسة انطاكية .

* * *

في سنة ٣٢٥ ، ايام التئام مجمع نيقية ، كان يرئس كنيسة عاصمة سورية رجل سامي القدر، حازمٌ ، صارم العزيمة ، وهو القديس افسطاتيوس ، احد الذين بادروا قبل انعقاد المجمع الى حرم المبتدعين . ولمَّا انفض المجمع وحاول هؤلاء اعادة الكرة خلسةً ، كان من اول العاملين على كشف دسائسهم . ولذا لم يلبث ان نال ما سبّب له سهره المتواصل من المشاكل .

وفي سنة ٣٣١ التأم في انطاكية مجمع قبض على زمامه الاحبار الاريوسيون فحط افسطاتيوس عن كرسيه مستنداً الى وشايات افترائية ؛ ونال من قسطنطين تثبيت الحكم بدعوى انه متمرّد ، فنفي الى تراقية حيث لم يلبث ان مات : ضربة قوية جرّت على كنيسة انطاكية ، التي كانت اذ ذاك على ازدهار واتحاد عظيمين ، عواقبَ مؤلمة بقيت زهاء قرن .

وذلك اولًا ان الموقف الجديد جعل كاثوليك انطاكية امام مشكل كبير من مشاكل الضمير . ما العمل ؟ ايرضون بحط افسطاتيوس الجائر ويعترفون بالاساقفة الذين جُعلوا خلفاء لهُ، وهم رجال ذوو ايمان مريب ، بما ان علاقاتهم كلها كانت مع الاريوسيين ، او قلما يكون مع النصف الآريوسيين ؟ ام ينفصلون عنهم ويؤلفون طائفة على حدة ؟

موقفٌ حرج فيه الاكليريكيون والمؤمنون ، حتى الذين تساموا منهم تقوى وتمسكاً بايمان نيقية ، لم ينهجوا منهجاً واحداً . فان فئة ذات شأن قد انفصلت عن الطائفة القانونية ، التي فقدت راعيها الشرعي . ولئلا تشترك مع آثام عليهم

شبه المرطقة ، كانت تجتمع على انفرادٍ في مساكن خصوصية . اما شعارها فقد كان اسم افسطاتيوس ، لذلك دُعي ذووها بالافسطاتيين.

وآخرون ممن كان ايمانهم نقيًّا ايضاً لم يفقهوا واجبهم على هذه الصورة ؛ فان عزل افسطاتيوس كان غير عادل ، الّا ان المحكوم عليه نفسه كان يظهر انهُ راضٍ بذلك حبًّا بالسلام.

واما تعاليم نيقية فان الذين اسقطوا الاسقف القديس كان انتحالهم لها موضع الريب . بيد انهم كانوا قد وقّعوا عليها وكانوا يعلمونها . ولم يكن اذ ذاك في المملكة كلها وفي الكنيسة جمعاء قانون ايمان غير الذي تعلمه نيقية . اذًا بما ان المعتقد القويم لم يُمَسّ أمَا كان الاولى ان يضحّى بكل شيء في سبيل وحدة الكنيسة ، ويحفظ الاتحاد مع الجماعة الشرعية ؟ وذلك لكي لا تذهب هي ايضاً فريسة الهرطقة . فهؤلاء الكاثوليك الاكثر تساهلًا قد اعترفوا اذًا بالاساقفة الذين تتابعوا على كرسي انطاكية بعد سنة ٣٣١

بالحقيقة ان الطائفة الشرعية ، التي كانت لم تزل مستولية على الكنائس بحيث امكنها ان تقيم فيها جهارًا الاحتفالات الطقسية ، كانت اكثر عددًا من الاخرى . لكنها كانت اكثر اختلاطا . فبإزاء الكاثوليكيين الذين لا يؤخذون بلائم ، كنت ترى جمًّا من الآريوسيين بين متكتمين ومتظاهرين ، ونفوساً متردّدة تتلاعب بها رياح المذاهب.

* * *

ففي عهد الامبراطور قسطنتيوس بن قسطنطين الكبير ، استأثر الآريوسيون بجميع نعم ذوي السلطان . والاسقف لاونثيوس ، الذي بقي في كرسيه من سنة ٣٤٤ الى سنة ٣٥٨ ، كان بلا ريبٍ اكثر مناصرة لهم منه للكاثوليكيين الحقيقيين . غير ان هؤلاء كان في مقدمتهم رجال حزم وعزم ، فحافظوا بثبات على ايمانهم الذي قلما وجد نصرةً في اسقفهم . فهذا الاختلاف الداخلي في الافكار ، الذي كان يتزايد يوماً فيوماً ، قد جرّ احياناً الى الخارج مشاكل غريبة . ففي تلاوة الفرض في الكاتدرائية ، كان الكاثوليكيون يجاهرون بايمانهم بتساوي الثالوث الاقدس ، خاتمين كل زبور بالعبارة التي لا نزال نستعملها

وهي « المجد للآب والابن والروح القدس.» واما الاريوسيون فتلميحاً الى عدم مساواة الابن كانوا يقولون «المجد للآب بالابن في الروح القدس» . فالاسقف الذي كان يريد ان يتجنب كل سبب معثرة رأى ذاته واقعاً في حيص بيص . ومما يخبر عنهُ انهُ كان يبتدئ بقول «المجد للآب» بصوت جهوري جلي. ثم يسهل او يميت صوته هنيهة ؛ ولا يعوده صوته الا عند الخاتمة « الى دهر الداهرين.»

فوالحالة هذه كان يرى الاقدام على تغيير الاساقفة سبباً لاثارة منازعات جديدة في كنيسة انطاكية . والاسقف الشيخ لاونتيوس قد شعر بذلك. وكان يقول وهو يمرّ يده بين شعره الابيض « متى ذاب هذا الثلج صار وحلٌ في شوارع انطاكية » . وقد مات سنة ٣٥٨ وخلفه افضوكيوس ، وهو آريوسي مجاهر بآريوسيته . فاضطرب من ذلك الكاثوليكيون ؛ غير انهُ ما لبث ان مضى عنهم لانه في بدء سنة ٣٦٠ نقل الى القسطنطينيَّة ، فوجب من ثمَّ ان يُعمد الى انتخاب اسقفيّ جديد كان لابد ان يفضي الى قلب الحالة الحاضرة ظهرًا لبطن.

من ذا يكون الاسقف الجديد ? والى اي فريق سيميل ? هذا ما كان الجميع يتساءلون عنهُ. وان الظروف كانت تبين غير مناصرة للكاثوليكيين . فان الآريوسيين كانوا منذ قليل قد فازوا في مجمع ريميني غير الشرعي، والقديس اثناسيوس مع المحامين الباسلين عن ايمان نيقية كانوا في الجلاء . والاحبار الذين يحفّون بالامبراطور قسطنتيوس ، والقابضون فعلًا على دفّة الكنيسة الشرقية كانوا رجال سياسة واسعي الضمائر ، كلهم مناصرون للهرطقة مناصرة متفاوتة. ففي هذه الاحوال يا ترى هل يكون الانتخاب حرًّا وما تكون نتيجته ?

ان الاساقفة تهافتوا بكثرة على انطاكية ليكون لهم يد في الانتخاب . فلم يمضِ الّا زمن يسير حتى طار الخبر ان المنتخب اكليريكي قليل الشهرة ، وديع ، ساذج ، محب للسلام ، عدوّ للقلاقل والبلابل ، جعله حبه للكنيسة والعزلة خارجاً عن الاحزاب . وكان لهُ في كل منها على اختلافها اصدقاء كثيرون بحيث ان في كلا الفريقين ، فريق الكاثوليكيين الأمناء وفريق الاريوسيين ، من توسّم الخير في انتخابه.

لقد انتظر القوم بفروغ صبر خطاب الجلوس اذ منهُ يعرف الى اي فريق

يمل المنتخب الجديد . وهنا يجب الاقرار انهُ حضر الحفلة بموكب التقى في القلوب بعض الخشية . فكان يحف بـهِ جاورجيوس الكپادوكي الدخيل ، الذي اجبر الشرطةُ الامبراطورية اهالي الاسكندريّة بقبوله عوضاً عن القديس اثناسيوس . ثم اكاكيوس قيصارية ، حبرٌ مهتم بالسياسة قبل كل شيء قليل الاكتراث للديانة . بيدَ ان علاقاته كانت تميل بهِ الى جانب الهرطقة .

***

خطب الاساقفة الثلاثة تباعاً . فجاورجيوس الاسكندري تكلم طبقاً لما كان ينتظر منهُ اي بمعنى آريوسي محض . اما اكاكيوس فقد كان اكثر تحفظاً لكنه لم يُرضِ الكاثوليكيين الحقيقيين . واما الاسقف الجديد فما عساه ان يقول ؟ انهُ بدأ بكل سكون يحرّض على الاتحاد والسلام . ثم جاهر بايمانه تاركاً العبارات التي من شأنها اضرام نار المنازعات نظير « المساوي في الجوهر » فاذا باعترافه لم يدع مجالاً للشك في صحة معتقده الكاثوليكي الصميم .

فرقص الكاثوليكيون طرباً . اماَّ الآريوسيون فقد تهيأوا مذ ذاك للاخذ بالثأر . وكان ذلك غير بعيد . فبعد مضي شهر اقيمت الشكاية عليه بانـه تجاوز الحدّ في بعض اعمال ادارية ، فحُطّ عن كرسيه واقيم بدلاً منـهُ هرطوقي متظاهر اسمه افزونيوس ، احد رفاق آريوس .

هكذا كانت امور انطاكية تزداد تعقيداً يوماً فيوماً . فاذا ضربنا صفحاً عن فئتين اقل اهمية من الأُخر — نتركهما تفادياً من الالتباس — وجدنا الطائفة المسيحية منقسمة آنئذٍ الى ثلاثة اقسام : الفئة الاريوسية ، ويرئسها الاسقف افزونيوس . فهذه كانت مستأثرة بنعم اولي السلطان ، مستولية على الكاتدرائية التي شادها قسطنطين . ثم فئة ملاتيوس التي كانت خاضعة للاسقف المنفي ومستولية على الكنيسة القديمة . اخيراً الفئة المنتمية لافسطاتيوس والحافظة الامانة لاول ضحية من ضحايا الآريوسيين وهذه كانت تقيم اجتماعاتها في بيوت خصوصية ، وكان على رأسها الكاهن بولينوس .

ولو قيل ما الفرق بين هاتين الفئتين الاخيرتين اجبنا : اشياء بالحقيقة لا يعتدّ بها . فاذا نظرنا الى المعتقد ، فقد كانوا كما يظهر متمسكين على السواء بالايمان

الذي علّمه المجمع النيقاوي عن تساوي الثالوث الاقدس . فجلّ ما يميّز احداهما عن الاخرى بعض اختلافات في التعابير لا يعتدّ بها. فالافسطاتيون كانوا يتحرّون اسلوب تعبير الغربيين خلافاً لتبّاع ملاتيوس الذين بقوا محافظين على التعابير الشرقية . امّا حقيقة ما يميّز الواحدة عن الاخرى فهي نزعات واميال شخصية.

***

منذ ثلاثين سنة كان الافسطاتيون قد تعوّدوا ان يعيشوا على حدة وان يعتبروا المجاورين لهم كمواطنين للهرطقة . فانفرادهم في الشرق — حيث كان دستور التساهل قد أقيم تقريباً في كل اقطاره — جعلهم يؤثرون الاعتصام برومية والاسكندرية ، ويظهرون بمظهر «الملتنين» (latinisants) خلافاً لتباع ملاتيوس الذين لم يقطعوا علاقاتهم مع الاساقفة الشرقيين ، الذين كان كثير منهم اعداء للقديس اثناسيوس ، ومقاومين سرًّا لتعاليم نيقية.

ففي الموقف الجديد كان لا بد من امر ، كيفما تقلبت الاحوال. وهو ان تتحد الفئتان اللتان لم يفصلهما سبب صوابي . فانهما كلتيهما حرمتا انعامات الحكومة ، وتألمتا من نفس العلة . فكان من ثم كل شيء يدعوهما لمدّ يد المصافحة . ناهيك عن ان خير وسيلة لقهر هرطقة عضدتها السلطة بجميع ما لديها من القوة كانت بلا جدال جمع الكاثوليكيين حزمة واحدة لا تقوى عليها الايدي . وهو امر سهل للغاية اذ ان اتباع ملاتيوس كان لهم وحدهم اسقف . ولكن واحسرتاه بينا كلٌّ يهتف بلسان حاله : الاتحاد ، الاتحاد ، اذا بداء الانقسام قد استفحل.

بيد ان سلطات عالية حاولت التوسط لاجل السلام ، فانه بعد ان نفذ سهم القضاء بقسطنتيوس ، الذي اتاح موته للكاثوليكيين قليلًا من الراحة ، عقدت مجامع في كثير من الامكنة لمعالجة ادواء الكنائس التي عاثت بها الاريوسية . فان القديس اثناسيوس ترأس احداها في الاسكندرية . وذلك اثر عودته اليها عودة ظافر.

فهذا الرجل العجيب كان معروفاً بغيرته الشمّاء في الدفاع عن الحقيقة تجاه اغتصاب المضطهدين ، وضعف كثيرين من زملائه . امّا الآن وقد عادت

السكينة فاستتبَّت ، فانهُ اظهر لاعدائه بالامس ملاطفةً لا تقلّ عن الشجاعة التي ابداها وقت الكفاح . فقد صرف كل همته وذكائه لاجتناب المنازعات الفارغة ، والجمع بين آنام اتحدوا افكارًا الّا انهم اختلفوا اقوالًا . ولما كان مجمع الاسكندرية لا يسعه اهمال شؤون انطاكية ، كتب كتاباً للافسطاتيين يحرضهم فيهِ على الاتفاق مع كل الذين كانوا حقيقة مسلّمين بتعاليم نيقية . الّا ان تعابيرهم عنها تختلف بعض الاختلاف عن التي استعملت الى ذلك العهد.

غير ان المؤمنين الموجه الكتابُ اليهم لم يكونوا ليفقهوا معنى تلك النصائح المشيرة بالاتحاد . فقد كانوا منذ ثلاثين سنة قائمين في معتقدهم القويم ، ملازمين لهُ ، غيُرًا عليهِ ، محتملين لاجله الوحدة والاضطهاد احرى من مجاراة الضلال باقل شيء . حالةٌ انمت فيهم قوة الحزم والتجرد وحرارة العاطفة الدينيَّة . الّا انها لم تعدّهم لهذه السمة والمرونة في الافكار فيرضوا بالتساهلات حتى اكثرها جوازًا تجاه الضمير . هذا فضلًا عن ان حادثًا خطيرًا كان مزمعاً ان يجعل كل تقرب مستحيلًا قبل زمن طويل.

ان الكتاب الموجه الى الانطاكيين عُهد بهِ الى اوسابيوس مطران فيرسيل الذي كان في ايام قسطنطين قد نُفي الى مصر وكان اذ ذاك عائدًا الى ابطالية بعد حضوره المجمع الاسكندري . فهذا الرجل القديس الذي كانت حكمته تباري غيرته كان في وسعه عند وصوله الى انطاكية ان يستعمل من نفوذه ما يكفي لاعادة الاتحاد. لو لم تكن الحالة قبل وصوله قد انقلبت انقلاباً خطيرًا.

* * *

بين الغربيين المنفيين الى الشرق لاجل قانون نيقية ، كانَ لوسيفيروس اسقف كالياري في سردينيا. وهو رجل ذو غيرة فريدة على الايمان الّا ان اخلاقه لم تكن تشبه اخلاق ابطال الايمان الحقيقيين كالقديس اثناسيوس واوسابيوس:

فهذا قد ابدى جرأة فائقة في حين ان الكل طأطأوا الرأس امام قسطنتيوس بيد ان ثبات عزيمته لم ترافقه اصابة الحكم ، فان لهجة تقريعاته الحديثة للامبراطور تدلّ على اندفاع وتهوّر. ثم لما دعي الى المجمع الاسكندري رفض الدعوة واسرع الى انطاكية حيث كان اشتباك الامور يجتذبه . فان رجالًا

من هذه الجبلة قلما لا يندفعون لاول وهلة وراء ما لا يسوغ عمله . ولكن لنتصفن لوسيفيروس مقرّين بانه عند وصوله الى انطاكية اجتهد في ان يخفف من تعصب الافسطاتيين . غير انهُ ألّا اخفق مسعاه فعل ما كان يجب تجنبه قبل كل شيء.. اي صيّر الانقسام غير قابل الالتحام ، وذلك بسيامته بولينوس اسقفاً ولنلاحظنّ حالًا ان هذه السيامة كانت مناقضة لقوانين الكنيسة من وجهين : اولًا لان انطاكية كان لها اسقف وهو ملاتيوس الذي يصعب جدًا ان لا يعتبر شرعيًا . ثانيًا لان لوسيفيرس هو الاسقف الوحيد الذي قام بحفلة السيامة على حين انهُ كان يقتضي اثنان آخران معه .

ولما وصل اوسابيوس كان الشر قد وقع ، فحزن جدًا ولم يُرد ان يعترف ببولينوس ولا بملاتيوس . ومن ثم انقلب راجعاً الى ايطالية فعملُ لوسيفيرس العاري من الفطنة بقي مدة طويلة شديد الوطأة على مصير كنيسة انطاكية ، وزد على ذلك غلطة اخرى ارتكبها هذه المرة الحزبُ الآخر فزاد الموقف حراجة .

لقد سبقنا فاشرنا الى روح المسالمة في القديس ملاتيوس . وإن للمؤرخ بلا ريب تعزيةً كبرى في رؤيته هذه الصورة الوديعة ، بارزة في وسط يؤلفه احبار مواطئون للآريوسية ، يسرد فيهم رجال الاحزاب والدسائس . على انهُ قد اضطرّ ان يُظهر بعد قليل ، ايام اضطهاد ڤالنتا،ان الوداعة لا تنفي منهُ رباطة الجأش في مناهضة الكفر . ولكن من نظر الى العلاقات التي ارتبط بها في بدء حياته صعب عليه ان لا يرى فيه الافراط في محبة التآلف . فانهُ كثيرًا ما رأى في اصحاب هيهات ان يشابهوه ما كان يراه في نفسه من استقامة النية . والحال انهُ يتفق احياناً أن الافراط في مجاراة من لا يستحق المساهلة يحمّل صاحبه تبعات بل ذنوباً كبيرة تجاه الاكثر جدارة، وهذا ما وقع آنئذٍ بملاتيوس .

في سنة ٣٦٣ اي بعد سيامة بولينوس بسنة اضطر القديس اثناسيوس ان يذهب الى انطاكية . فلا ريب ان ظروف انتخاب ملاتيوس لم تكن لتنيل هذا خطورة في عيني القديس . ناهيك ان تقرّب اسقف الاسكندرية من الشرقيين الذين قاموا بهذا الانتخاب كان ليحتسب مصافحة رجال اصلوه نار العداء مدة ثلاثين سنة وطردوه من كرسيه ووشوا به عند القياصرة ونالوا

الحكم عليه بالنفي ثلاث مرات. غير ان اثناسيوس كانت نفسه اكبر من ان تدع مجالًا لاقلّ عاطفة حقد. وان خير الكنيسة في ذلك الوقت كان يقتضي نسيان المخاصمات القديمة. وعليه فان القديس صرّح لملاتيوس برغبته في موالفته.

اما كيف لم يقبل سؤال كهذا للحال فذاك امر لم تصلنا تفاصيله وافية. بيد انهُ يبين واضحاً ان الذنب في ذلك ليس ذنب الاسقف نفسه، بل ذنب محيطه الملتبس الذي اتخذه، عنيتُ تلك النفوس الصغيرة التي لم تكن لتدرك شهامة اثناسيوس الكبيرة. ولكن لما أنس القديس في جوانبهم روح المماطلة، بادر الى الاشتراك مع بولينوس فافضى ذلك الى عواقب لا تُحصى.

منذ بدء المنازعات الاريوسية حملت ظروف الحال رومية على مطابقة وقفتها في الشرق لوقفة الاسكندرية التي كانت تبدو بفضل اثناسيوس كحصن الايمان الحقيقي. اذًا جعلُ بولينوس تحت حماية مصر كان ضامناً لهُ بالوقت نفسه معاضدة الغرب. وعليه فان الاختلاف الانطاكي الذي كان لم يزل موضعياً اخذ مذ ذاك يشغل الكنيسة جماء، ويثير في كل الانحاء المشاكل والخصومات. وفيما ان شديد استئناف الاضطهاد الاريوسي في زمن ڤالنتا يتقاضى من الكاثوليكيين اشد اتحاد، كانت احوال انطاكية التاعسة موشكة ان ترمي الخلاف بين الكراسي الاسقفية المختلفة، وتلقي الخصام بين اشخاص من اجلّ الناس قدرًا وقداسة. فترى، من جهةٍ، الشرقَ كلهُ يعرف ملاتيوس اسقفاً شرعياً لانطاكية. ومن جهة اخرى، الاسكندرية ورومية مائلتين بالاحرى الى بولينوس. ولذلك سنجد دوماً، بين المساعي الصادقة في سبيل الاتفاق، سوء تفاهم يتكرّر، ومصدره التباس هذا الموقف.

ان التدابير العديدة التي اتخذت على التوالي لقطع شأفة الشقاق تتألف منها قصة طويلة معقدة يجد القارئ فيها ما يرثاه، واكثر من ذلك ما يفيده موعظة. ولما كنا لا نستطيع ان نسرد هنا كل التفاصيل آثرنا ان نتوقف عند الحوادث الهامة.

***

فلننتقل اذًا الى ما بعد اثنتي عشرة سنة اي الى سنة ٣٧٥. فقبلُ بسنتين كان اثناسيوس قد مات، واقيم خلفاً لهُ على كرسي الاسكندرية، اخوه بطرس. ولا جدال في ان اعظم رجل في الكنيسة اذ ذاك كان القديس باسيليوس الذي نُصّب منذ ثلاث سنوات استقفاً على قيسارية في كبادوكيا.

ان حالة شطري المملكة الرومانية كانت في ذلك العهد مختلفة كل الاختلاف. ففي سنة ٣٦٤ تبوأ العرش ڤالنتينيانوس القائد المسيحي، فاشرك معهُ اخاه ڤالنتا ليملك على الشرق. فڤالنتينيانوس لم يرد ان يتدخل في المسائل اللاهوتية، بل ترك للكنيسة حريتها التامة، بحيث ان الغرب كله الذي لم تستطع الاريوسية قط ان تتأصل فيه، غدا منذئذٍ باتحاد وسلام يسير تحت رعاية الكنيسة الرومانية على صراط الدين القويم، خلافاً للشرق الذي كانت جميع اقطاره مواطن للاضطراب والبلبال. فان ڤالنتا منذ بدء تملكه عليه جد في رفع لواء الهرطقة، فكان الاساقفة الشرعيون يُجرّون من كل الانحاء الى المنافي، ويقام بدلًا منهم دخلاء جهلة متعصبون. ففي انطاكية اظهر حينئذٍ ملاتيوس المعروف بوداعته بأساً لا يدانى في الدفاع عن الايمان. لذلك حمل المضطهدون، عليه وعلى رعيته، حملة شعواء، فكان الاتباع لملاتيوس مرادفاً للامانة على الايمان الحقيقي. اما كنيسة بولينوس الصغيرة التي كانت اقل عدداً ونفوذًا بكثير فانها لم تكد تمس باذى.

على انهُ بين تلك الاضطرابات العمومية، تلوح لنا حركة تولينا أكثر تعزية واملًا. وهي ان كثيرين ممن انخدعوا بتمويهات براهين الهراطقة اخذوا، لما كان يؤلمهم من قساوة الاضطهاد الاريوسي، يتقربون من الديانة المستقيمة يوماً فيوماً. واذا كان لم يزل عالقاً بهم اكثر من وهم باطل فلا يتبعون دون تردّد محض المعتقد النيقاوي، فانهم مع ذلك ناهجون منهج الحقيقة ولا يسألون الّا ان يُسعفوا قليلًا ليصلوا اليها. ففي هذه الحالة المشتبكة كانت سياسة القديس باسيليوس واضحة كل الوضوح، وهي ان يجمع كل من بقي في الشرق اميناً على حقيقة نيقية او من عاد اليها: وذلك بان يبذل بصبر كل الايضاحات

اللازمة مُعرضاً عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر . ثم ان يكمل عمل الاتحاد هذا باكتساب معاضدة رومية والغرب . لانهُ اذا ما تألب الكاثوليكيون في الشرق كله كتلة واحدة ، وبان واضحاً ان الغرب باجمعه يسير الى جنبهم ، فان المضطهدين مهما اشتدت حملتهم يجدون في هذه الوحدة التي امست موطدة كل التوطيد قوةً لا يقوى عليها . ولكن وآاسفاه فان هذه الآمال الجميلة ستصطدم بسوء تفاهم حصل في انطاكية . فان اسقف قيسارية ارسل الى البابا داماسيوس كتبه الواحد تلوَ الآخر واصفاً له فيها آلام الشرقيين ، وطالباً الى من يتمتعون بالسلام اغاثة اخوانهم التعساء . ومن البديهي انهُ دافع في الوقت نفسه دفاعاً حارّاً عن صديقه الحميم القديس ملاتيوس لان بولينوس لم يكن في نظره الّا دخيلاً . ومن ثم كان يجب ، لاعادة الاتحاد بين الكاثوليكيين ، ان يجاهر صريحاً بان ملاتيوس هو الاسقف الوحيد لانطاكية، فانه بموقفه وبمقدرته الشخصية مقام ليكون نقطة اتحاد جميع الكاثوليكيين في الشرق .

غير ان باسيليوس قد طال انتظاره لاجوبة داماسيوس . ولما وردت لم يجد فيها ما تقتضي الحال من البتّ الوافي . ثم بلغه ان وفد بولينوس قد قُبل في رومية ، وان البابا قد اجرى الملاقات معه فحزن اذ ذاك وثار ثائره . ففي احدى رسائله التي يسارُ فيها صديقاً لهُ ، وكان قد كتبها في احدى ساعات غضبه ، تراه يتشكى من عنفوان داماسيوس وقلّة فطنته باستلامه لكل رائح وغادٍ . ويعلن اخيراً ان الغربيين لا يفهمون شيئاً من امور الشرقيين .

***

ومما يقضي بالاسف ان صروف الايام لم تتح لرومية ان تسرع الاسراع الواجب لمناصرة عمل القديس باسيليوس المملوء حكمة وملاءمة . بيد ان من نظر الى كل الظروف تردد كثيراً في لوم القديس داماسيوس ، لان هذا كان امامه في رومية نفسها شقاق اخر قويّ صعب المراس ايضاً قد اضعف شوكته وتنقص من حريته . فضلاً عن انهُ كان بعيداً جداً عن الشرق ، لا يستطيع ان يعرف بدقة ما يجري فيه . وكان لا بد لهُ من اعتبار الاخبار المختلفة التي ترده ليرى كيف يسير . اما اخبار باسيليوس فانها كانت بلا ريب ذات قيمة

فريدة . الّا انها لم تكن الوحيدة ؛ فما خلاها ، كانت تتوارد عليه اخبار كبيرة الاعتبار لا تضرب على الوتيرة نفسها . فان بطرس الاسكندري كان قد اضطره الاضطهاد الاريوسي الى ان يهرب الى رومية ، وهناك عوضاً عن ان ينهج منهج الاعتدال الذي تحلى به اخوه اثناسيوس حمل على ملاتيوس ووشى به انهُ هرطوقي . وشايةٌ جائرة جدًا . الّا ان علاقات ملاتيوس الاولى التي اشرنا اليها سابقاً كانت داعية لاثارة الشكوك عليه . بينا ان استقامة ايمان جماعة الافسطاتيين الساطعة كانت افصح مدافع عن بولينوس.

ومن سورية نفسها ، قد كانت وصلت رومية اخبار مخاصمات غريبة لم تكن لتجعل ثقة داماسيوس في حزب ملاتيوس.

في ذلك الوقت بدأت جماعات لاتينية تهاجر لتقيم في الشرق . لانّ الاماكن المقدسة ، التي رجعت بهمة هيلانة وقسطنطين الى حالها الاول ، كانت تجتذب اليها النفوس الورعة . ومن ثم بدأت تظهر حركة ذات شأن دامت في الاجيال الوسطى بفضل الحروب الصليبية ، وتواصلت الى ايامنا هذه بواسطة الرسالات اللاتينية في الشرق . فهذه الحركة لم تكن مبدئيًا الّا لافادة الجميع اذ بها تتألق تألقاً ساطعاً وحدة الكنيسة . كيف لا وان اخوةً في الايمان يختلفون اصلاً وعادات ومشارب ، كانوا بذلك يتملّون ان يعيشوا معاً في احترام تذكارات مقدسة واحدة ؛ وبعيشتهم جنباً الى جنب ، يتعارفون اكثر فيتسنى لهم من ثم ابادة سوء التفاهم المتبادل المتواتر.

. بيد انــهُ لضرب من السذاجة ان نتصوّر ان مثل هذه العلاقات يمكن انشاؤها دون احداث اضطراب ما . فمنذ البداءة قام جم من الصعوبات .

ان السابق الاخص في هذه المهاجرات التقوية هو صديق خاص للبابا داماسيوس اعني القديس ايرونيموس . فهذا الرجل ذو الطبيعة النارية والطباع الحادّة . كان يجتهد في ترويض اخلاقه . فالوحدة ، والصلاة المستطيلة ليل نهار ، والتقشفات الهائلة ، والانصباب على درس العبرانية التي كان يشعر بكراهية شديدة لها ، كل ذلك استعمله ليلطف من حدة طباعه . ومع ذلك فان الطبيعة فيه لم تكن قد ماتت بعد وكان اصبره حد محدود . امر لم يلبث

ان اخبره بانفسهم بعض الرهبان الشرقيين.

ان ايرونيموس لم يأت الى قفار سوريا الّا طلباً للسكينة والسلام. واذا بالمجادلات القائمة في النواحي المحيطة تتأثره حتى مكان خلوته. فان رهباناً، اغفلوا حسب كلمته اللاذعة وضاعة طريقتهم، ليستحيلوا الى قضاة الايمان، حدثتهم انفسهم بالمجيء اليه للوقوف على معتقداته. ولانهُ لم يكن يستعمل في التعبير عن سر الثالوث الاقدس كل العبارات الشرقية دعوه هرطوقياً. ولقد حاولوا بكل الوسائل اضطراره الى التحزّب لملاتيوس على بولينوس. فايرونيموس والحالة هذه، لم يجد واسطة الّا الالتجاء الى الكرسي المقدس، فكتب الى البابا داماسيوس هذه الاسطر الحامية:

«لما كنت قبل كلّ عبدًا اميناً للمسيح اتحد في الشركة مع غبطتكم، اي مع سدة بطرس، فانني اعلم ان على هذه الصخرة بنيت الكنيسة. فكل من اكل الحمل خارج هذا البيت كان نجساً. ومن لم يكن داخل هذا الفلك هلك متى جاء الطوفان... لا اعرف فيتاليوس، واني ارفض ملاتيوس، واجهل بولينوس. وكل من لا يجمع معك فهو يفرّق. اي من ليس من المسيح فهو من الدجال».

وبعد ان تبرأ على هذه الصورة من الانحياز الى حزبٍ ما انتقد حسب طريقته سلوك اتباع ملاتيوس. كان ايمانه في نظرهم مريباً، فرماهم بهذه التهمة نفسها واوشك ان يدعوهم هراطقة. فيُفهم من ثم لماذا داماسيوس، الذي اجتهدوا بقوة ان يستميلوه لجهات متناقضة كل التناقض، لم يجرأ ان يحكم في الامر حكماً جازماً. ومع كل فان القديس باسيليوس قد اتيح له ان يفرح قبل موته بوصول مكاتيب من رومية ملأته آمالاً. فانها وان لم تكن حاملة الاعتراف الفعلي بملاتيوس، فان داماسيوس ارسل فيها للشرق تشجيعات قوية وارشادات واضحة يستنير بها. فباسيليوس اعرب للحال عن شكره بكلمات مملوءة احتراماً ومحبة تتيح لنا القول انهُ، وان كان قبلاً تذمر بحدة لِما ان اقواله لم تصادف اذناً واعية، فما ذاك الّا لانهُ كان يضع اهمية كبرى في كل ما يصدر عن رومية.

(للبحث صلة)

نكبة النكبات

امين الريحاني مؤلف تاريخ سورية

بحث انتقادي للاب لامنس اليسوعي

امين الريحاني ! صفقوا له استحساناً ، وضفروا له اكليل الزهور اعجاباً ، ولقبوه بالاستاذ الكبير ! امين الريحاني ، فيلسوف الفريكة ؛ تطلّع الى فنّ التاريخ ، ومدّ يده قاطفاً منهُ وردةً يضمّها الى زهور اكليله ·

لم نبخس الريحاني حقه بالثناء ، لما قرّظنا ، في الشهر السابق ، كتابه «تاريخ نجد الحديث» ؛ اما اليوم والكلام على «النكبات» فلا بد من القول فيها ، انها تلفيق بتلفيق ، لخواطر اختمرت في دماغ صاحبها ، والتاريخ براء منها · «النكبات ؛ او خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الاول بعد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان» — هي كرّاسة لا يتجاوز عدد صفحاتها ١١٢ ، وصاحبها يفاخر بانها حوت لباب تاريخ سورية · لم نتردد في اطراء مؤلف « تاريخ نجد » اذ لكل امر أوان ؛ ولكل غرض تحت السماء وقت ، الولادة وقت والموت وقت ؛ للغرس وقت ولقلع المغروس وقت ؛ للقتل وقت وللمداراة وقت ؛ للهدم وقت والبناء وقت ؛ للبكاء وقت وللضحك وقت [1]

اما اليوم فلا بد ان نُسمعه كلامنا في « النكبات » ، راقه او لم يرقه ؛ وللمديح وقت وللوم وقت ، وقد طاش سهم الريحاني بكتابه واخطأ المرمى فلم يحصل به على لقب المؤرخ الفيلسوف

* * *

النكبات ! وحسبنا بالعنوان مخبرٌ عن المعنى

ان البشر اينما عاشوا كانوا بشراً ، وكان تاريخهم سلسلة شرور ونكبات وفظائع · تلك الآفات عبّر عنها المثل السائر عند الافرنج ، القائل : « يا سعد

---

١) راجع سفر الجامعة ٣ : ١-٤

الشعوب التي لا تاريخ لها »

فلا عجب ان دوّن الريحاني في مختصر تاريخه السوري ذكرى النكبات وهذه قد نالت بلادنا كما نالت بلاد غيرنا من الامم ذات المجد الاثيل

لكن الريحاني لم يذكر في تاريخه الا الفظائع والفواحش ، والذل ، والاعمال البربرية ، فسوّد صفحة البلاد ، وضرب على ماضيها بسرادق ظلام لا يخترقه شعاع نور على مدى الاجيال . نعم ليس البشر كلهم ملائكةً او ابطالاً ؛ ولكن ليسوا كلهم مسوخاً وشياطين . اما الريحاني فلم يتوسط بين التفريط والافراط ، بل تطرّف وقسم جدود السوريين الى شطرين ، فقال في المقدمة :

« ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟ القوي منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبَداً » . فإما اصوص لئام وإما عبيد اوغال

النكبات ! معظم فصولها هذه خلاصتها : « ان السوريين قد اظهروا منذ القدم عدم اهليتهم الاصيل الفطري لحكم ذواتهم بذواتهم من غير ما تدخل سلطة اجنبية في شؤونهم ؛ وختم فصلاً بهذه العبارة الباعثة على اليأس : « من اجنبي الى اجنبي على الدوام » وغيره من الفصول بهذه الآية ، وهي صفعة لطم بها وجه سوريّة ، ولا لطم الابن العقوق خدّ امه « انت سورية بلادي وانتم ايها الطغاة العتاة اجدادي » (ص : ٩٤) وفصّل اخبار العرب الوحشية وشنعها وقال في دُولهم (ص : ٥٥) :

« دول الكلاب كلها !

فمنذ سنة ٢٥٤ الى سنة ٤٦٣هـ . (٨٦٧-١٠٦٧ م .) كان الحكم في هذه البلاد السورية حكم « أبحناها لكم » . ولا فرق اذا كانت الدولة طولونية او اخشيدية او حمدانية او فاطمية . فيا لتعس الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان المظلم ، وكل حاكم فيه يباري زميله ، او يحامي خصمه ، بالمظالم والمذابح ، وبالنهب والسلب ، والسبي والتدمير

– ابحناها لكم ثلاثة ايام !

« للسبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا ، والنهب ما جمعوا ، والنار ما زرعوا »

يا للهول ويا للويل ، رحم الله من عاشوا في زمن الاباحات ، ولا رحم الله اربابها وجنودهم . أبشرٌ خلقوا على صورة الله ومثاله يتحوّلون في ساعة واحدة الى وحوش ضارية ؟

وهل يستحق اولئك البرابرة خمسين صفحة في التاريخ ؟ انهم لا يستحقون والله اكثر من سطر ، فيه كل اسمهم . فقد تحاربوا ، وتكالبوا ، وذبحوا ، ونهبوا ، وفسقوا ، ودمّروا .

وبكلمة اخرى: قد استباحوا كل حلال من عرض ودم ومال »

وختم المؤلف فصله مردداً كلماته آية اليأس، وقال: «وهم ايضاً اجدادي» على من الضحكة ايها الاستاذ؟ اتبغي ان تدفع السوريين الى الانتحار فيرموا بانفسهم في البحار؟

اما نظرية الريحاني في سلالة بني امية فهي نظرية اهل الشيعة، قال: «ان حرية الكلام تقيدت على ايامهم ولو كان في عهد عبد الملك صحافة لما تمتعت يوماً واحداً بالحرية التي هي كنزها وكنز الحقيقة الاكبر» (ص: ٤٢) يا لسعدك يا عهد الامويين! لولا شعراءك الذين استباحوا بهجائهم ما لم يستبحه الصحافيون في ايامنا

«النكبات»! هي خلاصة تاريخية، او بالحري هي ملفة خرق واطمار نشر الريحاني طواياها ففاحت منها رائحة النتانة والجرائم. انما فيها ديباجة واحدة لا غير وهي باسم فخر الدين «علم الوطنية الحقة ومشعالها الاوحد في تاريخنا» (ص: ٩٠) ما اضنك على وطنك بالمجد ايها الاستاذ!

اما نكبة النكبات في عين الريحاني فهو الاستقلال الاداري الذي تمتع به لبنان منذ العام ١٨٦٠ (ص: ١٠٢) وان لفي عبارته الناطاً لا تأتي الا على فم من جحد في شبابه وكهولته ما عبده في صباه، لان الريحاني ماروني المولد، ولا يزال ذكر المارونية يدهمه ويغشي على بصره فينظر الريحاني ويحكم من خلال ذلك الذكر القتال، فيمسي الابيض في عينه سواداً. من هم في نظره اعداء البلاد الالداء؟

— الموارنة. ومن حالف الاجانب ووالاهم؟ الموارنة. —

«وقد نصر الموارنة الافرنج كما نصروا الرومان على العرب من قبل، وكما نصروا الفرنسيس من بعد (ص: ٦٠) — والاسماعيليون او العلويون هم اخوان الموارنة في حب الاجانب وفي البلاء (ص: ١٦٠)

وختم المؤلف الفصل الحادي عشر من كتابه (ص: ٦٥) بهذا السؤال:

«لبنان بلدي. راح الصليبي، وبقيت انت. فهلا تملصت!؟»

واتى في الفصل الثالث عشر على ذكر تيمورلنك، وحريق دمشق ونهبها سنة ١٤٠٠ فقال (ص: ٧٣)

«وبعد خمسة وخمساً وعشرين سنة من هذا الحريق يجيئك، يا دمشق، من الغرب قوم متمدنون، فيدبون في دباباتهم هادمين، ويطيرون في طياراتهم مدمّرين، ويحرقون قصورك، ويمثلون بابنائك المجاهدين في الساحة التي شهدت مئات من الكوارث والنكبات»

وما على القارئ الا ان يحسب الحساب، ويعرف من هم انداد تيمورلنك وأضراب التتر. أوَ ليست فرنسة «امنا الحنون» كما يدعوها الموارنة «هي التي تسمر لنا الطيبات – بالمذابح!» (ص: ١٠٣) وتستخدمنا لاغراضها كما كانت تستخدمنا الدولة العثمانية» (ص: ١١٠) لله درك يا ريحاني ما اطيب عواطفك نحو الدولة المنتدبة!

* * *

لا يألو الريحاني جهداً في الاشادة بذكر الوهابيين وحميتهم الدينية (راجع تاريخ نجد) لكن صدره موغر حقداً على معتقدات مواطنيه، فالايمان والخرافات عنده سيان.

على ان مجد سورية الفذ هو انها مهد التوحيد. اما الريحاني فقد انكر على سورية مجدها السامي ونسب اليه كوارثها وبلاياها. ولما لاح له شبح الانبياء والرسل، حاملي لواء المدنية بين البشر، غطى وجهه بكفيه وضرب عنهم صفحاً «لانهم بلبلوا نصف العالم» (ص: ٤). اما الديانة التي استثارت كمين بغضائه فهي الديانة المسيحية التي بشر بها «بولس العبراني، احد تلاميذ يسوع الناصري» [كذا] (ص: ٢٩) – ذلك ما انتهى اليه الريحاني في ميدان الفلسفة

اما السياسة فقد سبر غورها وحكم فيه لعهد الخلفاء الراشدين بالجهل والكفال. ودعا من ثم مواطنيه ليغتاروا في «ذلك الينبوع الانساني الذي تفجر بمكة، ينبوع العدل والاخاء والمساواة» (ص: ٧٦) ويا ليته قرأ سيرة عمر بن عبد العزيز بطبعتها النفيسة التي نشرها احمد عُبَيد، لوجد فيها (ص: ١١١، ١٣٢) كيف كان ابو بكر يعامل العرب اذا ما خطر على بالهم ان يرتأوا رأياً غير رأيه في مبادي العدل والمساواة «فانتزع [ابو بكر الصديق] السيوف من اغمادها، واوقد النيران في شعلها، وركب بحق الله في اكتاف اهل الباطل، فما برح يخرق اعراضهم، ويسقي الارض من دمائهم حتى ادخلهم في الباب

الذي خرجوا منه »

واذا اضاف الريحاني الى هذه الاخبار ما جاء مثلها في كتاب الاغاني (٦٨,٦٧,١٤) لتعلم كيف كان خالد بن الوليد يفهم الاخاء، وكيف كان ابو بكر يشمله بجاهه وسلطانه. عصر الخلفاء الراشدين! ويا له من عصر ذهبي! والخلفاء الراشدون اربعة ثلاثة منهم هلكوا اغتيالاً؛ فتباً لها من مساواة بالموت الاحمر. وقد عدّوا بين الخلفاء الراشدين خامسهم عمر بن عبد العزيز وهو الذي امر بألّا يوقر الجمل باكثر من ثقل ٦٠٠ رطل وحبذا الرفق رفقه بالبهائم؛ اما حنانه على مواطنيه فاليك عنوانه :

« كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله (راجع سيرة عمر بن عبد العزيز ص: ١٦٥–١٦٦) : وانظر فلا يركبنّ نصرانيٌّ على سرج وبركبوا بالاكف، ولا تركبنّ امرأة من نسائهم راحلة وليكن مركبها على إكاف، ولا يفحجوا على الدواب، وليدخلوا ارجلهم من جانب واحد، وتقدم في ذلك الى عمالك حيث كانوا. واكتب اليهم كتاباً في ذلك بالتشديد واكفنيه، ولا قوة الا بالله »

وكتب عمر بن عبد العزيز الى الآفاق :

« ان لا يمشينّ نصراني الا مفروق الناصية، ولا يلبس قباء، ولا يمش إلّا بترتار من جلود، ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خدمة، ولا نعلًا لها عذبة، ولا يوجدنّ في بيته سلاح »

* * *

قال الشاعر النجاشي : (١

« وما فيَّ من خير وشرّ، فانما سجية آبائي، وفضل جدودي
هم الفرع، فرعي منهم متفرّع وعودهم، عند الحوادث، عودي»

من اي فرع تفرّع الريحاني؟ انه لأدرى بالامر منا. على انه وضع لكتابه نتيجة وعبرة وهذه هي : يجب فك الاجداد ونبذ القديم والاعراض عن عصور الجهل والغباوة التي سبقت النكبات. وخلع نير « المعمّمين والمقلنسين » فلا ننقاد لرجال الانتداب « ولا نرضى بخيال الجمهورية » (١١٠–١١١)

تلك هي نتيجة حملة الريحاني وجهاده وبئس النتيجة، بعد المقدمات. الم يعلن على رؤوس الملا ان السوريين خلقوا للعبودية الدائمة وهم عاجزون على حكم انفسهم بانفسهم

١) راجع حماسة البحتري طبعة شيخو، عدد: ١١٧٢)

« وهم متحذرون من اولئك الذين كانوا في الماضي يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج » (ص: ١١٢) فلماذا يدعونا الى الحكم الذاتي ؟ لماذا ؟ لانه تقدم الينا وبيده الدواء الشافي ، ولسان حاله يقول : اقرأوا الريحانيات ، وتصفحوا النكبات ، فتجدوا السبيل الى النجاة . وان لم تجدوا الضالة المنشودة فحدثوا انفسكم بالمعجزات تروها ، والخوارق تبصروها ، اذا حلّ الوهابيون البلاد ، وفي طليعتهم ابن سعود ، عمر الثاني ، سلطان العباد ، ومن عن يمينه وزيره الاوحد ، الاستاذ الكبير ؟

لقد زلزلت الارض زلزالها ، وزحف جيش الجراد على ربوعنا بعدده وعديده ، وامحلت الارياف ، وقلت محاصيلها . تلك كانت نكبات هذا العام ، ولم يخطر قط في بالنا ان الريحاني يزيدنا نكبة على النكبات

امَّية بن ابي الصَلْت

بقلم الاديب ميشيل سليم كميد

ذهب قوم يعرفون شعر امية
وكذاك اندراس الكلام .
(الحجاج)

٢

.. ينظر امية الى الله كمكافئ فقط ، فلا يذكر في شعره سوى عفوه ورحمته واما عدله تعالى فلا يذكره ، قال ، وهو يجود بنفسه :

إن تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمَّا ؛ وايُّ عبدٍ لك لا ألمَّا !

فهو يتوسل اليه تعالى ان يغفر لهُ ذنوبه ، وها هو هنا يظهر لنا « ليس نبياً كمحمد بل كمعلم ديني ، يؤمل مكافأة ربه فقط ، الذي لا يخدم هو سواه بقية ايامه ، قال :

ولسوف يبنى ما اقول مباشرٌ ولسوف يذكره الذي لا يزهدُ

فأغفر لعبدٍ ان اول ذنبه   شرب وايارُ يشاركها دَدُ (١

وهنا ايضاً في هذين البيتين يطلب غفران ربه مع بركة خالقه عليه وعلى بنيه واملاكه :

واني لو سبّحتُ باسمك ربّنا   لاكثر إلا ما غفرت خطائيا
فربُّ العباد الق سيباً ورحمة   عليَّ، وبارك في بنيَّ وماليا

وفي شعره الشيء الكثير من اخبار وحوادث ورد ذكرها في التوراة، يصفها احسن وصف ، قال يذكر قصة تضحية ابراهيم لابنه اسحق :

ولابراهيم المُوفّي بالنـذ   رِ احتساباً ، وحامل الاجزالِ
بكرِهِ لم يكن ليصبر عنه ،   أو يراه في معشر اقتالِ
ابنيَّ اني نذرتك لله م   شحيطاً ، فاصبر ، فدى لك حالي!
واشدُدِ الصفد لا احيد عن م   السكين حَيْن الأسير ذي الاغلالِ
وله مُديَة تخايل في اللّحم م   خُذامٌ ، حنيّةٌ كالهلالِ
بينا يخلعُ السرابيل عنه   فكّه ربّه بكبشٍ جُلالِ
فخذن ذا ، فارسل ابنك اني   للذي قد فعلتما ، غيرُ قالِ
والـدٌ يتقي ، واخرُ مولو   دٌ ، فطارا منه بسمعٍ فعّالِ
ربما تجزعُ النفوسُ من الامر م   له فرجةٌ كحلّ العقالِ

وقال يصف قصة لوط ، وخراب سدوم ، وما حلّ باهلها من العذاب جزاء اعمالهم :

ثم لوطٌ اخو سدُومٍ ، اتاها   اذ اتاها برشدها وهداها
راوَدُوه عن ضيفه ثمّ قالوا :   « قد نهيناك ان تقيم قراها »
عرَضَ الشيخُ عند ذاك بناتٍ   كظباءٍ باجرعٍ ترعاها
غضب القومُ عند ذاك وقالوا :   « ايها الشيخُ ا خطبةً نأباها »
أجمع القوم امرهم ، وعجوز   خيّب الله سعيها ورجاها .
ارسل الله عند ذاك عذاباً   جعل الارض سُفلها اعلاها .
ورماها بحاصبٍ ، ثم طينٍ   ذي حروفٍ مسوَّمٍ ، إذ رماها .

1) Rev. E. Power : Ummayya ibn Abi-s-Ṣalt (Mélanges de la Faculté Orientale) Tome I - P. 198

رابعاً الملائكة

يكثر امية من ذكر الملائكة . فيصف رتبهم ويميّز بين طبقاتهم ، وهذا ينبئنا انهُ درس التوراة والانجيل درساً جيّداً ، كما يجب على كل مسيحي حق، ولكنه يصوّرهم كالبشر ، لولا قدرة العلي لتعبوا من الوقوف وسئموا من كثرة التسبيح والتمجيد.

ملائكةٌ اقدامهم تحت عرشه ، بكفّيهِ لولا الله ،كلّوا وابلدوا
قيامٌ على الاقدام عانين تحته فرائصُهم من شدّة الخوف تُرعدُ

وان لهم اجنحة كأجنحة النعام تحملهم مسافاة شاسعة بسرعة الرياح:

نضوا باجنحةٍ فلم يتواكلوا لا مبطيء منهم ولا مستوغدِ

ثم يذكر خدمتهم عنده تعالى ، وانها على العموم رقّ اجباري ، وان بعضهم تمرّد عليه عزّ وجلّ ، فذللوا ، وهم يحرسون السموات ، التي كان امية ينظر اليها ويحدنها كجدران عالية بنيت حول الحصن الذي يسكنه العليّ ، وان حرابهم ما هي الّا النجوم الشواهب بها الاباليس ، وعند اشتباكهم في حرب مع الشياطين ، يظفرون اذا ما تضامنوا ، (١

يتنابه المتصفّون بحجرةٍ في الفِ الفٍ من ملائك تُحشدُ
رسل يجوبون السماء بأمرهِ لا ينظرون ثواء من يتقصّدُ
فيهم كأوب الريح بينا ادبرت رجعت بوادي وجهها لا تُكرَدُ
حدٌ مناكبهم على اكتافهم زفٌ يزفُّ بهم اذا ما استنجدوا
واذا تلاينذ الإله تماونوا غلبوا ،ونشّطهم جناحٌ متسدُ

وذكر امية ايضاً الملائكة الموكلين بالمخلوقات السفلى ، قال :

وتحت كثيف الماء في باطن الثرى ملائكةٌ تنحطُّ فيه وتسمعُ

وكما ذكر الملائكة الذين في خدمة الله كذلك ذكر الملائكة الذين عصوه ، فاذلّهم والقاهم في جهنم النار جزاء عصيانهم ، قال يذكر جهنم والشياطين :

---

1) Rev. E. Power: Ummayya ibn Abi-s-Ṣalt. M. F. O. t. I. p. 203

وفيها من عباد الله قومٌ ملائك ذُلّلوا وهمُ صعابُ

ثم ذكر كيف ذلّلهم بتلك النجوم الشواهب التي القيت عليهم من السماء :

وترى شياطيناً تروغُ مُضاعةً ورواغُها صعبٌ اذا ما يُطردُ
تُلقى عليها من السماء مذلّةٌ وكواكبٌ تُرمى بها فتعرّدُ

امية والنبي

ولما ظهر الاسلام كان اميّة من اكبر مقاوميه والدّ اعدائه، فمال الى قريش وانضمّ الى مخالفيه ، وقاوم محمّدًا ما امكنه زمناً طويلاً ، وقيل انهُ اخذ بنتيه وهرب بهما الى اقصى اليمن ، ولبث هناك يترقب الفرص الى ان عاد الى الطائف فكان يحرض بني قريش على ان يقاوموا النبي ، وسافر الى الشام . ولما عاد الى الحجاز عقب وقعة بدر الشهيرة ، مر بالقليب فقيل لهُ ان فيه قتلى بدر ، ومنهم عتبة وشيبة ابنا خاله ربيعة ، فنزل عن راحلته وجدع اذنيها ، ثم قال قصيدته الشهيرة يرثي من قُتل ببدر ، ويحرّض قريشاً على اخذ الثار وغسل العار :

ألا بكيتَ على الكرا مِ بني الكرامِ أولي الممادحْ
كَبُكا الحمامِ على فُرُو عِ الأيكِ في الغصُن الجوانحْ
يبكين حرّى مستكينا تٍ يَرُحن مع الرّوائحْ
من يبكهم يبكِ على حزنٍ ويصدُق كلُّ مادحْ
من ذا ببدرٍ فالعقنقلِ م من مرازبةٍ جحاجحْ
فمدافعِ البرقين ، فالحنا ن ، من طرف الاواشحْ
شمطٍ وشبّانٍ بها م ليلٍ مغاوير دحادحْ

وهكذا الى آخر القصيدة وهي على هذا النمط ، ولهُ غير هذه شعر كثير . غير ان المسلمين سكتوا عن كل قصيدة فيها تعريض بالنبي وصحبه ، وهذا ابن هشام يقول : « تركنا منها (من هذه القصيدة) بيتين نال فيهما من اصحاب الرسول » وكم هناك من قصيدة طواها الغيب ، وكم من اقوال ادركها النسيان . فنستدل ان المحو قد تمدّد في اكثر شعره ، حتى فقد وعفت آثاره ، لانه قد

وقف من محمد موقف العداء وحرض عليه وأيد خصومه ، ورثى صرعى موقعة بدر وغيرهم من مخالفيه. ومما يزيدنا ثقة ، ان الحجاج قال: «ذهب قوم يعرفون شعر امية ، وكذلك اندراس الكلام» فضاع ما ضاع ، وبقي لنا بضعة ابيات شعر وان تكن غير كثيرة فهي تدلنا في اي مرتبة يمكننا ان نضع اميّة ، وما هي قيمة شعره ، وتفيدنا ايضاً في تفهم كثير من احوال الجاهلية ، عند ظهور الاسلام.

وظلّ امية مثابراً على خصومة النبي الى وفاته يحض قريشاً على الاخذ بالثأر ويقاومه كل ما دعت الحاجة ، ولما مرض مرضه الذي قضى به ، جعل يقول: «قد دنا اجلي! وهذه المرضة منيّتي وانا اعلم ان الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد» وعليه تراه لبث الى آخر نسمة من حياته ، وهو يشاكس نبي الاسلام ويناصبه العداء! فكيف اذاً نرجو أن نحصل على كثير من شعره!

هذا ما بقي لنا من اخباره ، وشعره ، التي سلمت من الضياع ، وعبث الزمان ، وانما ابقي عليها لغاية من الغايات ، أو تناقله اعداء محمد.

وكان نبيّ المسلمين يميل لشعر اميّة دون شعر باقي اعدائه ، وكان يقول اذ يسمعه : «كاد اميّة يسلم» لان اميّة كان ، كما بيّنا ، يبتعد كثيراً من ذكر الاصنام ، فليس يُشتم من وراء شعره رائحة الشرك ، ولكن النبي مع ذلك نهى عن مذاكرة شعره ، الذي يتعرّض فيه الشاعر له أو لدينه.

* * *

وحسبنا ان نعلم ، وفيما اوردناه الكفاية ، ان اميّة كان من افذاذ الشعراء في الجاهلية واوائل ظهور الاسلام، فهو وان اختلفت في تقديره الرواة وبكمت عنه الادباء ، فلا بد ان يتبوأ يوماً ما مركزه بين شعراء زمانه.

صفحة من تاريخ لبنان

تبرير النصارى

مما نسب اليهم في حوادث سنة ١٨٦٠

نشرها حضرة الاب لويس بليبل اللبناني

تمهيد

انه في اثناء بحثي في اوراق دير سيدة لويزة ' في سنة ١٩٠٨ 'للاستعانة بمحتوياتها على وضع تاريخ الرهبانية اللبنانية ' عثرت على كتابة عنوانها « تبرير النصارى » من تبعة حوادث سنة الستين المحزنة ' بدون امضاء . فطالعتها بامعان وتروٍ ' ومع انها خارجة عن موضوعي ؛ فلم اهمل نسخها . انما لم اشأ نشرها لاسباب قد زالت الآن . وما المقصود من نشرها الآ العبرة والذكرى . الّا انني بمطالعتي « المحررات السياسية » للمرحومين الشهيدين الشيخين فيليب وفريد الخازن ' قرأت فيها ان الكولونل روز الانكليزي ' ومتمدي دولة انكلترة وخورشيد باشا والي ايالة صيدا (١ قد اتهموا المطران طوبيا عون ' مطران بيروت الماروني ' انه هو نفسه مسبب حوادث سنة الستين المؤلمة . والظاهر ان التهمة قد شاعت في تلك الايام ' فتألفت هذه الكتابة دفاعاً عن المطران طوبيا وتكذيباً لملفقها . وبهذا الدفاع وقعت التهمة ثابتةً على زعماء الطائفة الدرزية ' وعلى رجال الحكومة العثمانية وعساكرها

ان عنوان الكتابة ونسق كتابتها يفيد على الظاهر انها لتبرير المطران طوبيا ' وان القصد منها تبرير النصارى من تبعة تلك الحوادث المشؤومة . ولكن يرجح القارئ المتأمل ان مؤلفها هو المطران المومأ اليه ' او انها على الاقل قد تألفت باشارته ' وغايتها تبريره من الوصمة التي الحقت به ' وتبرير النصارى معه ؛ وكان الكولونل روز ومتمدي دولة انكلترة وخورشيد باشا وخلافهم ممن ورد ذكرهم اعلاه لم يتهموا كل النصارى وبالخصوص الموارنة ' بل حصروا تهمتهم بالمطران طوبيا واحياناً بالاكليروس الماروني

ولما كان قارئ ما جاء في المحررات السياسية المرقومة قد يتداخله الريب بشأن مسلك المطران طوبيا والاكليروس الماروني ويحمله على تصديق تلك التهم ' رأيت ان انشر هذه الكتابة كصفحة تاريخية اخدم بها الحقيقة التي قد تشوهها اغراض ومقاصد سياسية

---

١) مجلد ٢ ' صفحة ١٦

ثم ان ابناء الوطن يستفيدون منها اعتبارات مفيدة ترشدهم الى سواء السبيل اذ يرون اننا بتهوّرنا في تلك الحوادث المحزنة المشؤومة قد خدمنا مطامع ومآرب رجال حكومة تلك الايام العاملة بمبدأ «فرّق تسُدْ» فجلبنا على نفوسنا وعلى بلادنا وقوميتنا الخراب والويلات وحزازات شقينا بها، ولا تزال حتى الآن نجني من ثمارها المرّة . . . وقد اوردت الدفاع بحرفه لاحفظ له قوته الاب لويس بليبل اللبناني

تبرير النصارى

انه قد تسامع انه في احدى المفاوضات التي صارت في ديوان لوندرا العالي ان احد الوزرا العظام تكلم بصراحة : ان انشا الملحمة الكبرى التي صارت في سورية على النصارى كان من الموارنة بتحريك اكليرسهم واخصهم مطران بيروت (طوبيا عون) (١ فيا للعجب من الغرض البشري كيف انه ينتصر على صاحبه ولو مهما كان حكيماً وشريفاً ويستقيده بهذا المقدار حتى الى تصديق من يريد ان يشجب البري ويبرر المجرم بجرائم فظيعة كما ترى في هذا الموضوع الذي شهرته اعطت البرهانات الساطعة بان المتهومين المومى اليهم ليس فقط هم ابرياء من هذه التهمة الشنيعة بل انهم مظلومين ومجني عليهم جناية فظيعة فكان الخليق بهذا الرجل الشريف الحكيم ان يرفض قبول تهمة مثل هذه كاذبة ويوافق الرجل الشريف الصادق المستر نابيه (٢ الذي حكم بصراحة ان انكلترة هي بالوجه الاول علّة هذه الملاحم عندما في سنة ١٨٤٠ انتشت من الدولة العثمانيّة فاستخلصت سورية من يد الحكومة المصرية العادلة وقسمت حكومة جبل لبنان الى قائمقاميتين ودفعت المسيحيين المختلطين واخصهم الموارنة غنيمةً للدروز وسلّمت سورية وبالتالي قدمت نصاراها ضحايا للدولة العثمانية فكانت هذه الدولة هي العلّة الثانية لهذه الملاحم المريعة . وهكذا كان هتاف غالب اصوات شعب انكلترة بخلاف ما تكلّم فيه ضد الموارنة الوزير الجليل المشار اليه أخذ عن ذوي غرض ذاتي . ولكي نقدم للنصارى البراهين الساطعة على ذلك فنقول:

---

١) المحررات السياسية : المجلد ٢ ، صفحة ٢٩١

٢) المحررات : المجلد ٢ ، صفحة ٢٨٩

انه ما عدا الفتك الذريع الذي صار في النصارى في لبنان سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ بانغشاش الدولة الاولى (انكلترة) ومساعدة ودسائس الدولة الثانية (تركية) عندما سمحت للدروز بمحاربة الامير بشير قاسم الشهابي وخلعه من حكومة جبل لبنان مع كونها هي قدمته لهذه الحكومة بدل تعلقه بها ولم يكن له جنحة سوى مضاددته المدروز اصدقائها الجدد (١ فان الدروز من ذلك الحين الى الآن قد استعبدوا النصارى واسترقوهم استرقاقاً لا نظير له . الّا ان كان في زمان فرعون مصر . لانهم اي الدروز وعلى الخصوص مشايخهم اصحاب المأمورية واخصهم سعيد بك جنبلاط قد ارتكبوا ضد النصارى جميع المنكرات من قتل نفوس وسبي حريم (عرض) ظاهر على وجه الغصب وسلب اموال وموجودات وضبط املاك باوقات عديدة ومتفرقة دون انقطاع بنوع لا يحصى وكل ذلك كان يتعرض بوقته لجانب الحكومة باطلاع قونسلاتو انكلترة وما كانت تحصل ادنى مساعدة لاباستحصال الماضي ولا بالمنع عن المستقبل

* * *

الّا انهُ في ١٤ آب سنة ١٨٥٩ اكمن الدروز كميناً في قرية بيت مري لاجل سبب جزئي تسبّب منهم فاثاروا حرباً ضد نصاراها بعدان كان السيد طوبيا امطران بيروت المجني عليه افرغ كل جهده بمنع هذه المحاربة واجتمع بالدروز مرتين وارتضوا منه ان يأخذ اليهم الغريم الواقع منه السبب لتصير المصالحة ويصير منع الحرب ولما اتم السيد المومى اليه اخذ الغريم نحوهم وصار قريباً اليهم فتحوا الحرب في وجهه وكاد الرصاص ان يصيبه فيقتل غدراً . وعمل سيادته هذا اقرّ به الدروز انفسهم امام الحكومة وامام قناصل الدول الفخيمة وحاز المدحة واسمه الشريف دائماً ازداد شرفاً جديداً . ولما بسبب هذا الحرب ارتكب الشيخ يوسف عبدالملك احد مقاطعجية جبة الدروز جهلاً ما سبقه اليه احد اذ انه في ثاني يوم من هذه الحرب جمع دروز مقاطعته وسطى بهم على بعض قرى النصارى وبعض اديرة في قائمقامية النصارى وشتت شملها ونهبها وحرقها جميعها ومزّق الايقونات ودنّس الاقداس . عند ذلك تحركت ركاب مشير الايالة (صيدا) خورشيد باشا بالقيام

١) المحررات : مجلد ١ ، صفحة ٧٣٠

مع العسكر الى خان الديرج مظهرًا قصده بربط يوسف عبد الملك واجرا قانون الجزا بحقه لاستحصال كامل حقوق النصارى وثمن محروقاتهم . الّا انه بعد ان وصل الى المركز المذكور واجتمع بالقائمقام ومقاطعجية جبة الدروز تغير قصده هذا وقبل عنده يوسف عبد الملك بكل اكرام وبعد ذلك انعم عليه بوظيفة محافظ طريق الشام وعيّن تحت يده جانب من الخيالة وضمّد جرحات هذه الفتنة على فساد ولم يستحصل من حقوق النصارى شيئاً يذكر . فحضر عند ذلك المطران طوبيا المومى اليه ادى دولته وعرض لديه دفعات متعددة ان الصمت عن قصاص المذنبين مثل يوسف عبد الملك تقودهم ومن مثلهم الى الطمع بارتكاب حركات فاسدة اعظم مما صار بنوع يوصل الى سلب راحة الاهالي وازعاج الحكومة من هذا السبب . فالوالي ما اعطى التفاتاً الى هذه النصيحة العادلة بل اظهر جفاء الى السيد المشار اليه فالتزم ان يظهر فكره هذا الى جناب قنصل جنرال دولة فرنسة وقنصل جنرال دولة اوستريا الفخيمتين وكلاهما صادقا سيادته على رأيه وتكلما مع الوالي عند ذلك بشدة كلية . اما هو فاحتال عليها بالوعود الفارغة وازداد حنقه على السيد المشار اليه لانه كشف له ما سيصير قبل وقته كما صار ذلك بالعمل دون ابطاء لانه في شهر تشرين من السنة المذكورة توجه خطار بك العماد احد مقاطعجية جبة الدروز الى جهات حاصبيا واقام هناك عدة اشهر يحرّك دروزها القيام على النصارى . اما هم اي الدروز المشار اليهم لم يتأخروا عن ان يجاوبوا مقصده هذا الرديّ بل اثاروا حالًا حرباً ضد اولئك النصارى الّا انهم لم ينجحوا لان الحكومة لم تساعدهم بجنبه مساعدة ظاهرة كما فعلت ذلك فيما بعد حيث لم تكن عقدت بعد تلك الرابطة التي عقدتها فيما بعد في اوائل شهر آذار سنة ١٨٦٠ لانه في الوقت عقد احمد باشا سر عسكر اسبق جمعية سرية في الشام موافقة منه ومن طاهر باشا فريق العساكر ومن ارباب دولته العسكرية ومن بعض ذوات مسلمي الشام وكان موضوع الاجتماع ارتباط المسلمين مع الدروز وباقي الامم ضد نصارى سورية وقد اشترك في هذه الجمعية ايضاً خورشيد باشا مشير ايالة صيدا لانه ارسل بالنيابة عنه احمد افندي الصيداوي المشهور بالفساد الّا انه بالحال وصل خبر هذه الجمعية بظروفها من احد ذواتها

الى قنصلاتو فرنسة الجنرال الكونت بنتيفوليو فكتب عن ذلك حالاً الى حكومته كما ولا بد ان قنصلاتو دمشق تكون فعلت ذلك. ومن دون ابطاء ابتدأت تظهر العلامات المؤكدة لما صار بهذا الاجتماع الردي لانه في ١٩ منه انوجد الخوري اثناسيوس نموم رئيس دير عميق الروم الكاثوليك مقتولاً على مضجعه ومنهوبة موجوداته من اوضته من دراهم نقود وغير ذلك وقد تقرر ان القاتلين هم دروز من عزوة بشير بك نكد وقد فعلوا ذلك باذنه وهو الذي اخذ المال لان هذا المقتول كان متمولاً. وانعرض امر ذلك الى الوالي وكان من جملة العارضين السيد طوبيا المومى اليه الذي ما تأخر قط عن ان يذكر الوالي ان هذا السبب هو من جملة الاسباب التي قال له عنها التي تمهد الى حركات الفساد. اما الوالي فوعد بمسك القاتلين ولما لم يفعل الوالي شيئاً حضر احد مأموري الدروز وتعهد للسيد المومى اليه انه هو يمسك القاتلين ان قلدته ذلك الحكومة وسيادته قرر هذا الخصوص الى قنصل جنرال فرنسة فالقنصل طلب من الوالي ان يقلد هذا المأمور مسك القاتلين فلم يفعل. ثم بعد ذلك بمدة قليلة رجل درزي من عيناب قتل ظاهراً وعمداً على سكة كوسة الشام رجلاً نصرانياً من العبادية واحتمى هذا القاتل عند الشيخ سعيد تلحوق الذي لم يشا ان يسلمه للحكومة بزعمه لاحد معتبري الفرنسيس انه غير جائز له ديناً ان يسلم قاتل للقتل. واما الحكومة فلم تجبره على ذلك. وفي ٢٦ نيسان توجه رجلان درزيان من بعقلين ودرزي ثالث من جهات حاصبيا الى خان محمد بك شبيب متوالي من اقليم الشومار وقتلوا فيه عمداً وغدراً نفرين وقطعوا يد ثالث وجرحوا الرابع وجميعهم نصارى من قيتولي التابعة اقليم جزين من مأمورية سعيد بك جنبلاط وانعرض بذلك الى الوالي فلم يسأل عن شي. لا هو ولا المأمور المذكور. ثم في ١٤ ايار انوجد قتيلان من دروز الشوف مقتولان بالقرب من صيدا وتقرر ان القاتلين من متاولة اقليم الشومار اخذاً بثأر ما فعله الدروز في خان محمد علي المومى اليه فدروز الشوف من مأمورية سعيد بك جنبلاط هاجوا وماجوا وفي ١٥ شهره شهروا بيارق الحرب وابتدوا بالتحورب والحذر واطلاق البارود على سماع ومعاينة مأمورهم سعيد بك المومى اليه القريب منهم. وبمعرفته قتلوا بالوقت ذاته الخوري يوحنا

الخوري وبطرس الصايغ من بتدين اللقش وانطون ابراهيم الحجار من جزين وفرنسيس ميلان من القبع ومنعوا اهلهم من دفن جثثهم وربطوا الطريق على اهالي اقليم جزين وعلى اهالي دير القمر حتى لم يعد يمكن لاحد منهم الخروج خارجاً . وسعيد بك المأمور المار ذكره بعد ان انعرض له عن ذلك كله فليس فقط انه لم يسأل بل انه ارسل من قبله ايضاً قاسم يوسف حماده ربط طريق البحر من جهة صيدا بجمهور من الدروز والاسلام . وفي ٢٤ منه قتل دروز بشير بك نكد فارس خليل ابي سعيد من نصارى معلقة الدامور . وفي ٢٧ منه قتل دروز التينه الياس غنطوس من اوجه نصارى عبيه في بيته جهراً وعمداً بوجود المأمور نفسه في القرية المذكورة وبالنهار ذاته حرقوا دروز عرامون من مقاطعة قائمقام الدروز مزرعة عين درافيل التابعة الامرا اولاد الامير قعدان شهاب واتلفوا كلما فيها مع دود القزّ بعد ان نهبوها وكل ذلك انعرض على الوالي ودولته لم يسأل عن شي . ثم اشتدت المضايقة على النصارى من كامل مقاطعجية جبة الدروز وعلى الخصوص من سعيد بك جنبلاط وخطار بك العماد وبشير بك نكد واخذوا بنزع السلاح من النصارى والذي لم يسلم سلاحه قتلوه والذي امكنه فرّ هارباً الى زحلة نهبوا بيته واحرقوه . فارتعبت من ذلك قلوب النصارى المختلطين لانهم شاهدوا الموت باعينهم وان الذي يسلم من الموت بالسيف يموت جوعاً . فحرروا الكتابات لاخوتهم النصارى الغير المختلطين ليتبصروا باستخلاصهم من هذه الحالة ومن الجملة حرر اهالي زحلة ودير القمر واقليم جزين الى سيادة المطران طوبيا المومى اليه لكي يساعدهم امام الحكومة وامام قناصل جنرالية الدول الفخيمة لكي تمكنهم النجاة من الموت . اما سيادته فجاوبهم محرضاً اياهم على الابتعاد عن كل حركة فساد وان يكونوا متيقظين على انفسهم فقط وتوجه لدى الحكومة مرات متعددة يلتمس فيها ارسال عسكر الى جهة دير القمر والشوف ويفتح طريق بوجه النصارى ويرفع المضايقة عنهم لكيلا يهلكوا جوعاً .

ومثل ذلك قرر للقناصل وهم قرروا للوالي الذي كان يجاوبهم بالوعود الفارغة التي اعتاد عليها من دون ادنى عمل ما عدا تشديد للدروز وامدادهم بالقوة سراً . واما اهالي كسروان فلما بلغتهم اخبار اخوتهم الحاصلين عليها بهذا

الضيق حضر منهم نحو اربعماية نفر الى بعبدا محلة النصارى لاجل المكاشفة على اخوتهم فلما بلغ خبرهم الى الوالي امتلا غضباً ضد النصارى . وفي ٢٨ منه جمع اليه المجلس الكبير ومجلس التحقيق وبعض ذوات الاسلام واحضر ايضاً في هذا المجلس سيادة مطران بيروت المومى اليه وطلب من المجلس مضبطة في ضرب النصارى الحاضرين من كسروان فاعرض المطران لدولته بحضور هذا المجلس الحافل ان هؤلاء النصارى ليس لهم قصد ان يفتحوا حرباً مع الدروز بل قصدهم ان يدافعوا عن اخوتهم الذين صار عليهم غدر وانه هو يتعهد لدولته بمنع النصارى عن فتوح ادنى حرب بشرط ان دولته يهتم بمنع مضايقة الدروز عن النصارى وبارسال عسكر الى جهات دير القمر وجزين لفتح طريق للنصارى . فدولته وعد بذلك وكان وعده كوعوده السابقة . فسيادته حرر النصح المشدد على نصارى كسروان لكي يرجعوا من بعيد الى الوراء ودولته اصدر امراً بهذا المعنى عن يد منصور افندي التيان وامين رمضان . الّا ان دولته لم يتوقف عن الفعل بل انه في ثاني يوم الواقع في ٢٩ منه تحرك ركابه بالعساكر الشاهانية بالقيام الى محطة الحازمية الواقعة بالقرب من بعبدا ليكون هناك في وجه النصارى ويمنعهم عن مساعدة اخوتهم وترك الدروز براح مطلقاً ففي هذا النهار عند الضحى نزل دروز كفرنبرخ وعلى روسهم مشايخهم بيت عماد واحرقوا مزرعة معاصر بيت الدين بما فيها من دود القز بعد ان نهبوها وبقيت دروز العرقوب مع دروز الجرد وعلى روسهم خطار بك العماد ومشايخ بيت عبد الملك توجهوا الى قب الياس وفتحوا حرباً مع اهالي زحلة وانتهوا الى ضهر البيدر . وعند المساء اجتمع دروز المبيدية وبقية دروز المتن الى بيت مري وفتحوا مع دروزها حرباً على نصاراها بتحريك ابراهيم آغا محافظ المحل بامر الوالي وهو مع عسكره الموظف كان البادي باشارة الحرب والحريق واول محل احرقه هو دار الامير سعيد الذي كان مشتاقاً له . وعند ذلك صارت المقابلة من النصارى باحراق محلات الدروز . وفي صباح اليوم الثاني الواقع في ٣٠ منه رجع انفار كسروان من بعبدا امتثالاً لامر دولته وبنصح وانذار سيادة المطران طوبيا وكان ذلك بمشاهدة دولته لوجوده بالقرب . وصار التطمين من دولته لاهالي بعبدا وبقيت

اهالي الساحل فتوجهوا لاشغالهم آمنين. واذ ذاك بعد مرور ساعتين وثبت عليهم الدروز باشارة من دولته وقائمقام الدروز ورجال مقاطعته من جهة الحدث والشيخ حسين تلحوق واقاربه ورجاله من جهة الوادي والشيخ محمود تلحوق واخوه ورجالها من جهة بعبدا . واثاروا الحرب واشترك معهم العسكر الموظف بالقتل والنهب والحريق وتمزيق الايقونات واحتقار الاديرة والكنائس وكل ذلك تحت نظر دولته القريب جدًا من هذه الفظائع ولم يأنف أنفه من اشتمام رائحة الدخان الذي غطاه وغطى عسكره مدة النهار كله حتى الى المساء وبمعاينة جميع قناصل الدول وكافة الاوروباويين وسائر سكان بيروت الذين غطاهم الدخان ايضاً. وكانوا ناظرين خراب هذه المقاطعة الواسعة الفخيمة بفعل الوالي دون كل شبهة الذي بعد ان انتهى من عمله هذا الفظيع جمع اليه مساء قائمقام ومقاطعجية جبة الدروز وشكرهم على عملهم متهللًا مسرورًا واجتمع معهم سرًا وارشدهم الى اتمام العمل واصرفهم. وفي غد ذلك اليوم توجه دولته لمقابلة قناصل الدول الخمس وطلبوا منه توقيف الحرب ومنع هذا الفتك الشنيع اما هو فجاوب بالايجاب واتخذ على ذاته عهد توقيف الدروز وهم تعهدوا بتوقيف النصارى ورجوعهم الى بيروت واتخاذهم قول دولته بمحل الصدق وقد اتخذوا هم سيادة المطران طوبيا المومى اليه مساعدًا لهم في توقيف النصارى المجتمعين للمداولة مع اخوتهم بان يقفوا بارضهم ولا يتقدموا نحو المحاربة ولا خطوة واحدة . ثم توجه سيادة المومى اليه بذاته الى محل الاجتماع وصار توقيف النصارى عن التقدم وجميعهم امتثلوا ولم يتقدم منهم احدًا الى أدنى محاربة حتى الى نهاية حرب الدروز مع النصارى المختلطين. وهذا الامر ظاهر وهو كلي الصدق خالٍ من ادنى ريب وما ذلك الّا لاخذ النصارى قول دولته بمحل الصدق واعتبارهم نصائح جناب القناصل وسيادة المومى اليه . اما الدروز فما وقفوا عند هذه الحدود بل في هذا النهار ذاته جمع خطار بك العماد والمشايخ بيت عبد الملك وغيرهم دروز العرقوب والجرد وغيرهم واثاروا حربًا على نصارى المتن مبتدئين من حمانا وفالوغا وكل جورة المتن وكل مقاطعة المتن ونهبوها مع الاديرة والكنايس والمدارس واحرقوا جميعها ومزقوا الايقونات. وفي ٣١ منه غدر قائمقام الدروز برجال الشويفات

محل حكومته بالنصارى الحاضرين من معلقة الدامور والدبيه تحت محافظته بتوصية الوالي له ولذلك عند وصولهم ليلاً مقابل الشويفات فذبح منهم نحو اربعين نفراً وجرح البقية من رجال ونساء وبنين واغتنم موجوداتهم . وهكذا اخذ الدروز بمحاربة دير القمر واقليم جزين ثم كامل محلات النصارى مع زحلة ومشهور ما فعل العسكر مع طاهر باشا في ملحمة دير القمر وبتدين وما فعله العسكر والدروز في ملحمة حاصبيا لحد ٢٢ حزيران وما فعله احمد باشا وعسكره واسلام الشام مع نصاراها من القتل والنهب والسبي وانتهاك العرض والحريق من ٩ تموز الى ١٤ منه . وما جرى قبل ذلك بنصارى القرى المجاورة الشام من مثل هذه القبائح وزد عليها اكراه جميع نصارى احدى القرى مع خوريهم على دين الاسلام وهم نصارى روم كاثوليك . وفي كل هذه المواقع كان القناصل دفعات متعددة يطلبون من دولته توقف الحرب والفتك وهو كان يسددهم مواعيد فارغة الى ان تمم كل مقاصده بالنصارى وانتهى الامر بالحكم على نصراني بري من قائمقام مشير صيدا وفتك بالبري في نفس بيروت ايجاباً لشهوة اسلامها الذين هاجوا وماجوا وطلبوا ذلك بدلاً من مسلم قتله احد الاسلام . فمن هذه التصرفات غناية للقاري المنصف العادل اذ يفتي ببراءة الموارنة واكليروسهم من هذه التهمة الشنيعة لاسيما مطران بيروت الذي انتهبت كرسيه مع كنيسته (في عين سعادة) وتمزقت ايقوناتها الشريفة الفاخرة وسلبت كل موجوداته التي لا تنقص قيمتها عن مائة وعشرين الف فرنك وكلها كانت منظورة من خورشيد باشا الذي شرف الى كرسيه ونظر اتقانه وكثير من القناصل والذوات الاوروباويين المعتبرين الذين زاروا هذا الكرسي وشاهدوا ما به من التحف والاثاث التي لم يسبق المطران المومى اليه ان نقل شيئاً منها فلو كان قصده المحاربة كما يتهمه زوراً وظلماً ذوو الاغراض المنحرفة لغاياتهم الخصوصية أما كان سبق ونقل من كرسيه اقلها يكون الاشياء الثمينة ووضعها في محل السلامة . فمن هذه المبادي التاريخية الكلية الصدق تظهر براءة الموارنة واكليروسهم واخصه المطران طوبيا ويتضح كذب هذه التهمة لهم ونسبتها حقيقة لغيرهم ١ً من كيفية بداية هذه الحركات . ٢ً من تصرفات الحكومة المار ذكرها . ٣ً من اشتراك كل الامم بهذه الحروب

ضد النصارى من اسلام وعربان واكراد ومتوالي ودروز . ٤ً من بداية هذه الحروب اولًا في حاصبيا واخيرًا في الشام حيثما الموارنة هم اقلّ عددًا . ٥ً من توقف النصارى الغير المختلطين عن التقدم الى المدافعة بعد اجتماعهم اخذًا بتعهد الوالي واعتبارًا لنصح المطران المومى اليهِ عن رأي القناصل حتى تمكنت الامم من اخوتهم النصارى المختلطين وصيروهم ملحمة . اخيرًا من معنى التحرير المقدم من المطران طوبيا الى القناصل الخمس الجنرالية وهم انكلترة وبروسية واوستريا (النمسة) وفرنسة وروسية في ٥ حزيران سنة ١٨٦٠ وهذه صورته :

انه في مواجهتنا التي صارت مع سعادتكم بموجب استدعائكم وذلك بعد مقابلتكم مع دولة المشير المعظم في سحرا الحازمية قد فهمنا من نفس سعادتكم كمن فمٍ واحد ان نتيجة مذاكرات سعادتكم مع دولته في المواجهة المشار اليها هو ان دولته من صميم رحمته اتخذ على ذاتهِ الشريفة توقيف طائفة الدروز عن التقدم الى المحاربة من جديد وعن القتل والسلب والتلف وحريق الاماكن وكلَّف سعادتكم توقيف النصارى عند هذه الحدود لكي يصير فيما بعد عقد صلح واصلاح ما مضى بموجب القوانين العادلة الموصّلة لكل ذي حقٍ حقه والمانحة الراحة والاستراحة . ومن ثم طلبتم منا بكل صراحة قوية وتحتيز وثيق ان نبرز كامل اهتمامنا لكي يكون النصارى ممتثلين اوامر دولته هذه الآيلة لخير العموم وموافقين لنيته الصالحة المساعدة على حجب سفك دمّ العباد والوقوف عن التقدم الى خراب البلاد وبما ان هذه النتيجة هي كلية الجودة والحسن فلا يضادوها الّا كل من كان شيطانًا ماردًا او مجنونًا فلذلك قد اوضحنا لسعادتكم بالكفاية حاساتنا المتألمة مما جرى من الحروب والخراب الماضي . وكيف ان هذه النتيجة وجدت محبوبة منا وكيف وعدنا سعادتكم وحققنا لكم اننا نبذل جهدنا ونفرغ جدنا لكي نجعل النصارى واقفين عند هذه الحدود وان جماهيرهم المتجمعة في محلات مختلفة نهتم بالّا ندعها ان تتقدم خطوة واحدة بهيئة حرب وتممنا ذلك فعلًا بارسال كتاباتنا المشدَّدة لكل الجهات ومع كون الدروز كانوا غدروا بالنصارى واستظهروا عليهم في المحاربة بجهتي المتن وساحل بيروت لاضرامهم حربًا ذريعة كانوا اضمروها بينما كانت النصارى غير قاصدين اليها

« كما كنا عرضنا لدولته مقدماً » وقد عظمت بذلك ضربة النصارى وصاروا مجبورين من قبل الحق الطبيعي والمدني ان يدافعوا ويحاموا عن انفسهم وموجوداتهم . وقد كانوا استحضروا على القوات الكافية لهذا الخصوص الجائزة لهم قانوناً ان يبرزوها . ومع ذلك لما بلغت اليهم كتاباتنا المحكي عنها عن الامر الكريم المشيري وعن افادات سعادتكم توقفوا حالاً من ذلك الحين ولم يتقدموا خطوة واحدة نحو المحاربة ولو بوجه المدافعة كما هو ظاهر وبهذا اعطوا برهاناً قوياً على حسن طاعتهم لكم واحترامهم اوامر دولته ورأي سعادتكم بخلاف الدروز الذين بعد ما اتخذ دولته توقيفهم على ذاته الشريفة قد اهانوا اوامره الكريمة وفتحوا حرباً ذريعة على دير القمر وحرقوا محلات كثيرة من اطرافها وفتحوا حرباً على جزين وكامل اقليمها وقتلوا كل من وقع في يدهم من الرجال والنساء والاطفال ثم ومن الكهنة والرهبان والراهبات واستظهروا عليها واحرقوها وشتتوا اهلها وفعلوا كذلك في الاديار والكنائس . ثم نهبوا وحرقوا محلات النصارى الخالية من السكان في الشوف والعرقوب وغربي البقاع والمنصف والجرود والشحار والمتن من ذلك الحين الى يوم تاريخه دون توقف وها هوذا الحريق منظور في شويا والعبادية بالقرب من محطة ركاب دولته وربما ان ذلك منظور منه .

فمن يمكنه ان يحتمل هذا التفاوت من الدروز بالجرأة التي تنفر منها طبيعة الانسان وعدم اهابتهم اوامر دولته غير مبالين من هذا المنظر العام الذي يشهرهم ويجعلهم مجرمين هذه الجرائم العظيمة ليس فقط امام دولته وامام سعادتكم بل امام الخاص والعام ومع ذلك لم يقفوا عند هذا الحد . ومع هذا كله فنحن موافقة لرأي البعض من سعادتكم متوجهون الان بذاتنا لكي نكمل شفاهاً ما ابتدأناه كتابة بتوقيف جماهير النصارى عند هذه الحدود وان لا يتقدموا خطوة واحدة بهيئة حرب . ويمكننا ان نؤكد لسعادتكم بكلمة الشرف التي لها فوق القسم انه كما ان عدم المحاربة هو رأينا من الابتداء هكذا الان نفرغ جهدنا بالوقوف عند هذا الحد وان كنا نتعهد بعدم التفاوت به ان يرجع الدروز عن جرأتهم الظاهرة بالحاضر . الّا انهم اذا بقوا على ما هم عليه

من القباحات والنهب والحريق فلا اكون مسئولاً عن مجاوبة النصارى ومدافعتهم القوة بالقوة التي هي بالحاضر اشد كثيرًا لان امرَ العذاب يؤْذن بخرق الحجاب. الّا اننا نتأمل من معدلة دولة افندينا المشير المعظم توقيف هؤْلاء البغاة عن بغيهم بحسن مساعي سعادتكم ويكفينا شر الزيادة وادام الله مدة بقاكم . في ٥ حزيران سنة ١٨٦٠ — الداعي لسعادتكم طوبيا عون مطران بيروت.

ان الجنرالية المشار اليهم بعد اطلاعهم على هذا التحرير واعتبارهم موافقته الكلية الصدق قرروا باجتماعهم سوية ان يتوجهوا جملة لدولة الوالي وخاطبوه بمعناه طالبين منهُ الوقوف عند تعهده اما هو فقد وعدهم بمواعيده الفارغة حسب عادته وانصرفوا. فليعتبر القارىء قائلاً: يا للعجب من الغرض البشري المنحرف لعمري ان هذه التهمة جسيمة ولو وجدت صحيحة لما امكن اوليك المنصفون القابضون بايديهم ميزان العدل ان يضربوا صفحاً عن تهمة مثل هذه سببت قتل نفوس لا يحصى عددها واهلاك اموال لا تستقصى بل كان مقتضى العدل ان يصير احقاق الحق ومجازاة كل بعمله الّا انه ما من احدٍ كبيرًا ام صغيرًا تجاسر وتكلم رسمياً ضد الاكليروس الماروني وضد مطران بيروت المشار اليه بهذه التهمة بل يوشي بقدر ما يمكنه بالسر واضعاً ذلك باذن الذين يرغبون سماع مثل هذه الاقاويل الكاذبة ضد من ذكر ليقصروا مساعيهم عن محاماة شعبهم وجنسيتهم اذ بذلك يفوز اولو الاغراض الذاتية بنوال اغراضهم لانهُ امر موكد لا ريب فيه لو وجد من يتجاسر باقامة هذه الدعوى على السيد المشار اليه وباقي الاكليروس لكان في المحاكمة يظهر محقوقاً بل مفضوحاً هو وغيره من الذين حركوه الى هذه الافعال الفظيعة فيجري بحقه في المحاكمة قانون الجزاء العادل. الّا انهُ لو صمتت اخصام الاكليروس المومى اليه عن المدعاة لفروغ دعواهم من الصحة فهم اي الموارنة لا يصمتون عما لهم من الدعاوى الصحيحة التي لا بد من اظهار صحيحها فعلاً لدى المحاكم لان الحق واحد لا يتجزأ وما اكثر ما يهم الاكليروس الماروني المحافظة على صيتهِ وشرفهِ وخصوصاً امام دولة عادلة كدولة انكلترة الفخيمة ووزيرها الشريف المشار اليه.

وليعلم القارىء الامر المعلوم لدى العالم بان الشعب الماروني لهُ تعليق قديم

وشديد مع فرنسة بهذا القدار حتى ان اعظم المصاعب والاهوال لا تقوى على ان تحلّ اوتاره ومعلوم ايضاً ان سلسلة هذا التعلق هي تحت محافظة ايدي الاكليروس الماروني وذلك لموضع الحب القديم على هذا الشعب واكليروسه بواسطة محاماتهم الدائمة دون انقطاع. فلعل هذا هو اولًا من جملة الاسباب التي حملت الوشاة ان ينقلوا هذه التهمة الكاذبة ضد الموارنة واكليروسهم لوزير انكلترة المشار اليه . والحال ان فعل الموارنة هذا هو رد الشكر وعدم الكفران بالجميل فما من منصف حكمَ نظير هذا الشريف يقاوم فعلًا حميداً ليظهر فعل الموارنة هذا. او لعل ثانياً ان مقاومة الاكليروس الماروني الشيعة البليشية(١ الاميركانية من عام ١٨٢٣ لحد الآن وارجاعها بالصوت الرعائي عن الامتداد في جبل لبنان ومنعها عن بثّ عقيدتها بين الشعب الماروني ولكن ان هذه الشيعة نَعَم انها دخلت جبل لبنان تحت حماية انكلترا الّا ان هذا الامر هو ملاحظة العقائد التي هي من حقوق الاكليروس الطبيعية وغير متعلق في الامور البوليتيكا (اي السياسة) التي تكلم بها الوزير المومى اليه ومن ثم لا يليق بعدالته ان يواخذ الاكليروس الماروني على ذلك . او لعلّ ثالثاً عدم قبول المرحوم السيد يوسف حبيش بطريرك الموارنة بمدرسة عين ورقة الرجلين الانكليزيين وذلك في اوائل حكم المصريين في سورية بموجب امر خديوي مصر وامر الامير بشير حاكم جبل لبنان . فهذا الصد من البطريرك المشار اليه مؤسس على حجج عادلة فاذاً ليست عادلة المواخذة على ذلك دون معرفة السبب. او لعلّ رابعاً واخيراً : ما كتبه الكولونل روز بمدة وجوده قنصل جنرال انكلترة في بيروت متشكياً ضد مطران بيروت المومى اليه الى وزير دولته والى السفارة في اسلامبول هو السبب لعدم رضا الوزير المرقوم عن الاكليروس الماروني. الّا ان ما كتبه الكولونل المذكور وبقية قناصل انكلترة هو ملاحظ الامور البوليتيكا التي كان يعلم مطران بيروت المومى اليه ان القناصل المومى اليهم مغشوشون بها من طرف الدولة العثمانية ولذلك مطران بيروت المشار اليه ما امكنه ان يوافقهم على هذا الغش ضد وطنه . وما هوذا

١) البليشية : يريد بها الكاتب الشيعة البروتستانية

الآن قد ظهر انغشاشهم ببراهين ساطعة ومن ذلك ينتج واضحاً ان المطران المومى اليه غير مؤاخذ بضادته هذه البوليتيكا الضارة في وطنه ومع هذا فالكولونل المومى اليه نفسه ومن خلفه في كونسلاتو انكلترة في بيروت ما انكروا ولا ينكروا حسن استقامة وتصرفات المطران المومى اليه كما يتضح هذا من المكاتبة المذكورة المطبوعة..

ولذلك فنؤمل من سعادة الوزير المشار اليه ان يغير حكمه وفكره ويصلح نيته من نحو الاكليروس الماروني عموماً وخصوصاً ويتخذ هذه البرهانات القاطعة حججاً راهنة ببراءة الاكليروس المذكور من هذه التهمة الكاذبة ويهتم من ثم الى اجابة أصوات شعب انكلترة الذي التمس منهُ دفعات متعددة ان يبادر للأخذ بثارات النصارى في سوريا ويخولهم راحتهم وامنيتهم في المستقبل مقتنعاً بما مضى من عكس تصرفات الحكومة العثمانية وادخالها الغش على دولته الفخيمة وباقي دول اوروبا متوقعاً الجازاة من العلي من يجازي كلًّا لعمله لاسيما بعد ان يسمع حلول القضاء العادل من جديد على احمد باشا سر عسكر سابق وعلى غيره من ضباط الحكومة العسكرية ونفوذ الحكم بقتلهم وسيحل ايضاً هذا الحكم بغيرهم مثل خورشيد باشا وطاهر باشا وغيرهم ومن ذلك يتأكد ان هؤلاء هم علة ملحمة سوريا الحاضرة لا الاكليروس الماروني المظلوم.

في ١٨ ايلول سنة ١٨٦٠

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

٤: دير مار ضومط فيترون

كتب خزانة الخطية (تابع)

١١ : قلائد الياقوت في واجبات الكهنوت (طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت) للبادري بطرس فروماج اليسوعي. خطهُ بالعربي القس جرجس بن حنانيا من طائفة الروم في ايام الطاعون في ١٢ حزيران سنة ١٧٣٣ وقد وقفهُ

على الرهبان الحلبية جرجس بن سركيس المكنى بابن بليط.

١٢ : كتاب « الحاوي الكبير الشريف الامجد المنسوب الى بعض الرهبان القاطنين بالجبل الاسود » تأليف الاب الفاضل نيقن الراهب البار . يحتري هذا الكتاب ٦٣ مقالة في النسكيات والتعاليم الروحية . وهو مجلدٌ ضخم وخطهُ عربي جميل ويبلغ طولاً ٣٣ س، وعرضاً ٢١ ونصف س . وقد بيّن مؤلفهُ في مقدمتهِ انهُ يوجد كتاب حاوي صغير منسوب الى بعض الآباء يسمى نتيوخس من دير القديس سابا . وهذا الحاوي الصغير عدة مقالاته ١٣٠ مقالة.

١٣ : منطق لابن العبري باللغة السريانية . خطهُ بالكلداني الراهب نعمة الاهدني في ٩ آذار سنة ٧٠٨٧ لآدم (١٥٧٩م) . وقد كتبهُ للشماس نصرالله نجل المرحوم الحاج الياس المعروف بابن المقطوع من مدينة بعلبك . ويلي ذلك مختصر في اللغة يسمى « كفاية المتحفظ » . كتبهُ بالعربي نعمه الاهدني المذكور سنة ٧٠٨٧ سنة لكون العالم (١٥٧٩م) الموافقة شهور سنة ٩٨٧هـ . وقد عُلقت عليه هذه الجملة وهي :

« وقف برسم الاخوة الحلبيّة القاطنين دير مار ليشع في بشري ودير سرت مورا في اهدن بايام رياسة قس جبرايل الحلبي سنة ١٦٩٦ »

١٤ : كتاب « بستان الرهبان » . خط كرشوني وقد وضع فهرسه القس جبرائيل فرحات سنة ١٦٩٦ على ما جاء في مقدمتهِ . ١٥ : « كتاب في الفلسفة وفي المنطق وفي علم الكلام ليوحنا القس الدمشقي . ويحتوي ٥٣ باباً وتقدمة رسالة سابقة الابواب » خط كرشوني . وقد أُضيف اليهِ بالتجليد بعض فصول من الكتاب المقدس وهو وقف الرهبان الحلبيين والقس رزق الله المرحوم بجلب سنة ١٧٤٨ . ١٦ : اعمال الرسل القديسين وهو الابركسيس المنسوب للقديس لوقا الانجيلي يُقرأ في ايام الخمسين . خط عربي قديم . ١٧ : متعبّد مار انطونيوس الكبير : صلاة المساء والستّار والليل والصبح تمت كتابته سنة ١٧٨٣.

١٨ : كتاب « عامود اسرائيل وهو كتاب الناموس . تأليف الشماس

يوحنا وهبه الدويهي المدناني سنة ١حه(١٧٠٦)تلميذ المدرسة المارونية برومية.» خط كرشوني مخروم من آخره.عدد صفحاته ٤٧٩ صفحة؛طوله ٢٢ ونصف س ، وعرضه ١٦ ونصف س . وهذه هي مقدمته ننقلها بالحرف الواحد.

« نبتدئ بعون الله وحسن توفيقه نكتب الكتاب الملقب بناموذ اسرائيل وهو كتاب الناموس. تأليف الشماس يوحنا وهبه الدويهي المدناني سنة ١حه (١٧٠٦) ربانية.

مقدمة الكلام

« فلما كان تاريخ سنة ١٧٠٣م وكنت انا الحقير الشماس يوحنا وهبه الدويهي المدناني قاطناً في رومية العظمى تلميذاً في مدرسة الموارنة نواجهني ذات يوم رجلٌ من بلاد الشرق وفاوضني وناوضته وسالني وجبته (واجبته) عن علومي ودرسي واحوالي. فاخذني في عقب المخاطبة وقال: والعلم انما حسناً مفيداً جداً إلّا ان كلما يعبر على ضهن (ذهن) الانسان فهو زايل وليس هو بثابت. فان كنت تشا يا هذا ان علمك يثبت في بالك فحرّره في الورق لان ما قد يُسطر في الكتاب فلا يبلى ولا يزول سريعاً . . .

« وبعد هذه الاقوال فرغ من كلامه وافترز عني فتحسّن قولهُ برأيي فاخذتُ بتصنيف هذا الكتاب الملقب « بناموذ اسرائيل » اما بعد مدّة زمان يسيرة فتقلّبت الامور وتحوّلت الاحوال وتركتهُ واعطاني الله واخذتُ صنّف كتباً أُخر غيره . ولعمري صنّفتُ الكتاب الملقب « بانتفاع الروح » ثمّ الاربع كُتُب في الوعظ والارشاد للمؤمنين.

« وفي تلك الزمانات عينها وقد وصلوا الى رومية سنة ١حد (١٧٠٤) ربانية سبع تلاميذ بعثهم جدّي (كذا) البطريرك اسطفانوس (الدويهي) الذي قد توفي في تلك السنة ثالث يوم من شهر ايار. وعندما دخلوا المدرسة فطلبتهم الروسا برفقتي لكي اتفيّد بهم وسوسهم (واسوسهم) ودرّبهم باللغات التليانيّة واللاتينيّة والسريانيّة فصار ذلك . وبلغنا سنة تاريخه وهي سنة ١٧٠٦ الخلاص العالم فتذكّرتُ كتابي ناموذ اسرائيل الذي كنتُ ابتديتهُ وقصدتُ اني كمّلتهُ فكمّلتهُ بعونه تعالى . . .

وانا لعمري ملتزم اني اهتمّ بخلاص الغير لا بالكرز الصوتي فقط بل بالكتابة ايضاً على قدر امكاني واستطاعتي لئلا اصير مذنباً امام الله والطمر وزنتي تحت الارض لاني اكلتُ خبز الاوجاع في المدرسة التي فيها حصلتُ على العلوم بنفقات الكنيسة على اسم طايفتي المارونية المحبّة لله ابداً دايماً .

« وقد لقبتُ الكتاب « بناموذ اسرائيل » تشبيهاً بالعاموذ المنير الذي قد ارسلهُ الله تعالى للشعب الاسرائيلي في البرّية عند خروجهم من مصر ليطرد الظلمة من امامهم ويسلكوا بالسلامة. فعلى هذا النحو التعاليم التي في هذا الكتاب تنير عقل كل من يتأمّل بها . . . وهي تعاليم لاهوتية وادبيّة ورياضيّة وروحانيّة وعلميّة الموجّهة لخير الناس جميعاً وخصوصاً . .

١٩ : تفسير حساسي ومرامي الشحيمة . خط الاخ سمعان داريًا الحلبي اللبناني سنة ١٨٨٣ . ٢٠ : المزامير. سرياني مخروم من اوله . خط فتح الله ابن شماس سقر ابن المرحوم مقدسي منصور المعروف ابن القريع الساكنين بمدينة حلب سنة ١٧٠٦ للاسكندر . ٢١ : ديوان المطران فرحات. خط عربي سنة ١٧٥١ . ٢٢ : «رسالة وجيزة تحتوي على رقيق المعاني والدقايق في شرح ما تعتقده النصارى من الحقائق» وهي جواب على الخواجا باسيلي. فخر . خط كرشوني بيد القس انطون مارون الحلبي اللبناني النائب العام في مصر سنة ١٨٢٢؛ وتقع في ١٢٠ صفحة بطول ٢١ ونصف س . وعرض ١٦ س.

٢٣ : كتاب الالهيات . وهو بحث في شرح التوحيد والتثليث وغيرهما . «مستند على اقوال الاباء القديسين واراء اللاهوتيين المتعمقين» تأليف القس يواصاف البسكنتاوي الراهب الماروني الحقير (هو المطران يواصاف الدبسي البسكنتاوي الشهير) . مجلد ضخم خُطَّ بالعربي في عهد رئاسة مؤلفهِ على دير القديسين بطرس ومارشلينوس برومية . رؤوسهُ مكتوبة بالحبر الاحمر واجمالهُ على نسق الخلاصة اللاهوتية لمار توما الاكويني. وفيهِ اعتراضات ودحضها ومجادلاته مقسّمة الى فصول . عدد صفحاته ٥٥٠ صفحة طولهُ ٢٧ س. وعرضهُ ٢٠ س. وسمكه ٦ ونصف س. وهو مقسوم الى اربعة كُتُب وكاد الحبر يخرق ورقهُ وقد صدَّرهُ مؤلفهُ بمقدمةٍ جميلة ولم يذكر اسماء كتب العلماء والقديسين الذين استشهد باقوالهم ، وعدد صفحاتها وفصولها ، لانها في اللغات الافرنجية وجاء في آخر الكتاب الثالث منهُ ما نصُّهُ :

«كمل الكتاب بعون الله الوهاب سنة ١٧٣٨ في ١٨ ايار بمدينة رومية الكبرى.»

وقد ابان في طرقه هذه الابحاث الالهية واشباعه الكلام فيها عن مقدرتهِ وتضلعهِ من العلوم العالية وتعمقهِ في درس ادقّ الاسرار العويصة. ولا بدع فهو من تلاميذ مدرسة الموارنة برومية واحد افراد نوابغها المشهورين . ويا حبذا لو اسرع احد الى نسخ او طبع هذا الكتاب النفيس الذي اوشك الحبر ان يثقب ورقه ويطمس سطوره . وان للمؤلف النابغة تآليف عديدة حلّق بها في جو العلوم السامية مما دلّ على رجاحة عقلهِ ومضاء ذهنهِ وكلها محجوبة عن العيان

مختبئة في زوايا الاديار والبيوت ولم يُنشر منها كتابٌ واحد بالطبع . وانما نلفت اليها نظر ابني وطنه حضرة الشقيقين البرديوط بطرس والقس يوسف حبيقه والى وضع ترجمة لهُ مطوَّلة . فحرامٌ ان تظلَّ آثار هذا الحبر الخالدة مدفونةً في عالم الخفاء وكلها عالية غالية تستأهل ان ترى النور قبل غيرها.

٢٤ : شرح ديوان المطران فرحات . للخوري ارسانيوس الفاخوري تلميذ مدرسة عين ورقا . كتبهُ بالعربي عبدالله بن شبلي الشدياق من عشقوت سنة ١٨٦٣.

٢٥ : كتاب التجسد . تأليف القس يواصاف البسكنتاوي الراهب اللبناني المذكور . وهو غير كتاب الالهيات. خطهُ كرشوني ، ومجلد برقّ غزال ، ومصدَّر بمقدَّمة لمؤلفهِ ، ومداره على سرّ تجسُّد ابن الله ويُقسم الى مقالات . ويقع في ٥٥٨ صفحة بطول ٢٧ س ، وعرض ٢٠ س ، وسمك ٥ . وورقه سميك . جاء في اخرهِ ما يلي :

«تمَّ بعونهِ تعالى على يد أحقر الناس وأرذلهم القس يوسف بن طربيه الريَّات الزوقي الراهب اللبناني. وكان ذلك في ١٠ ايام من شهر نيسان سنة ١٧٣٩ مسيحيَّة في دير مار بطرس ومرشلّينوس بروميَة العظمى. وقف مؤبد برسم اخوية الرهبان اللبنانيين»

٢٦ : كتاب خزانة الاسرار والمنارة السبّعة الانوار. تأليف المطران سمعان عوَّاد (البطريرك) الحصروني الماروني مطران دمشق الشام . كتبه بالكرشوني جرجس بن جبرائيل من قرية غباله سنة ١٧٣٢

٢٧ : كتاب « تفسير رسالة القديس بولس الرسول الى الغلاطيين وتفسير رسالتهِ ايضاً الى الافوسيين ، للعالم العامل الانبا كرنيلوس الحجري. وقد كان استخراجهُ من اللغة اللاتينية الى اللغة العربية بنفقة الرجل الورع العابد ميخايل فرحات (شقيق المطران جرمانوس فرحات) الحلبي الماروني ، على يد المعلم الفاضل يوسف بن جرجس القسّ الحلبي الماروني سنة الف وسبعماية وخمس عشرة مسيحية . »

ان عنوان هذا الكتاب المتضمن الافادة عن مؤلفهِ ومستخرجهِ ومقدمته

التي تبيّن فحوى الرسالتين هي بخط عربي بيد القس جبرايل فرحات نفسه. ومن ختام المقدمة وصاعداً يبتدئ الكتاب بخط كرشوني ولعله بيد المؤلف الذي عهد الى الاب فرحات باعادة النظر فيه وفي الاجزاء الآتية وتصحيحها(١ لانك ترى فرحات قد ضرب بقلمهِ على كل عبارة يقتضي لها تصحيح في هذا الكتاب —وفي الجزء الثاني الآتي ذكرهُ— وأتى بخطهِ العربي الرفيع على هامشهِ تصحيحها ولا تخلو صفحة منهُ من خطشٍ وتهذيب . هذا الكتاب هو النسخة الاصلية التي هذّب عبارتها القس جبرايل فرحات بيدهِ . عدد صفحاته ٤١٢ صفحة . طوله ٢٦ ونصف س، وعرضه ٢٠ س، وسمكه ٣ ونصف س.

٢٨ : كتاب « تفسير رسالتي القديس بولس الرسول الى القُرنتيين للمعلم العامل الانبا كرنيلوس الحجري . وقد كان استخراجه من اللغة اللاتينية الى اللغة العربية بنفقة الرجل الورع العابد ميخايل فرحات الحلبيّ المارونيّ ، على يد المعلم الفاضل يوسف بن جرجس القس الحلبيّ المارونيّ سنة الف وسبعماية وخمس عشرة مسيحية. »

فبيان هذا الكتاب ومقدمته التي تنطوي على محتويات الرسالتين. من انشاء الاب فرحات وبخطهِ بالعربي ايضاً . اما الكتاب فبخط كرشوني كالاول ومصحح بقلم فرحاتٍ كالجزء السابق . ويقع تلخيص فرحات للرسالتين في ١٣ صفحة والكتاب في ٦٧٠ صفحة بطول ٢٧ س، وعرض ٢٠ س، وسمك ٥ س. وعرض هامشه ٥ ونصف س . وقد كتب القس جبرايل فرحات على قفا هذا الكتاب هذه العبارة بخطهِ وهي :

« وقف مؤبد برسم اخوية الموارنة اللبنانيين. »

وهذه هي النسخة الاصلية المصححة بقلم فرحات ايضاً .

(للبحث صلة)

---

١) راجع جدول مصححات السيد فرحات في المستطرفات للاب منش ص: ٣٠ وما يليها

من رمضاء مكة الى مصيف الطائف

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

آب اللهاب ! في هذا الشهر يحتدم اوار الحر على سطح المناطق المعتدلة من شمالي الكرة الارضية ، فتتوق فيها الصدور الى العيش في الجبال العالية وفي الارياف الواسعة ، حيث الهواء اصفى والجو افسح منه في المدن المكتظة بالبنايات الآهلة بالسكان

ثقيلة هي وطأة القيظ على بلاد الشام ومصر والعراق لكنها اثقل واشد في الجزيرة العربية الواقعة في المناطق الحارة من البسيطة ، في صحراء تصليها اشعة الشمس نارًا لا يهدأ اوارها ، فتخترق اعماق تربتها وتمتص آخر ما رسب فيها من رطوبة اغاثتها به السماء في فصل الشتاء !

قد يلجأ مواطنونا من الحر الى الجبال في لبنان ، او الى الرمال على شواطئ البحر ، او الى البساتين في ضواحي مدن الداخلية . اما سكان مكة فاين منزلهم في الصيف ؟ هو الطائف . واني لاتكلم على تلك البلاد ، لا كاني زرت مكة والطائف ، « واهل الحرمين يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم ، فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوبًا ، ومحطة العلا شمالًا ، احد من الاجانب بالمرة ؛ وان فعل ، فما هو الا مورّط بنفسه الى حتفه من اهل البلاد » (١ لكني استعصم من اللوم بقول الشاعر (٢ :

« فاتني ان ارى الديار بطرفي فلعلي ارى الديار بسمعي »

فاهتدي ، والقراء ، الى بلاد التهامة والى جبال السراة ، بما كتب فيها(٣ من قديم وحديث متوخيًا وصفها كما كانت في القرون الاولى للهجرة . ولا يخفى

---

١) رحلة الحجاز للبتنوني ص : ٤٧ ٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١ : ٢

٣) راجع لامنس الطائف ؛ ومكة قبيل الهجرة في المجموعة Mélanges de l'Université S^t Joseph : 1922-1924

على بصير ما في هذا البحث من الافادة للوقوف على احوال التاريخ العربي وجغرافيته ؛ وعلى الله الاتكال في الحلّ والترحال

رمضاء مكة

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم ؛ ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (القرآن ١٤ : ٤٠)

هذه الآية تلخص اخبار مكة وتصف حالتها الجغرافية . مكة او ام القرى موقعها في التهامة في جزيرة العرب في الحجاز الجنوبي على مسافة ٧٠ كيلومتراً من البحر الاحمر ، وهي مبنية على شكل الهلال في وادٍ « غير ذي زرعٍ » تكتنفه الجبال الجرداء وتناله اشعة الشمس اللاذعة من غير ما يلطفها ظل شجر ظليل .

في قاع ذلك الوادي مركز الكعبة ، محجّة العرب في الجاهلية والاسلام ، وهي في وسط المسجد ، يحيط بها المطاف ، وحولها اتخذ عظماء قريش مساكنهم وهم يُدعون لذلك قريش البطاح ، فرقاً بينهم وبين سكان ظواهر مكة

« لهم غار البطحاء من بطن مكة وردمه يرقى بالجبال القياسر » (١

« وكانت بعض دورهم ملاصقةً بالمسجد الحرام في ظهر الكعبة تفي على الكعبة بالعشي وتفيءُ عليها الكعبة بالبكر » (٢

وحرّ مكة في الصيف لا يطاق ، خاصة في قعرها ، اعني في المسجد والمطاف . زاره ابن بطوطة فوصفه وقال : (١ : ٢٨٠–٢٨١) « المطاف مفروش بالحجارة السود ، وتصير بحرّ الشمس كانها الصفيحات المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يُصبّ فيه الماء الا ويلتهب الموضع من حينه واكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب »

---

٢) الاغاني ١٣ : ١٦٬٤١

٣) الازرقي : اخبار مكة ، ص : ٦٦٣ .

وقد حاول ابن بطوطة الطواف حول الكعبة حافياً فذاق من العذاب الواناً قال :

« وصلت الطاف ، واردت استلام الحجر الاسود ، فلحقني لهب تلك الحجارة ، واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته الا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم اطف وكنت اجعل بجادي [كسائي] على الارض وامشي عليه حتى بلغت الرواق »

وليس مناخ مكة حارًا فحسب ، بل فيها ازمة المياه دوماً . روى الازرقي (ص : ٤٤٤) انهم باعوا فيها الراوية (او القربة ، حمل الدابة) عشرة دراهم واكثر (١ وقلة المياه فيها مع شدة الحر تسبب فساد الهواء وكثرة الامراض(٢ وخاصةً الحمى المعروفة عندهم بوباء مكة وقد احتالوا عليها فاستعملوا بول الناقة دواء لها وقال الاعراب ان هذا الدواء لناجع . على انه لم يكن ليضاهي بتفاعيله مفاعيل الهواء الصافي والماء الزلال

ذلك الهواء وذلك الماء قد تمتع بهما تجار العرب في رحلاتهم في العراق والشام لما شربوا من مياه دجلة والفرات واستحموا في بردى دمشق ، وسرحوا ابصارهم في رؤية ارض « الخمر والخمير والديباج والحرير » وكانوا اذا عادوا الى مساكنهم في البطحاء وشعروا بضيقة النفس حدثتهم النفس بما كانوا شاهدوه فسألوا النبي ان يفرج كربتهم ؛ واليك صدى لهفاتهم كما زدده ابن هشام في السيرة النبوية (ص : ١٨٨)

« قالوا يا محمد انك قد علمت انه ليس من الناس أحد اضيق بلدًا ولا اقل ماء ولا اشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها انهارًا كانهار الشام والعراق »

وكأني بطلبتهم قد استجيبت : لانه بالقرب من مكة قد وضع الله الطائف ومصيفها « مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار

١) وكانت قيمة الدرهم الفضي توازي ثقل الغرامين والنصف او الثلاثة الغرامات
٢) راجع كتاب رحلة الحجاز للبيب البتنوني ص : ٦٣

من خمر ، لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات.»
(القرآن ٤٧: ١٦، ١٧)

بلاد الطائف

على سيف البحر الاحمر ، في شبه الجزيرة العربية ، تمتد سلسلة جبال من الشمال الى الجنوب اسمها جبال السراة وهي الحد الفاصل بين نجد وتهامة وفيها «الثنايا الغلاظ» وهي طرق وتشعبات تخترقها فتقرب المسافات بين قبائل الداخلية وبين مدن الحجاز التجارية

في منتصف تلك السلسلة ، وبالقرب من الخط العرضي للكرة الارضية ، الواقعة عليه مكة ، فتحت يد الطبيعة جوفاً دعاه العرب وادي النعمان واتبعوه بمقاطعة الطائف ، وموقعه بينها وبين عرفة ؛ يشاهد فيه المسافر ارضاً طليحة تنمو فيها الاشجار بكثرة ، ومن ثم صخوراً منتصبة كالجدران ، ترتقي شيئاً فشيئاً الى ان يبلغ ذراها الالفي متر. وفي شمالي تلك المقاطعة جبل عدلوا ارتفاعه فوق سطح البحر بعلو ثلاثة آلاف متر ، ولعله جبل غزوان الذي ذكره جغرافيو العرب لان المياه تجمد فيه بالشتاء فيصح فيه ما قاله ابن حوقل (ص : ٢٧)

« وليس بالحجاز فيما علمته مكان هو ابرد من رأس جبل غزوان وبلغني انه ربما جمد الماء في ذروة هذا الجبل وليس بالحجاز بموضع يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع ، وعلى ظهر ذلك الجبل موقع الطائف »

وكانوا يقطعون المسافة بين مكة والطائف بمرحلتين او ثلاث « على الرفق والتؤدة » (١ . وفي اغلب الاحايين كانت نقطة الماء محطة للرحال . فيجتازون البطون والحزون ويمرون بقرى ذكرها جغرافيو العرب ، وكانت عامرة في القرون الاولى للهجرة ، ثم انحطت عن عزها : منها قرية العرج مسقط رأس الشاعر العرجي الذي اسهب بذكره صاحب الاغاني ، وقرية البقيع ، وجلذان ، وقرية الوهط وقد قال فيها العجيمي :

---

١) ابن جبير ٣: ١٢٢.

« بهذه القرية مزارع وعين كبيرة الا انها الآن ضعيفة وبستانها المذكور فلم يبق على معشار ما كان عليه ».

وكانت ارياف الطائف مخصبة يحرثها الفلاحون لحساب اهل الطائف او لغيرهم من اغنياء مكة.

وذكر الهمداني املاك الطائف وملاكها فاوقفنا على حالة البلاد ايام تمتعت بالامن وازدهرت بنشاط سكانها. على ان كثيراً من تلك المواضع التي ذكرها لا يكاد العلماء، يقفون لها اليوم على اثر محقق قال(١ :

« وساكن الطائف ثقيف؛ ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص وواد قريب من الطائف يقال له برد، فيه حائطان لِرُبَيْدة عظيمان يقال لموضعها وج، وبشرقي الطائف وادٍ يقال له لية يسكنه بنو نصر من هوازن، ومن يماني الطائف وادٍ يقال له جفن لثقيف وهو بين الطائف وبين معدن البرام ويسكن معدن البرام قريش وثقيف، ومن قبلة الطائف ايضاً وادٍ يقال له مشريق لبني امية من قريش، ووادي جلذان منالب الى نجد في شرقي الطائف يسكنه بنو هلال، وفي قبلة الطائف حائط ام المقتدر الذي يدعى سلامه، وبين الطائف وبين عرفة وادي نعمان، وفيه طريق الطائف المختصرة الى مكة واما المحجة فعلى قرن المحرم »

وكانوا يعنون بالحائط الحديقة الجميلة التي احاط بها اصحابها لبناً صيانة لمزروعاتها. وكانت تلك البقاع مشهورة باشجارها واثمارها وخاصة « وج » فانها امتازت بشجر الطلح والسدر وكان بضواحي الطائف كروم بذل اصحابها تعباً عظيماً في حرثها وسقايتها وقد حفظ ابن الاثير ذكر تلك العناية الحنونة والغيرة والاجتهاد في سبيل الزراعة، في المعاهدة التي ابرمت بين الثقفيين وبين ملاكي تلك الاراضي الاولين لما احتل ثقيف الطائف وشارطوا من وجدوا فيها من السكان على ان يتقاسموا واياهم الاراضي وغلاتها فقالوا :

« نثيرها حرثاً ونغرسها اعناباً وثماراً واشجاراً ونكظمها كظائم ونخفرها اطواء ونغلاها عمارة وجناناً (٢

فكم بذلوا من المجهودات في حفر الآبار وفتح الترع لمجرى المياه حتى اذا

---

١) راجع صفة جزيرة العرب ص: ١٢٠.

٢) الكامل ١: ٢٨٨

انجزوا العمل وشاهدوا كرومهم المعروشة تعقد عنبها فاخروا بها واشاروا الى مياهها وقالوا :

« فان الماء ماء ابي وجدّي وبئري ذو حفرت وذو طويت » (١

وحيث يكون الاجتهاد والنشاط بجراثة الارض وريها لا تلبث ان تكتسي الارياف ثوب العز والغنى فيزداد اصحابها ولعاً بها وحرصاً عليها ولذلك لما ضرب النبي الحصار على الطائف وتهددها بتخريب الكروم هاج هائج السكان وخافوا على ما غرست ايديهم بمشقات عظيمة فارسلوا الى النبي يتوسلون اليه ان يبقي على المزارع البعيدة وإلا اذا عاث فيها العسكر فساداً فقد يكون خرط القتاد دون اصلاحها (٢

وكانوا يعقدون المعاهدات مع بدو السراة لينالوا الحماية للحقول والمزارع من القطعان والرعيان

محصولات الطائف

« الخبز عندهم ممدوح وهم اذا فخروا قالوا منا آكل الخبز » (٣

الخبز الطري ، الخبز الابيض ، الخبز مرقوقاً او رغيفاً ، كل يوم مراتٍ ناكله ونشبع منه وقد بارك الله القمح في بلادنا السورية واوفره واكثره. ولكن في البلاد العربية طعام العامة اللبن والتمر ، اما الخبز فهو طعام نادر لا يأكله الّا الامراء والعظام وبفضله ينمو فيهم العقل ويمتازون بالدهاء والحكمة على ما رواه ابن الاثير

قال في غيلان بن سلمة الثقفي الطائفي ، الذي كان هجر ستاً من نسائه بعد اسلامه ، ولم يبق عنده سوى اربع ، بأمر النبي محمد ، انه كان وفد على كسرى ، فدار الحديث بينهما. «فقال له كسرى : اي ولدك احب اليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يقدم ؛ فقال كسرى : ما لك

١) راجع ديوان عامر بن الطفيل : ٩،١٢٦

٢) راجع السيرة لابن هشام ص : ٨٧٣

٣) الجاحظ : البخلاء ٢٥٤

ولهذا الكلام ؟ وهو كلام الحكماء وانت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فما غذاؤك ؟ قال خبز البر . قال هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر . » (١

وكان القمح في بلاد الطائف وافرًا ويسمونه البرّ على ان الطائف اشتهرت خاصة بكرومها ومنها العنب والزبيب والخمرة. الكرمة هي الشجرة المتواضعة اللطيفة ، وضعها مواطنونا اللبنانيون موضع الحب في جوار بيوتهم وعلى مدرجات جبالهم ووديانهم. الكرمة النضيرة بنت الشام كيف دخلت بلاد العرب الملتهبة ؟ دخلتها على يد امرأة يهودية ، قدمت عيدانها هديةً لابي رغال احد زعماء الطائف (الاغاني ٤ : ٧٥) فزفتها هديةً شاميةً من بني اسرائيل الى مصيف الجزيرة الشهير . وبفضل تلك الامرأة الحقيرة اصبحت قرى السراة تُصدر العنب والزبيب والخمر الى مكة والى سائر انحاء الجزيرة

وكانت خمر لبنان وفلسطين معروفة من عشاقها في الطائف فيستوردونها . ويشربها كل منهم على صحة من قال :

ناولتها شبه مصباح مشعشعة صرفاً كأن سناها ضوء مقباس .

وكانوا يجدونها تحاكي « عين الديك لماناً » . فشربوا خمر بلادنا وشربوا خمر الطائف ايضاً . على انهم كانوا يستعملون زبيب الطائف مروقاً لمياههم الآسنة

روي عن العباس عم النبي انه كان يستغلّ من كرومه في الطائف نوعاً من الدبس يمزجه بماء زمزم الذي قال فيه الشاعر :

تباركت اخبار البلاد سوانح بعذب وخصت بالملاحة زمزم (٢

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يشرب كل يوم صباحاً عصير الزبيب ممزوجاً بالماء . (٣

وظهر الاسلام وحرّم شرب الخمر فكسدت سوقها وقلت بضاعتها وارتفعت اسعارها اما عشاقها فلم يزهدوا فيها وفازت بمديح شعر العرب كما فازت به عند اليونان والرومان . ولابي محجن الثقفي خبر في ذلك نرويه عن كتاب

١) اسد الغابة ٤ : ١٧٢-١٧٣

٢) راجع الازرقي ' اخبار مكة ٧٠ : ٢٩٤، ٣٤٠

٣) راجع ابن سعد : طبقات ٦ : ١٠٥

الاغاني (١ وفيه فكاهة وافادة :

« اتي عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه بجماعة ، فيهم ابو محجن الثقفي ، وقد شربوا الخمر ، فقال : اشربتم الخمر بعد ان حرمها الله ورسوله ? فقالوا : ما حرمها الله ولا رسوله ؛ ان الله تعالى يقول : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . . .

فقال عمر لاصحابه : ما ترون فيهم ? فاختلفوا فيه ؛ فبعث الى علي بن ابي طالب ، عليه السلام ، فشاوره . فقال علي : ان كانت هذه الآية كما يقولون فينبغي ان يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير . فسكتوا . فقال عمر لعلي : ما ترى فيهم ? قال ارى : ان كانوا شربوها ، مستحلين لها ، ان يقتلوا ؛ وان كانوا شربوها ، وهم يؤمنون انها حرام ان يحدّوا [يجلدوا]

فسألهم . فقالوا : والله ما شككنا في انها حرام ، ولكنا قدرنا ان لنا نجاة فيما قلنا . فجعل يحدّهم رجلاً رجلاً وهم يخرجون حتى انتهى الى ابي محجن . فلما جلده انشأ يقول :

ألم ترَ ان الدهر يعثرُ بالفتى ولا يستطيعُ المرءُ صرفَ المقادرِ
صبرتُ فلم اجزعْ ولم اكُ طائعاً لحادثِ دهرٍ في الحكومةِ جائرِ
واني لذو صبرٍ ، وقد مات اخوتي ولستُ عن الصهباء يوماً بصابرِ
رماها اميرُ المؤمنين بحتفها فخلانها يبكون حول المعاصرِ

فلما سمع عمر قوله « ولست عن الصهباء يوماً بصابر » قال : قد ابديت ما في نفسك ولأزيدنّك عقوبةً لإصرارك على شرب الخمر

فقال له علي عليه السلام : ما ذلك لك ، وما يجوز ان تعاقب رجلاً قال لأفعلنّ وهو لم يفعل . وقد قال الله في الشعراء : وانهم يقولون ما لا يفعلون . فقال عمر قد استثنى الله منهم قوماً . فقال : الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فقال علي عليه السلام : أفهؤلاء عندك منهم وقد قال رسول الله صلعم لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن »

ومات ابو محجن شاعر الخمرة وهو القائل :

اذا متُّ فادفني الى اصل كرمةٍ تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنوني بالفلاة فانني اخاف اذا ما متُّ ألا اذوقها

وذكر صاحب الاغاني قبره فقال : « رأيت قبره قد نبتت عليه ثلاثة اصول - كرم ، قد طالت واثمرت وهي معروشة » (٢

ولم تكن بلاد الطائف ارض خمر وخمير فحسب ، بل كانت جنة ذات افنان فيها من كل فاكهة زوجان (٣ تزدهي بانواع الاثمار من زيتون وموز وتين ودراقن وسفرجل ورمان وبطيخ . واذا ورد الربيع واكتست الاشجار بالزهور خرج النحل عليها واستغلّ سكرها العطر ثم اخرجه « من بطنه شراباً مختلفاً

---

١) الاغاني : ٢١ : ٢١٩ ٢) الاغاني : ٢١ : ٢٢٠ ٣) القرآن : ٥٥ : ٥٢ ، ٦٨

الوانه فيه شفاء للناس »(١ وهو العسل . والعسل من اهم محصولات الطائف كانت النحل تبني منه في المغاور «بيوتاً » وكان عمال الجباية يتقاضون عليه المال . وقد تضاربت آراء الفقهاء في شأنه وكان للعسل مكانة في عوائد العرب : يمزجونه بالسمن ويسقونه الاطفال عند الفطام . وكان الملوك والامراء يفضلون عسل الطائف على سواه لانه مصنوع من زهور جبال السراة ونباتها ذي العطر العابق ، وكما انهم مزجوا عصير الكرمة والتمر بالماء تحلية له كذلك شربوا الماء معسلاً ؛ ومن العسل والبر عملوا الفالوذج وقد تعلموه على الفرس(٢

« كان ابن جدعان سيداً من قريش فوفد على كسرى فاكل عنده الفالوذ فسأل عنه . فقيل له هذا الفالوذ . قال وما الفالوذ . قال لباب البر يلبك مع عسل النحل . قال فاتوني بغلام يصنعه فابتاعه ثم قدم به مكة ثم امره فصنع له الفالوذ بمكة »

المصطافون والمصطافات بالطائف

ما اعذب موارد الماء في الصحراء الماحلة ! وما اجمل الطائف في قلب الجزيرة المحترقة باشعة الشمس ! زار الطائف بروكارت الروادة الشهير فقال فيها : ان منظرها اجمل ما شاهده من مشاهد الشرق بعد لبنان ؛ وقال فيها الرحالة تاميزيه : بعد السير في اتون نار تصلي ، وبعد قطع اودية وبطون يابسة ناشفة : ما احلى بساتين الطائف والطف نسيمها وابلّ هواءها !

وان يكن الافرنج ترنموا بمديح الطائف مع كونهم رأوا في بلادهم من جمال الطبيعة وعظمتها وخصبها ما يسحر الالباب ولا يخطر للعرب ببال فما احرى العرب بان تنطلق السنتهم بمديح الطائف وفضائلها ، فيهيموا بها ويجملوها محطة للنسور !

وقف الخليفة سليمان بن عبد الملك امام الطائف فلم يتمالك ان قال :

لله درّ قسي باي مشّ وضع افراخه !(٣ وقسي مؤسس الطائف

وما عسى ان ينقص هذه الجنة ، والابل ترعى فيها فتاكل من تحتها وتاكل من فوقها على الارض كلأً كثيفاً اخضر مطيباً وعلى الاشجار اوراقاً واثماراً !

---

١) القرآن : ١٦ ، ٧١
٢) جاء في كتاب الأغاني : ٨ ، ٤
٣) ابن الفقيه : ٢٢

أو ليست هي الارض المباركة التي تدرّ العسل واللبن

فلا عجب ان فاض العرب بذكر محاسنها فشبهوها ببلادنا فنعتوها « شامية الهواء باردة الماء » « فتهوى اليها الافئدة » ؛ويؤمها المصطافون لا شك ان « من صبرَ على حرّ مكة تباعد عنه جهنمُ مسيرةَ مائة عام وتقربت منه الجنةُ مسيرةَ مئتي عام »(١ ولا يضيع اجر الفقراء الذين يحتملون وطأة الحر وثقله في البطحاء ابتغاء وجه الله ؛ على ان ذوي اليسر اذا ما تسنى لهم ان يهجروا رمضاء مكة الى مصيف الطائف لم يتلكأوا عن الرحيل

وكما ان اغنياء التجار ، في يومنا ، يشدّون رحالهم الى صوفر او الى ضهور الشوير او حمانا اذا ما اشتدّ الحرُّ في المدن ؛ كذلك كان عظام تجار مكة يقصدون الى الطائف . وربما حدثتهم النفس بالعودة اليها وهم بعيدون عن الاوطان . قال الاب لامنس(٢ : كان الخليفة معاوية يعلل نفسه بالامل ،وهو في قصره في الخضراء بدمشق ، بان يعود يوماً الى الطائف فيستريح فيها من هموم السياسة ومتاعبها . وكان عظماء الموظفين في اوائل العصر الهجري يعودون الى الطائف ليقضوا في المدن العربية المقدسة باقي حياتهم ويتمتعوا بما اكتنزوا لانفسهم من ثروات طائلة جمعوها في توليهم حكم اقاليم الشرق الغنية . لكل منهم قصر في مكة او في المدينة يقيمون فيه ببحبوحة العيش الى ان تهب الريح السموم فتسوقهم الى مصايفهم،منهم ابو سفيان كان يحلّ الطائفَ ويراقب حركة الزراعة في اراضيه وقطف العنب ودبغ الجلود وهو في ضيافة بناته المزوّجات . ومنهم ابو احيحة الصرّاف المتموّل ، وابو عمر بن العاص فاتح مصر ، بلغ من العمر ٨٤ سنة وكان يركب حماره ويجول في ارزاقه بين الطائف والوهط .

ولم يكن ما بينهم الشيخ الوقور والامير المهيب فقط بل كان ايضاً الغواة والشبان وطلّاب الملاهي وبينهم الشاعر والمغني يتبخترون في المتنزهات ويفتنون الانظار وقد حفظ لنا ذكرهم كتاب الاغاني عن لسان الشاعر العرجي الطائفي بهذا الشعر البديع (٣

١) ابن الفقيه : ١٧ ٢) Taïf p. 162 ٣) ١ : ١٥٥

أمشي كما حرّكت ريحٌ يمانيةٌ غصناً من البان رَطْباً طلّه الدّيَمُ
في حلّةٍ من طراز السوس مشربةٍ تعفو بجدّاتها ما اثرت قدمُ
فبتُّ أُسقى باكواسٍ أُعلُّ بها من باردٍ طاب منه الطعم والنّسمُ
حتى بدا ساطعٌ للفجر نحسبهُ سنى حريقٍ بليلٍ حين يضطرمُ
كغُرّةِ الفرسِ المنسوب قد حُسرتْ عنه الجلال تلالأ وهو يلتجمُ

اما النساء بنات حوّاء أفيقتصرن عن مرافقة آدم في ذلك الفردوس ؟ كلّا ثم كلّا ! بل يتسابقن والرجال الى مصيف الطائف كما تتسابق البيروتيات والمصريات ورجالهن الى مشارف عاليه وبشري . وقد حفظ كتاب الاغاني لهنّ نكتاً وحكايات يروقنا الاطلاع على بعضها وفيها ما يوقفنا على حالة المرأة في القرون الاولى للهجرة . أتتصورها أسيرة جدران بيتها لا قيمة لها ولا مقام ؟ لا تطلّ على عالم الوجود الّا من ثقب برقع يحول دونها ودون النور ! فاسمع ما جاء في الاغاني (١٠،٥٤) :

« كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من احد ، فعاتبها مصعب في ذلك ، فقالت ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم الجمال ، احببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لاستره ؛ والله ما فيَّ وصمة يقدر ان يذكرني بها احد »

وفي مصيف الطائف وقفت عائشة وقفة الحكم تقضي في الشعراء ايهم الاشعر . وهناك قضت سُكينة اياماً طوالاً بين طلاق وطلاق ، وسفر واسفار ، تذكّرنا بالنساء القلقات اللواتي يتنقلنَ دوماً من مصر الى الشام ومن الشام الى اوربا . سكينة حفيدة علي ، عُدّ ازواجها على الاصابع العشر ، وصفها كتاب الاغاني بالعفة . وشتان ما بين عفتها والعفة ، الفضيلة الملائكية ، التي تنتصر النفس على الجسد . وكانت سُكينة أبية النفس ، تحكم في الازياء والجمال والادب . « وكانت سلمةً ، برزةً من النساء ، تجالس الأجلة من قريش وتجتمع اليها الشعراء وكانت ظريفة مزاحة » وجاء في الاغاني : (١٤،١٦٥)

« كانت سكينة احسن الناس شعراً وكانت تصفف جمتها [او شعرها] تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه حتى عُرف ذلك وكانت تلك الجُمَّة تسمى « السُكينية » وكان عمر بن عبد العزيز اذا وجد رجلاً يصفف جُمّته « السُكينية » جلده وحلقه »

فظهرت عائشة وسكينة في الطائف ومثلهما غيرهما من النساء الشريفات كنَّ يفاخرن بحسنهنَّ ويتصفنَ « باحسن من النار في عين المقرور » او « باحسن

من النار الموقدة في الليلة القراء ، كان لهن اموال وبنايات في الطائف.

وهناك كانت تصيف ثريا وارسلت الى ابن ابي ربيعة من اعلمه بموتها فأتاها عاجلاً وقال شعره المشهور الذي رُوي بين الاصوات الثلاثة المختارة للرشيد

«تشكّى الكُميتُ الجريَ لما جهدْتُه وبيّن ، لو يسطيعُ ان يتكلما»

على ان الامرأة الكبيرة المستحقة دون غيرها ان تُذكر عنواناً للشهامة النسائية عند العرب هي سبيعة بنت عبد مناف.

كانت رحى الحرب دائرة بين مكة والطائف . ومن المألوف عندهم انهُ من لجأ من الاسرى الى بيت زعيم ودخل في حماه لم ينله مكروه . وكان مسعود بن معتب الثقفي زوج سبيعة قد ذهب الى ساحة القتال « فجعلت سبيعة توصل في خبائها ليتسع . فلما انهزمت قيس دخلوا خباءها مستجيرين ثم كثر عددهم فضاق بهم المكان . فقال لها احد جيرانها « يا عمة من تمسك باطناب خبائك لو دار حوله فهو آمن» فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا جدًّا فلم يبق احد لا نجاة عنده الّا دار بخبائها ؛ فقيل لذلك الموضع مدار قيس » وكان يضرب بهِ المثل» (١

واوفدت سبيعة اولادها الصغار ينادون في الدارين ان من لجأ الى سرادقهم ولاذ بحمى امهم نجا . فما عتمت ان امتلأت خيمة سبيعة من الاسرى . وعاد مسعود من الموقعة ظافرًا فرأى عناقيد بشرية معلقةً باهداب حماه فصفح عنهم واطلق سراحهم ، فمضوا سالمين بفضل الامرأة العربية.

* * *

هذا وحسبي . فاني أحيي المروءة والانسانية والشهامة بشخص سبيعة واندادها . واتمنى للبلاد العربية ان ينشأ فيها من امثال سبيعة نساء كثيرات يظهرن بشرفهنّ وكرمهنّ ورقتهنّ ولطفهن على قوة الرجولية،فيظفرن بها ويحللن محل الاحترام والكرامة في المجتمع . وانما مكانة المرأة في البلاد عنوان رقيها ونجاحها.

---

١) الاغاني : ١٩، ٢٩

الجاحظ (٧٧٥؟ـ ٨٦٩)

بقلم فؤاد افرام البستاني، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

«كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً، والادب ثانياً !»

(ابن العميد)

٢

ولابن قتيبة صفحة لعلّها ابلغ في تبيان هذا التأثير، واصدق في تصوير عقلية الجاحظ في كتبه وانتقاله من موضع الى آخر دون رابطة، مع استهزائه بالامور مهما كانت عظيمة معتبرة، نوردها كقياس لقيمة الجاحظ في الابحاث الكلامية الاسلامية . قال ابن قتيبة :

الجاحظ احسن المتكلّمين «للحجة استثارة، واشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر . ويبلغ به الاقتدار الى ان يعمل الشيء ونقيضه، ويحتجّ بفضل السودان على البيضان . وتجده يحتجّ مرة للعثمانيّة على الرافضة، ومرة للزيديّة على العثمانية واهل السنة، ومرة يفضل علياً (رضه) ومرة يؤخره . ويقول : «قال رسول الله (صلعم) . . .» ويُتبعه : «قال الجماز . . .» وقال اسماعيل ابن غزوان . . . كذا وكذا من الفواحش . ويُجلّ رسول الله (صلعم) عن ان يذكر في كتاب ذُكرا فيه، فكيف في ورقة او بعد سطر او سطرين . ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فاذا صار الى الردّ عليهم تجوّز في الحجة كأنه انما اراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين . وتجده يقصد في كتبه للمضاحك والعبث، يريد بذلك استمالة الاحداث وشرّاب النبيذ . ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم : كذكره كبد الحوت، وقرن الشيطان، وذكر الحجر الاسود وانه كان ابيض فسوّده المشركون وقد كان يجب ان يبيّضه المسلمون حين أسلموا . ويذكر اشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب، ودفن الهدهد امه في رأسه، وتسبيح الضفدع، وطوق الحمامة، واشباه هذا . . . وهو مع هذا من اكذب الأمة واوضعهم لحديث، وانصرهم لباطل .

ومن علم، رحمك الله، ان كلامه من عمله، أقلّ الا فيما ينفعه؟ ومن أيقن انه مسؤول عما ألّف وعما كتب لم يعمل الشيء وضدّه، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده. وانشدني الرياشي

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرّك في القيامة ان تراه.» (١

في الاجتماع والاخلاق

لم يدرس الجاحظ الفلسفة رغبةً في المناقشات المنطقية العقيمة، ولم يصطنع علم الكلام توصّلاً الى فرض النظريات في منشأ العوالم، وعلاقات الخلائق بالخالق. ولكنه كان فضولياً، والفضولية في العلم شرط اساسي، فأحبّ ان يطّلع على آراء المفكرين، فاطّلع عليها وعرضها على ما نعرفه فيه من حبّ المحادثات الطويلة، وخلط الجدّ بالهزل. فاتجهت افكاره الى درس المذاهب الدينية والفلسفية فدرسها، وتوسّع فيها حتى انتج منها لنفسه مذهباً خاصاً كما رأينا.

وكان من حكم الطبع ان يتدرّج من ذلك المذهب النظري الى تطبيق آرائه على المجتمع، واجلى مظهر فيه الامامة. فكان الجاحظ في هذا المبحث ايضاً هو في ابحاثه السابقة. اي يدرس كل شيء، ويفهم مزاعم الاحزاب المختلفة فيبسطها بكل صراحة، منتصراً تارة للعثمانية مثلاً، وطوراً لاعدائهم، حيناً يقرّ إمامة بني امية وحيناً يفضّل عليهم بني العباس. كذلك كان موقفه في المناظرات بين النصارى، والمسلمين واليهود كما اوردناه قبيل هذا. وهو في كل ذلك لا يظهر اعتقاده الخاصّ بل يكتب «تماجناً وتطرّباً» (٢

على انه كان يرى في تلك المدنية الزاهرة فضلاً لغير العرب ايضاً، ولم يكن ليبخس الموالي حقّهم، ولهذا انتقده البغدادي(٣. وكان للجاحظ الفضل السابق في قدر الاتراك حقّ قدرهم في العصر العبّاسي الاول. وما رسالته في فضائل الترك الّا استحساناً لفكرة ادخالهم في الامامة الإسلامية، ونبوءة تحققت عن مصير ذلك

١) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ص: ٧١ - ٧٢
٢) المسعودي: مروج الذهب، الجزء ٦، ص: ٥٦
٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص: ١٦٢

العنصر المهم في العصور التالية

هذا ما يخصّ الشعوب . اما اخلاق الافراد فدرسها الجاحظ درساً دقيقاً. وكان له من فكاهته معاون على تصويرها فصوّرها بنقائصها ، وتهكّم فابدع في ذلك. ولعلّه كان اول كاتب عربي انتقد طبقات المجتمع ، والجماعات من الناس، فادخل في آدابنا ذاك الفنّ الشائق ببراعته وذكائه ، المفيد بما يدفع اليه من الإصلاح ، المعروف بدرس الاخلاق. فاظهر حيل التجار في «غش الصناعات»، وخزعبلات المتسوّلين في «حيل المكدين»، وسخافات الشبان المتخنثين ، واخلاق المغنين والعبيد والموالي من ذكور واناث ، في كتب «القيان» ، و «الجواري والغلمان» ، و «المغنين» ، و «القيان» . ولم تفته اخلاق النساء وحيلهن فخص بهنّ كتاباً . على ان افضل روائعه في هذا النوع ، «كتاب البخلاء» الذي خلّد صغارة تلك الفئة من اهل البصرة ، مدى الاجيال ؛ وما ارشق قلم الجاحظ في تمزيق استار عن تكالب اولئك «المقتصدين»

في العلوم : كتاب الحيوان

ان رغبة الجاحظ في الاحاطة بالمعلومات جميعها ، وعقليته الشاملة التي اكسبته بجدارة صفة اصحاب الموسوعات ، دفعتاه الى الكتابة في كل المعارف البشرية . فخاض شتى الابحر ولم يتراجع امام موضوع سواء اتقنه او لم يتقنه . وكان كلما ازداد سعة نقص تعمقاً حتى عرّض نفسه لنقد الاختصاصيين . ومنهم المسعودي الذي كثيراً ما استفاد من الجاحظ ؛ ومع ذلك فانه لم يتمالك من نقد معلوماته الجغرافية ، وهو علم لم يتقنه كاتبنا ، لانه « لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ، ولا تقرّا المسالك والامصار » (١ فوقع في مغالط عديدة . وكان من اشكها ، وهي حقيقة بالجاحظ وبعقليته ، انه قرّر ان نهر مهران السند (اي الهندوس) مصدره نيل مصر ، واستدلّ على ذلك بوجود التماسيح فيه . . . الى غير ذلك من التحقيقات السطحية التي اشتهر بها الجاحظ

على انه ، وان قصّر في وصف البلاد الجغرافي ، لم يقصّر في وصف المدن

---

١) المسعودي : مروج الذهب - الجزء الاول - ص: ٢٠٦ - ٢٠٧

الكبيرة ، واهلها ، وطريقة معيشتهم ؛ ككلامه ، في كتاب البلدان ، عن مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة ، ودمشق وغيرها

وقد ألحق بذلك مباحث في الفرق بين الشعوب المختلفة ، لا من حيث الاخلاق فحسب كما ذكرناه ، بل ايضاً من حيث النشأة الطبيعية والفوارق الظاهرة ، فألّف في « السودان والحُمران » و « الصرحاء والهجناء » و « الرجال والنساء » وفي ايّ موضع يغلبنَ ويفضلنَ وفي اي موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات ... وكان من متممات الجغرافية البشرية ان يبحث في معتقدات البشر ، فذكر الاديان وتشعّباتها ، والهياكل وما يُعبد فيها من الآلهة المختلفة على شكل الاوثان والاصنام والدُمى في شرح طويل .

وتجاوز درس الارض ، من حيث الجغرافية الطبيعية والبشرية ، الى درس المحصولات ، من حيث الجغرافية الاقتصادية ؛ فكتب في المعادن المديدة ، وجواهر الارض واصباغها ، والكيمياء وما اليها . ثم ارتقى الى النبات فتكلّم عن النخل والزيتون والاعناب ومختلف الزرع . وكان من الطبيعي ان يصل الى الحيوان ، فذكره وخصّ به ذلك الكتاب الكبير الطريف . ولما كان اول كتاب من نوعه في الآداب العربية ، وقلّ من درسه واكترث له ، على ان مريدي سائر كتب الجاحظ كثيرون ، رأينا ان نخصّه بدرس مفصل فنستفيد منه الشيء الكثير عن مبلغ العلم في عصر الجاحظ ، وعن عقلية الكاتب ، وطريقته في التأليف :

كتاب الحيوان

ماهيته — طبعه

كتاب الحيوان مجموعة كبيرة انشأها الجاحظ في سبعة مجلّدات واهداها الى محمّد بن الزيّات . وغايته جمع ما تفرّق في الكتب ، وما انتشر على الألسنة من الاقوال والأحكام والامثال والاشعار عن الحيوانات وعلاقاتها مع الانسان . وقد طُبع الكتاب كله في سبعة اجزاء تبلغ ١٠٨٩ صفحة كبيرة ، في مصر سنة ١٣٢٣-١٣٢٥هـ . (١٩٠٥-١٩٠٧) على نفقة الحاج محمد الساسي المغربي ، ووقف على تصحيح الجزءين الاخيرين محمد بدر الدين النعساني الحلبي . على ان في هذه

الطبعة من التصحيف ، والتحريف ، والإسقاط ، وعدم اقامة وزن الابيات ، والاغلاط الطبعية ، وإبدال الاسطر ، ما يقف في سبيل الدارسين عقبة كؤوداً يزيدها صعوبةً أنّ الجاحظ لا يأبه للترتيب والتقسيم ، ولا يتكلّف ، كما في سائر مؤلفاته ، كتابة عناوين للابحاث والفصول ؛ اللهمّ بعض العناوين العامّة للابواب الشاملة . وهذه ايضاً لا يراها المطالع الا في اول الكلام ، وكثيراً ما لا تنطبق على الباب برمّته . وقد اخذنا منه بعض المنتخبات فنشرناها في الروائع (الاجزاء : ١٨ و١٩ و٢٠) ولكي لا نحرم القارئ الكريم الاطّلاع على محتويات سائر الاجزاء نلخّص ادناه المجلّدات السبعة ، بعد ان نذكر مصادر الكتاب ، راجين ان يقوم من يعيد النظر في هذا المؤلّف ويعرضه على النسخ الخطية ، ثم يطبعه طبعة جديدة علمية نقديّة فيؤدي خدمة عظيمة للجاحظ وللآداب العربية

مصادره

كثيراً ما يذكر الجاحظ في كتابه ارسطو ، ويستند الى اقواله في الحيوانات حتى اتّهمه بعض اعدائه بالنقل ، فقال البغدادي : « وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس . » (١ على ان من يدرس الكتاب حقّ الدرس يعجب اذ يرى ضعف التأثير اليوناني فيه ، ولاسيما تأثير ارسطو ، ويتحقق ان كثيراً من تلك المنسوبات لارسطو هي مرويّات إمّا ان يكون رآها الجاحظ في كتب منحولة للفيلسوف الكبير ، وامّا ان يكون ألّفها من عنده ونسبها الى غيره ، ليجعل لها قيمة القِدَم وقيمة الاجنبيّة ، جرياً على ما هو معروف من عادته في ذلك

وهناك مصادر عديدة للكتاب اخصّها ما وُرد في القرآن والحديث عن الحيوانات التي يذكرها ، وما جمعه الادباء والرواة قبله من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان وصلته بالانسان . ويجب ألّا ننسى ملاحظات الجاحظ الخاصّة وآراءه الشخصية ، وهي تؤلف قسماً لا يُستهان به من حيث الدقة في الفراسة ، والإصابة في الأحكام

اقسامه

من العبث ان يحاول المطالع ايجاد تقسيم مرتّب ، معقول ، لكتاب الحيوان .

١) راجع الروائع : الجزء ١٨ ، ص : ك .

وهو أمر لا نستغربه بعد ان عرفنا عقليــة الجاحظ . اما من حيث الظاهر فيبدو الكتاب مقسماً كما يلي :

الجزء الاول

فيه ١٩٦ صفحة ، يبدأها الكاتب بمقدمة طويلة ، يردّ في اولها على من انتقد كتبه السابقة . وهي ذات قيمة لانها تطلعنا على القسم الكبير من مؤلفات الجاحظ قبل كتاب الحيوان . ثم ينتقل الى ذكر منفعة الكتب على الجملة . فيأتي بتلك المعلومات الوافرة ، والآراء القيّمة في الخط والشعر والآثار[١] . ثم يعرض ملحوظات عامّة عن الانسان والحيوان ، ويبدأ القسم الاكبر من كتابه اي المناظرة بين الديك والكلب .

الجزء الثاني

فيه ١٣٥ صفحة ، يخصّها المؤلف بمتابعة تلك المناظرة ، ويخللها باحاديث وحكايات وحوادث غريبة عجيبة عن كثير من الحيوانات والطيور

الجزء الثالث

فيه ١٦٨ صفحة ، نحو التسعين منها مخصّصة لذكر الحمام يتخللها وصف من يشتهر بصدق الظن ، والمديح بالجمال ، والغضب والجنون ، والفطن والفهم ، وخصال الحَرَم . ثم يفرد الكاتب باباً للذبّان[٢] ، وباباً للغربان ثم للجعلان ، والخنافس ، والهدهد ، والرخم ، والخفّاش

الجزء الرابع

فيه ١٥٦ صفحة ، يبحث في اكثرها عن الذرّ[٢] والقرد ، والخنزير ، والحيّات[٣] والظليم . ثم يبدأ البحث في « النيران وانواعها عند العرب والعجم وفي الديانات وغيرها . »

الجزء الخامس

فيه ١٧٥ صفحة . يتابع في اوله الكلام عن النيران ثم ينتقل الى شرح الآية

١) نشرنا منتخبات وافية من هذا الباب في الروائع (الجزء : ١٨)
٢) يرى المطالع منتخبات من باب الذبّان والذرّ في الروائع (الجزء : ٢٠)
٣) يرى المطالع منتخبات من باب الحيّات في الروائع (الجزء : ١٩)

في « الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً » . ثم يذكر الالوان واختلافها ، والماء ومفعوله ، ثم يعود الى النيران . وبعد ذلك يفرد باباً لمدح « النصارى ، واليهود ، والمجوس ، والأنذال ، وصغار الناس» ولذمّ الأماني . وكأنه يشعر انهُ لم يذكر شيئاً عن «الحيوان» فيعوّض عن سكوته ويخصّص ما بقي للكلام عن اجناس الطير التي تألف دور الناس ، وعن الفار ، والجرذان ، والسنانير ، والعقارب ويستطرد الى ذكر « فضيلة السنور على جميع اصناف الحيوان ما خلا الانسان . » ثم يذكر الحيوانات الآتية : القمل ، الصؤاب ، البقّ والجرجس وما شاكل ، العنكبوت ، النحل ، القراد ، الحبارى ، الضأن والمعز ، الضفادع . وبعد ان يحدّد الفرق بين الانسان والبهيمة ، والانسان والسبع ، يكتب فصلًا في القطا . ويختم بذكر نوادر وأشعار واحاديث

الجزء السادس

فيه ١٧٥ صفحة . يلخّص في اوله كلَّ ما ورد في الاجزاء السابقة . ثم يتكلّم عن الضبّ وصفاته ، ويبدأ بتفسير قصيدة البهراني في الحيوانات ، وقصيدة بشر بن المعمر في الموضوع نفسه تفسيرًا يجاوز الثمانين صفحة يذكر في خلاله من ادّعى من الشعراء انهم رأوا الغيلان وسمعوا عزيف الجن . وبعد ان يبحث قليلًا في الارانب ، يورد اشعارًا كثيرةً في السباع والوحش والحشرات ، وينتقل الى ذكر الثأر عند العرب ، والجبن ، ووهل الجبان ، ثم يتكلم عن الورَل والفهد . ويختم بنوادر واشعار واحاديث

الجزء السابع

هو اصغر الاجزاء ، وفيه ٨٤ صفحة . يبدأها بإحساس اجناس الحيوان ، وبالامثال الواردة في ذلك . ثم يزيد نظريته العامّة وهي « ما يستدلّ به في شأن الحيوان على حسن وضع الله واحكامه وتدابيره . » وينهي بذكر ذوات الظلف ، والزرافة

غرضه – قيمته

على المطالع ان يستنتج من هذه الاخلاط ايّ عبث كان يدفع الجاحظ الى الانتقال من موضوع الى آخر ، ومن حكم الى شعر ، ومن آية قرآنية الى نادرة مضحكة .

ويقرن هذا الى مفاعيل تلك الذاكرة الغريبة ، وتلك التنشئة الادبية المتينة ، وذاك الاسلوب الانشائي الشائق ، فيعلم مبلغ الكتاب من اللذّة والفائدة . من اللذّة اولًا لان الجاحظ لم يكتب قط ليفيد بل ليسلّي . واذا كان ثمّ فائدة فانها تأتي عن طريق اللذة ، وأكاد اقول عن غير قصد من المؤلف

على ان ذاك العبث بالتأليف ، والاختلاط في الافكار ، لم يكن ليمنع الجاحظ من غاية يسير اليها ، وغرض يرمي اليه في كتاب الحيوان خاصةً . ونحن اذا ما تدبّرنا بالروية اكثر فصوله ، رأينا اجتهادًا متواصلًا في تبيان قدرة الخالق عزّ وجلّ ، وفي البرهان على ان الحيوانات الضخمة لا تفوق الحشرات الصغيرة في الدلالة على حسن صنع مسيّر هذا الفلك واحكامه وتدابيره . فهو ينال من هذا القبيل شيئاً لا يُستهان به من الفلسفة الكلامية ، وشرح عجائب المخلوقات . وفضلًا عن ذلك فان المطالع يرى في تضاعيف هذه المجلدات مبادئ أولية بسيطة دون شك ، ولكنها حقيقية ، لكثير من النظريات العصرية عن ترقي الحيوانات ، وتبليدها اي قبولها لمناخ الاقليم الموجودة فيه ، ودرس اخلاقها وعلاقاتها مع البشر خاصةً . بيد ان حبّ الحقيقة يوقفنا هنا ، ويمنعنا عن التهوّر والاندفاع الى القول ان الجاحظ كان من سلفاء علماء الحيوان المشهورين في القرن التاسع عشر ، كما اراد بعض المتحمسين ان يصفوه ، فنسبوا اليه ما هو براء منه ، وحطّوا من معارفهم في العلم والادب

الكاتب

ان كان المراد بالكاتب من اذا شاء طَرْق موضوع ، فكّر فيه طويلًا فاختطّ لنفسه غايةً واضحة ، ورسم تقسيماً جليًّا متسلسلًا ، ثم سار عليه مرتقياً من فكر الى آخر ، ومنتقلًا من مقدّمة الى نتيجة ، لا يحيد عن التقسيم ، ولا يتعدّى الغاية ؛ فقد خسر الجاحظ دعواه واضاع لقب « الكاتب » ؛ وان كان المراد بالكاتب المُنشئ المتضلّع من اللغة ، العارف بمواقع مفرداتها ، الحافظ تراكيبها المدرسية ، مَن اذا رغب في التعبير عن فكر عادي ، اخذ يرصف الالفاظ فيحذف ، ويقدّم ويؤخّر ، وينمّق ، حتى يضحّي المعنى في سبيل اللفظ فيُبرز جملةً متينة السبك ، موجزة الكلام ، موسيقية الوقع ، وان جافّة فارغة ، فقد خسر الجاحظ دعواه

ثانيةً وكان ابعد من ذي قبل عن صفة « الكاتب »

اما اذا اردنا بالكاتب ذاك المؤلف الذي يجبرك على مطالعته ، ويجذبك الى مجالسته، والاصغاء اليه، ولو حدثك عن اتفه الامور وابسط المواضيع ، فليهنأ الجاحظ بلقبه وليتبوأ عرش الآداب في مقدمة كتاب العربية

لا عبرة بكل ما في انشاء الجاحظ من مراجعات معاني ، وترديد ألفاظ ، وخلط في الاقسام ، وخروج عن الموضوع ، ما دمنا حددنا المراد بالكتابة ، اذا ما تكلمنا عن الجاحظ . ولا عبرة ايضاً بما في تعابيره من الجدة والخروج عن الاساليب الموجزة المتينة . وهو لو بقي متّبعاً اياها لما وصلت الجملة العربية الى تلك السهولة والمرونة واحتواء المعاني الدقيقة التي اوصلها اليها الجاحظ

هذا فضلًا عن الفكاهة الفطرية التي اشرنا اليها غير مرة في هذا البحث ، والتي وسمت كل انشاء الجاحظ بتلك السمة الخاصة فرفعته عن الانشاء المدرسي المعروف في جملة ابن المقفع وسهل بن هارون ، دون ان تحطه عنهما من حيث البلاغة ودقة التعبير

واي شيء ادل على روحه الخفيفة وظرفه الجذاب من تلك الانتقالات السريعة من الجد الى الهزل ، او بالعكس ؟ والاستنتاجات غير المنتظرة في موضع يعده المطالع مهماً فيعرضه له الكاتب قابلًا لكثير من الدعابة والعبث . فهو بينا يظهر محدداً تحديداً علمياً ما يُعتبر طيراً وما ليس بطير فيقول: « وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير . قد يطير الجعلان ، والذباب ، والزنابير . . . وغير ذلك ولا يسمّى بالطير . . . » ، اذا به لا يتمالك من ايراد النكتة فيردف: « وجعفر بن ابي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، وليس جعفر من الطير . . . » ثم يعود الى الرزانة العلمية فيتابع : « واسم طائر يقع على ثلاثة اشياء : صورة ، وطبيعة ، وجناح» . ولا يكاد يذكر السنور وشبهه بالاسد ، حتى يجتهد في شرح اصل هذه المشابهة ، فلا يخطر على باله الا خرافة مضحكة ، لا يتردد دقيقة في ذكرها واسنادها الى المفسّرين ، فيقول : " زعم بعض المفسّرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذّوا بالفار . فعطس الاسد عطسةً فرمى من منخريه بزوج سنانير ؟ فلذلك السنور اشبه شيء بالاسد . وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء

بالفيل .» ولا يكتفي بهذا حتى يشرح تلك الحادثة عن لسان كيسان ، ومن المعلوم المشهور مجون كيسان ودعابته ، فيُردف : « قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنّور آدم السنانير وتلك السنّورة حوّاءها . » الى آخر ذلك من النكت وهي وافرة لا تخلو منها صفحة من كتبه جميعها .

وقد يرافقه هذا الروح الهزلي في تصوير الاخلاق فيسمو به الى الإبداع كما في كتاب « البخلاء » ؛ واني لواثق انه لو عرف العرب فن التمثيل في ذاك العصر ، لما كان الجاحظ في « بخلائه » اقلّ دهاء في اختيار المشاهد ، ودقّة في التصوير ، وفكاهة في التعبير من موليير في « بخيله »

واذا اضفنا الى ذلك تعقّل كاتبنا ورزانته عند اللزوم ، وقريحته السيّالة ، وتقاطر الالفاظ الموافقة ، عفواً ، من شقّ قلمه ، مع التوازن في الجملة الذي اكتسبه من استاذه في الانشاء الادبي ابن المقفّع ، ادركنا سرّ ذاك النفوذ الذي ناله ، وعمق ذاك التأثير البعيد الذي احدثه في الاسلوب العربي مدة طويلة . على اننا نأسف جدّ الاسف ان يكون ادباء القرن التاسع عشر نسوا او كادوا مركز الجاحظ في الآداب ، وقدّموا عليه كثيراً من الكتّاب غير المستحقّين . ولعلّ عذرهم في ذاك ان كتب اديبنا لم تكن مطبوعة معروفة . اما اليوم وقد طُبع الشيء الكافي منها ، فقد آن للجاحظ ان يسترجع مكانته العالية ، وان يُعدّ بحق إمام الانشاء العربي

هكذا يجب ان نقدر الجاحظ ! وهكذا قدره كبار الادباء في العصور العبّاسية كما يظهر في حكم ابن العميد الصائب الذي صدّرنا به هذا الدرس والذي نحن به خاتمونه :

قال ابو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ ابي الفضل بن العميد الوزير . فجرى ذكر الجاحظ فغضّ منه بعض الحاضرين وازرى به ، وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قلت له : « سكتّ ايها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله ، مع عادتك في الردّ على امثاله . » فقال : « لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله . ولو واقفته وبيّنت له ، لَنظر في كتبه وصار بذلك انساناً ، يا ابا القاسم ، فكتب الجاحظ تعلّم العقل اولاً والادب ثانياً . ولم استصلحه لذلك » (١

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج : ١ ، ص : ٤٩١ — وياقوت : ارشاد الاريب ، ج : ٦ ، ص : ٧٠ .

انتقاد على الناقدين

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

اتانا من حضرة القس عبد المسيح زهر مقال ممتع جال فيه حول ديدن بعض علماء اللغة وادعيائها في انتقاد الكتّاب والشعراء انتقاداً مجحفاً بحق الانشاء، مضيقاً على اللغة اساليب الانشاء، وقد ضمنه كثيراً من الملاحظات القيمة والافادات النفيسة. على انه لما كان المشرق قد سبق وذكر الكثير من هذه الامور، رأينا ان نقتصر من مقال حضرة الكاتب على الملاحظات التالية:

المعاجم ناقصة

ان الاوضاع سبقت ولا ريب المعاجم. على اننا نجد كلاماً كثيراً مستعملاً في كلام العرب واشعارهم، ولا نجد له اثراً في المعاجم التي تتداولها الايدي. وهذه هي مزلّة قدم لاكثر الناقدين، فانهم متى ارادوا الانتقاد، كلّفوا انفسهم التفتيش عن الكلمة التي يرتابون في وجودها، وعربيّتها، في كتب اللغة ومعاجمها، بدلًا من التنقيب عنها في كتب العرب ودواوين اشعارهم. واذا رأوها خالية عنها، جازفوا في الحكم، وقطعوا بانها لم ترد في كلام العرب، ولم يستعملها الاولون. والامثال في ذلك كثيرة نقتصر على بعضها

من ذلك «الجمعة» بمعنى الاسبوع لم ترد بهذا المعنى في اكثر المعاجم؛ وقد استعملها صاحب الاغاني اذ قال: «سألت الرشيد ان يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه اليَّ بوجه، ولا سبب، لاخلو فيه باخواني، فاذن لي في يوم السبت.»

وهذه «اجواء»، جمع جوّ، ناقصة. وقد وردت في كلام الامام علي: «ثم انشأ سبحانه فتقَ الاجواء، وشق الارجاء، وسكائك الهواء..» وللجوّ معنى آخر لم يرد في كتب اللغة؛ وقد جاء في كلام كعب بن زهير، واراد به البرّ الواسع:

«منه تظل سباع الجوّ ضامزة ولا تمشي بواديه الاراجيل.»

وقال ابن خلدون: «فتشعّبت في ارض الفضاء فصائلهم، وتعدّد في جوّ

القفر افخاذهم وعشائرهم ».

وكذلك « فعيلة » جمعها فعائل بمعنى الافعال ، والفعال . قال عنترة :

«يا عبلَ ان سفكوا دمي ففعائلي في كل يوم ذكرهنَّ جديدُ .»

و«تناسبوا الى احسابهم» – اي انتسبوا اليها . قال الاخطل :

« ولقد تناسبتم الى احسابكم وجعلتمُ حكماً من السلطانِ .»

و«قرَب» – بمعنى قصد الماء . قال الاخطل :

« اذا ما مصابيف القطا قربت به من القيظ اداها السرى وهي لُقّبُ .»

و«البرادة» – على وزن كتابة بمعنى الارسال مع البريد . قال الفرزدق :

« كتبتُ وعجلتُ البرادة انني اذا حاجة حاولتُ عجّت ركابها ،

« ولي ببلاد السرب عند اميرها حوائج جمّات وعندي ثوابها .»

و«تكشفت الشمس» – قال ابن معتوق :

«ارى الارض حالت دونه فتكشفت لمرآه اقمار الدجى والملاعب .»

واذا قلنا ان المعاجم ناقصة ، فنريد التي تتداولها الايدي . وامل المطوّلة لا تخلو من بعض ما ذكرنا .

اغلاط مصلحي الاغلاط

وقد وقع لنا فوائد جمة جمعناها ، واثبتناها ، واحببنا ان ننشرها خدمة لآداب اللغة :

«ائتمر بامره» – زعم بعضهم ان «ائتمر» بهذا المعنى من باب الغلط ، اذ يقال : ائتمروا بزيد اي امر بعضهم بعضاً بقتله . ولكن المصلح غلط في قوله اذ ان صاحب النجعة قال : « ائتمر بما امرته » وقال الامام علي : « يامرون بالقسط وياتمرون به ، وينهون عن المنكر ، ويتناهون عنه

«آنس» – جاء في الضياء : [١ : ٤٨٢] « يؤانس مضارع آنس غلط ؛ والصواب آنس يؤنس ايناساً من فلان ميلاً اليه ، شعر منه بميل ؛ لان الفعل على وزن افعل لا على وزن فاعل . » ولكن الاصح ان « آنس » يكون على وزن افعل وفاعل ، وقد جاء على وزن فاعل في الاغاني : « فما زال يحدثنا ، ويؤانسنا ، بطول طريقنا . » وجاء كذلك في رسالة « ايها الولد » للغزالي : « فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ، ما يدخل في قبره ، ويؤانسه فيه ،

فما وجدت غير الاعمال الصالحة ؛ فاخذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريدًا . »

«باقة» — قالوا لا يجوز القول: باقة زهر ، بل طاقة زهر . على ان الباقة معناها حزمة البقل ؛ وقد استعملها بديع الزمان الهمذاني اذ قال : « يا ابن المشؤمة ، ذهبت بقناطير ، وجئت بأساطير ، لا يبيع بها ذو عقل ، باقة بقل . » فاذا كان يصح القول : باقة بقل ، فلمَ لا يقال : باقة زهر ؟ ولِمَ التعنت والتحكم ؟ .

«جرود لبنان» — يقال: مكان جَرْد ، اي لا نبات فيه . وجمعه جرود . فلمَ لا يجوز استعماله ؟ ولِمَ نغلط اذا قلنا : جرود لبنان ، بدلًا من صرود لبنان .

«خونة» — ان فاعل السالم يجمع على فَعَلة ، نحو ظالم ظَلَمة ، وعابد عَبَدة ، وكامل كَمَلة ، وساحر سحرة . قال ابن مالك « وشاع نحو كامل وكملة . » ولكن هل يجمع الاجوف على وزن فعلة ؟ لسنا نعلم . غير ان اليازجي استعمل « خوَنة » في نجعته . وجاء في اقرب الموارد جمع خائك حاكة وحوكة . فاذا كان منقولًا عن ثقة صح جمع خائن خوَنة . والّا فلا .

«ادمن» — هل يتعدى مباشرة ، ام بالحرف ؟ الاول اشهر . ولكنه قد ورد في الاغاني متعدياً بالحرف : « فجعل يذكر الوليد بن يزيد ، وتهتكه ، وادمانه على الشراب ، ويذكر ذلك في مجلسه ، ويقوم ويقعد به . » فهل هذا من غلط النساخين ، ام من باب تعدية الفعل بالحرف مرادفه ؟ .

«ترامى الينا» — قال الشيخ ابراهيم اليازجي في نجعته : « ترامى اليّ » وانكره بعضهم . فمن هو صاحب الحق يا ترى ؟ .

« ريح ، ارياح » — ريح جمعها رياح . ولكن « ارياح » هل هو صحيح ام غلط ؟ . لا ريب في ان رياح وارواح هما الجمعان المشهوران . ومع ان ارواح جمع روح فهو ايضاً جمع ريح باعتبار الاصل وقد جاء في كلام الشعراء . قال عنترة :

« وكسا الربيع ربوعها انواره لمّا سقتها الناديات عهودها »
« وسرى بها نشر النسيم فعطّرت نفحات ارواح الشمال صعيدها . »

وقال زهير ابن ابي سلمى المزني :

« قف بالديار التي لم يعفها القدم   بلى وغيرها الارواح والديم ٌ. »

ولكن هل يجوز استعمال ارياح ؟ ربما جاز باعتبار الحال . ان الالفاظ التي على هذا الوزن قليلة جداً . منها : جيز ، وزير ، وعيد ، وقيل ، وليث ، اسم نبات ، ونيم . فجيز ، وقيل ، وليث ، ليس لها في اقرب الموارد جمع . امّا « زير » فلها جمعان : ازوار ، باعتبار الاصل ، وازيار ، باعتبار الحال . غير ان « عيد » جمعها اعياد ، لا اعواد . فاذا كان العرب ، والفصحاء لم يستعملوا « ارياح » فهل استعمالها يكون من باب الغلط ، او من باب القليل النادر ؟

«زيجة» — ذهب الشيخ ابراهيم اليازجي الى ان استعمال زيجة غلط ، والصواب الزواج . الّا ان هذه الكلمة وردت في الاغاني ، في حكاية « اللصان ابو حردبة وشظاظ » : « مرّ بالقبر الذي انا فيه ، فوقف عليه ، وقال لرفيقه : والله لانزلنّ الى قبر فلان ، حتى انظر هل يحمي الآن زيجة فلانة . » فكانها اسم النوع من زَوَجَ ، اعلّت بقلب الواو ياء فصارت زيجة ، واصلها زوجة .

« اسدى » — يقال اسدى فلان الى فلان معروفاً ، ولا يقال اسدى اليه شكرا . ولسنا نعلم سبب هذا التحكم . قال نُفيل بن مرة العبدي :

« بنيَّ اسمع مني هديتَ ، وصاتيا   ولا تكُ عنها مدة الدهر ساهيا !

« اذا ما امرؤٌ اسدى اليك امانة   فأوفِ بها ، ان متَّ سمّيتَ وافيا . »

وقال ابن سينا في « كتاب السياسة » : فالرفيق المتثبت لا حوز عليه فضل ما يسديه نصحك . » فاذا كان يقال : « اسدى اليه معروفاً ، واسدى اليه امانة ، واسداه نصحاً » ، فلمَ لا يقال اسدى اليه شكراً ؟ بل من وقف على كلام العرب باجمعه ، حتى يعرف هل نطقوا بهذا التعبير ، او لا ؟ .

«سيّد» — جمعه سادات وسادة ، وقد جمع المتنبي الجمعين في قوله :

« سادات كل اناس من نفوسهم   وسادة المسلمين الاعبد القزم . »

ولكن هل يجمع اسياد ؟ قال الشيخ ابراهيم اليازجي : « اسياد من لفظ العامة » الّا اننا عثرنا على هذا الجمع في قول النمر بن تولب :

« ابقى الحوادث والايام من نمر   اسياد سيف كريم اثره بادي . »

«تطوّر» — اغلب كتابنا يستعملون هذا الفعل . الّا ان بعض الناقدين قال :

« لم يسمع وزن تنعّل من هذا الفعل . » ولكن ابن خلدون استعمله قبلنا باجيال اذ قال : « فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوّروا بطور الحضارة والترف في الاحوال . » فان لم يكن من كلام العرب ، فهو من المولّد ؛ والمولّد كثير في اللغة . ان التشبث بهذه الترهات لما يؤخر اللغة ويعيق تقدمها .

«فضاء» — زعم بعضهم ان الفضاء لا يطلق على الجوّ؛ فلا يقال: فضاء صافي الاديم . ولكن المنتقد يظهر بهذا القول جهله باللغة . اننا اذا فتشنا عن هذه اللفظة في المعاجم ، وجدنا معنى الفضاء مـا اتسع من الارض . الّا ان العرب استعملوها بمعنى الجوّ . قال القزويني : « ان لم يكن في فضاء الافلاك ، وسعة السماوات خلائق ؛ فكيف يليق بحكمة الباري تركها فارغة ، خاوية مع شرف جوهرها . » وقال الامام علي : « ونعمت في اسماعنا دلائله على وحدانيته ، وما ذرأ من مختلف صور الاطيار ، التي اسكنها اخاديد الارض ، وخروق فجاجها ، ورواسي اعلامها ، ذات اجنحة مختلفة ، وهيـآت متباينة ، مصرّفة في زمـام التسخير ، ومرفوفة باجنحتها ، في مخارق الجو المنفسح ، والفضاء المنفرج. » .

واستعملها حاتم الطائي بمعنى الفجوة التي بين البيوت :

« وابرز قـدري بالفضاء قليلهـا يرى غير مضنون به ، وكثيرها . »

وقال الغزالي : « يلجئون الى ما يشرحهم من النظر الى السماء ، وسعة الفضاء . »

«مارّة» — قيل : جمع مارّ مرّرَة لا مارّة . قال ابن خلدون : « ومنع كل من اخاف المارّة ، ومنع الخفارة لاولئك الشطّار . »

«وصل» — يقال : وصل الى المكان ؛ ولكن ابن خلدون يستعمل هذا الفعل متعدياً : « ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب . »

« اوقف نفسه » — قالوا : لا يقال اوقف نفسه على خدمة الاداب ، والعلم؛ بل وقف نفسه . على ان ابن خلدون يستعمل اوقف لا وقف . قال : « وبعثه الى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم . »

هذا ما رأينا وجوب التنبيه عليه في هذه المقالة ، حرصاً على سلامة اللغـة من عبث المنتقدين ، ورغبة في كشف القناع عن وجه الصواب ، والسلام.

مجلة المجلات

بقلم الاب لامنس اليسوعي

حلب في القرن العشرين ق.م. — جبيل قبل القرن العشرين ق.م. — اصل المونوثيلية — البطريرك مكاريوس الانطاكي — المستشرقون وتاريخ الاداب العربية — القرصان في ايسلاندة — الاحصائيات الاسلامية في الهند — الابجدية اللاتينية عند الاتراك

نوهنا بهذه الاسطر الى بعض ما رأيناه في المجلات الاوربية متعلقاً بتاريخ الشرق:

حلب في القرن العشرين قبل المسيح

وضع الاب دورم الدومنيكي في مجلة «سورية» Syria(1927, p. 31etc.) مقالاً في اقدم تاريخ معروف لمدينة حلب قال:

انها مدينة عريقة في القدم ولا يختلف في ذلك اثنان. لكن الكتابات الهيروغليفية المنتهي امرها الينا لم تكن ترقى بتاريخ حلب الى ما قبل القرن الخامس عشر قبل المسيح، حتى هذه الآونة الاخيرة اذ تمكن العلماء من قراءة الكتابات الحثية، فاستفادوا منها: ان تاريخ حلب يرقى الى ما قبل المسيح بعشرين قرناً فزادوا اذاً على عمرها خمسة قرون.

وكانت حلب آنئذٍ تدعى باسمها الحالي، وكانت مركزاً لمملكة زاهرة، وهي على طرف الحدود الشمالية تقي الشعوب السامية غارات الحثيين، وتحامي عن وادي العاصي وعن سورية الداخلية

جبيل قبل القرن العشرين قبل المسيح

قد يعرف قراؤنا اسم مسيو بيير مونته وقد تهمهم امر اكتشافاته الرائعة في جبيل. فقد بينت ان العلاقات بين مصر وجبيل كانت متصلة العرى منذ القدم. وكانت مصر قد تركت لتلك المدينة حكومتها الوطنية. على ان المسيو مونته اكتشف مؤخراً كتابتين وجيزتين بالهيروغليفية، اصلهما من جبيل جاء فيهما

ان التغيير طرأ على جبيل في ايام الدولة المصرية الثانية عشرة ، اذ ولّت مصر على جبيل رجلاً مصرياً ابن مصري ومتزوجاً مصرية ؛ وذلك لاسباب نجهلها . وكلما اعرق النقابون في درس التاريخ القديم وعالجوا قراءة الكتابات الهيروغليفية، ثبتَ لهم ان مدينة جبيل كانت في الالف الثالث قبل المسيح تفوق عمراناً مدينتي صور وصيدا وكان التفوق على ذلك العهد للعناصر السامية في فلسطين وسورية (cf. Syria, p. 217, 231)

اصل المونوثيلية

ان مجلة صدى الشرق (Echos d'Orient) لغزيرة الفوائد بكل ما ينوط امره بتاريخ الكنائس الشرقية، وقد اخذت تنشر منذ كانون الثاني ١٩٢٨ سلسلة مقالات في تاريخ المونوثيلية

ومعنى المونوثيلية في مباحثها مأخوذ على سعته اي بكونه يشمل التعليم القائل «بوحدة العمل ووحدة الارادة في المسيح» وان هذه المسألة اصلها غامض ولم يتوفق احد بعد الى تعيين تطوّرات نشأتها الاولى . فاخذ صاحب المقال على عاتقه ان يعالج هذا المشكل ، مبتدئاً بتاريخ القرارات العديدة التي اصدرها هرقل امبراطور بيزنطية في ذلك الموضوع معيناً زمان ظهورها . وسوف يُتاح لنا ان نلخص لقراء المشرق النتائج التي ينتهي اليها المؤلف عند اختتام مباحثه

البطريرك مكاريوس الانطاكي

وقد ظهر في العدد ذاته من المجلة نفسها (ص: ٤٨ وبعده) بحث في مكاريوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي (١٦٤٧—١٦٧٢) فيه ترجمته مع ذكر مؤلفاته الادبية وعلاقاته مع رومة . وكان مكاريوس متزوجاً ورزق ابناً قبل ترقيه الى المطرانية . وكان سوري الاصل عربي اللغة يجهل اليونانية وما تعلمها الا بعد جلوسه على الكرسي البطريركي ،. وفي زمان اقامته في بلاد رومانية اذ كان قاصداً منها الى روسية . هذه افادات بلغتنا عن بولس ابنه ورفيقه في اسفاره وقد وصف رحلته الى روسية . فلم تكن اذن اليونانية على مدى الزمان لغة الملكيين الطقسية في سورية ، وقد سبقنا وبرهنا على قولنا هذا

في المشرق (٣ [١٩٠٠] : ٢٦٧) وكانت عرى الصداقة والمودة تربط مكاريوس بسائر الطوائف والمرسلين الكاثوليك . وجرت مخابرات وتحارير بينه وبين البابا اسكندر السابع ، وبينه وبين ملك فرنسة لويس الرابع عشر . على انه تردد في اعلان انضمامه الى الوحدة الرومانية وابى الا ان يُبقي امر علاقاته مع الباباوية سرياً وظل كذلك حتى وفاته

المستشرقون وتاريخ الاداب العربية

ما اشد اكتراث المستشرقين لآثارنا الادبية ، وما احرصهم على الالمام بسائر ما يؤول امره الى توسعة معارفنا التاريخية . لقد تعرفنا منذ عشرين سنة الى السيد اغناطيوس كراتشكوفسكي المستشرق الروسي ايام اقامته في كليتنا في بيروت . وها هو قد نشر في مجلة العالم الشرقي الاسوجية (Le Monde Oriental Upsala 1927 p. 103-213;) مقالاً في تاريخ الاداب العربية من العام ١٨٩٠ الى ١٩١٠ اظهر فيه طول الباع والتضلع من العلوم العربية اذ عرض الذكر آداب المهاجرين العربية وانتشارها ومكانتها في الحركة الفكرية ، مع ما يلحق بها من مطابع ومنتديات ، في سان باولو ، وشيكاغو ، ونيويورك ، وريو دي جانيرو حيث تمثل الروايات على مسارح عربية . ولفت الانظار الى امين خير الله احد المهاجرين وهو صاحب ملحمة شعرية موضوعها حريق مدينة سان فرنسيسكو (كليفورنية) وقال ان قوة الابتكار والاجتهاد في معالجة المواضيع الجديدة ، المأخوذة عن آداب اوربة واميركة ، لم تظهر الا في الناشئة الحديثة من المهاجرين الذين تمموا دروسهم في اميركة . ثم خص بالبحث بعض المهاجرين السوريين وهم : امين الريحاني ، وجبران خليل جبران (الشاعر والناثر والمصور) وشكري الخوري صاحب الملح والطارف والمواضيع المأخوذة من الحياة اللبنانية والمسبوكة باللغة العامية الطيبة

وعالج الموضوع ذاته المسيو «ه . جيب» الاستاذ في جامعة لندن في مجلة المعهد الشرقي (Bulletin of the School of oriental Studies.—London vol. IV p.745-760) وتوسع في الكلام على تاريخ الاداب العربية العصرية فاعرب عن اسفه لاشتغال المستشرقين عنها في التبحر بدرس الادب القديم ، وقال

ان جلّ ما انتهى اليه جهد العاملين في هذا الصدد هما مجلدا المأسوف عليه كثيراً المرحوم الاب شيخو ، وعنوانها « الآداب العربيـة في القرنين التـاسع عشر والعشرين » وبيّن المسيو جيب ان للنهضة الحديثة مركزين احدهمـا في مصر والثاني في سورية وكلاهما مدينان لاوربة بما نالاه من تأثيراتها وهي كثيرة. وكان لبنان المسيحي اول من مشى في طليعة النهضة الادبية في سورية وذلك بفضل المدارس الاجنبية

وقد تنازع ارباب النهضة عاملان : عامل الغيرة على القديم ، وعامل الغيرة على الجديد ، فكان دأب المحافظين على القـديم الحرص على تقاليـد السلف واقتفاء امثالهم فيما وضعوه من جيد المؤلفات وفي مقدمتهم اليازجيـان ناصيف (١٨٠٠-١٨٧١) وابراهيم (١٨٤٧-١٩٠٦) فإنهما من غير مـا يُقلّدا زمـام الزعامة حالا دون الكتبة السوريين وسلوكهم الأعمى سبيل الافرنج فالجأاهم ألا يقتصروا على التقليد والنسخ واضطراهم الى الابتكار. اما المحدثون وممثلهم بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) فقد احرزوا لسورية المكانة الاولى في الاداب العربية في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر (وجـه ٧٥٠) وكان السوريون من العملة الغيورين على نشأة الصحافة العربية وانمائها . فانها بفضلهم قطعت في مصر شوطاً بعيداً في سبيل الرقي، وروح الحياة ونسمة الابتكار تفوح من طياتها. وما نقوله في الصحافـة يطلق على المجـلات السورية المحررة في مصر . ومن رجالها من ادهشنا بخصبه في التأليف كجرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) صاحب الروايات والمؤلفات المتنوعة ومن حذا حذوه ، وظهر محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) فقبض على عنان الحركة الادبية في مصر . وبينما كان الحكم الحميدي وتعصب فتيان الاتراك على اللغة العربية يحاولان اطفاء حركة الجنسية في سورية كانت قد نشأت حركة الادب بين المهاجرين ودفعتهم فبرزوا في ميدان التأليف كما ذكرنا سابقاً

القرصان في اسلاندة

كان القرصان يخرجون من الجزائر ومن مراكش فيغيرون على جنوبي اوربة البحرية ، ويعودون من غزواتهم بالاسرى من رجال ونساء يبيعونهم رقيقـاً ،

وكثيراً ما كان الشقاء واليأس يحمل هؤلاء البائسين على اعتناق الاسلام . وان اخبار القرصان معروفة شائعة لكنه لم يبلغنا حتى اليوم ان القرصان شقوا في حملاتهم عباب البحار حتى وصلوا الى جزيرة ايسلاندة ، وموقعها في اقاصي البحر شمالي اوربة وهي تثوي تحت حجاب كثيف من الثلج سحابة نصف العام.

جاء في رسالة قرئت في « مجمع بلجكة الملوكي » ونشرت في مجلة « فئة الادب» (Bulletin de la Classe des Lettres 1926, n°11-12, p.252 etc.) ان بعض القرصان الجزائريين احتلوا اسلاندة سنة ١٦٢٧ وكان اسطولهم مكوناً من اربع سفائن: ثلاث جزائرية وواحدة مراكشية، فسبوا من سبوا وعادوا باربع مئة من الاسرى ذبحوا منهم خمسين وباعوا الباقين عبيداً . واهتمت اسلاندة لامر هؤلاء المساكين فاكتتب الناس بالحسنات وافتدوا منهم زهاء ثلاثين.

الاحصائيات الاسلامية في الهند

اليك ما وقفنا عليه من التعليمات الحالية عن حالة المسلمين في الهند الانكليزية أخذاً عن المجلة «العالم الاسلامي» (The Moslem World; Avril, 1928 p.114 etc.) ، ان اكثر المسلمين فيها سنيون ، وما بينهم ٥٨ مليوناً من مذهب ابي حنيفة ومليون واحد من المذهب الشافعي وتسعة ملايين ونيف حنبليون واسمهم في الهند «اهل الحديث» و٥ ملايين ونيف شيعيون . اما الاسماعيليون فهم الاقل عدداً وينقسمون الى داوديين وسليمانيين والى الخوجه وهؤلاء ينتمون الى اغا خان كسائر اسماعيلي سورية (في قدموس ومصياف الخ).

وعدد الأميين بين مسلمي الهند يفوق عددهم في سائر الاديان . واليك جدول بعض الاحصاءات :

الهنود المسيحيون	منهم ٣٢	بالمئة	يقرأون ويكتبون
الهنود الوثنيون	« ١٥	«	«
الهنود المسلمون	« ٨	«	«

اما المسلمات الهنديات فليس فيهن من تقرأ وتكتب الا الواحدة بالمئتين.

وكانت في العام ١٩٢٠ المدارس الابتدائية للمسلمين في الهند عدد تلامذتها ١٨٢٥٠٠٠ منهم ٢٨٥٠٠٠ من الاناث فقط ولم يكن لهم سوى ١٤ مدرسة

ثانوية وعدد قليل جداً من الكليات او المعاهد العالية . لكنهم اسسوا جمعيات عدة لنشر الدعوة الاسلامية .منها «جمعية التبليغ» «والتنظيم» «وخدام الكعبة» الخ. و«الجمعية المحمدية» وهي الانشط بين سائر الجمعيات . وقد اهتم مسلموا الهند بامر الخلافة اهتماماً عظيماً . أمّا امر تحرير المرأة والحجاب والسفور وتعدد الزوجات فلا يكترثون له كاخوانهم في سائر البلاد .

الابجدية اللاتينية عند الاتراك

في مشرق شباط الماضي ، تحدثنا الى القراء في قضية الابجدية التركية ، والاستعاضة فيها عن الاحرف العربية بالاحرف اللاتينية وذكرنا مؤتمر باكو المنعقد في ربيع ١٩٢٦ وقراره باكثرية الاصوات استعمال الابجدية اللاتينية . وكان ولا بد من اقناع الشعوب التركية بقبولها وقد بلغنا عن مجلة المباحث الاسلامية (La Revue des Etudes islamiques ; 1927, p. 321-353) انهم عهدوا بالامر الى لجنة مهمتها نشر تلك الابجدية في الشعب فوزعوا من ثم كميات وافرة من الاحرف اللاتينية ، يبلغ وزنها الوف الكيلو لطبع الكتب وللآلات الكتابة وكانوا قد اوصوا عليها في اميركا .

وقد رحبت بلاد اذربيجان بالاحرف الجديدة ، وتهافت الناس عليها حتى اصبح من المقرر ان تركها مستحيل وقد اخذ اكثر من ١٢٠٠٠٠ من السكان يتعلمون الكتابة بالاحرف اللاتينية . وصاروا يلقنونها الاحداث في المدارس . وطبعوا بها ٥٣ كتاباً . والموظفون اجمعون ملزومون باستعمال الابجدية الجديدة . وكان التقدم في هذا السبيل بطيئاً في البلاد الخارجة عن اذربيجان وقد حالت دونه مقاومة العلماء . على ان رجال الاصلاح اعتمدوا خاصة على معلمي المدارس لنيل غرضهم ، وفتحوا مكاتب لتلقين المعلمين اسلوب استعمال الابجدية اللاتينية . ومنعوا في اذربيجان المجلات التعليمية والكتب المدرسية عن الصدور ألّا بالابجدية اللاتينية منذ سنة ١٩٢٨ . امّا في سائر الجمهوريات التركية الواقعة في آسية الوسطى فالآمال معقودة على ان لا تخلو الاربع او الخمس سنوات الا وتكون بلغت فيها حركة الاصلاح الشأوَ الذي انتهت اليه اليوم في بلاد اذربيجان .

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الاول

قصر الشربين

أغصان مشوّشة ، متشعبة ، يتراوح لونها بين الخضرة والسواد ، تعصف عليها الرياح الهوج ، فلا تنال منها سوى ثمراتها الكروية الصغيرة ، فتدحرجها ككلل الاطفال على الصخور المنحدرة !

جذوع برشاء ترتفع عمودية ، متقابلة ، ملساء ، تغمرها الثلوج الغزيرة ، وتنتابها فأس الحطّاب الحادة، فلا تظفر منها بسوى القشور الطفيفة تتطاير وتتناثر !

جذور دكناء ملتفة ، مشتبكة ، تتزاحم تحت الثرى ، طالبة سعة المجال؛ فتدفع الحصى ، وتفلق الصخور ثابتةً على ممرّ الاجيال !

هي تلك الشجرات القليلة العدد، الهيبة المنظر ... بقيت في اعالي دير القمر اثرًا خالدًا من غابة الشربين القديمة التي كانت تحرس بظلالها الوارفة قصر الشيخ قعدان ابو غانم.

قصر الشربين ، او قصر بو غانم ، كان بناء مستطيلًا على الطراز الشامي ، بواجهة ضخامتها اوفر من جمالها ، لما رُصف فيها من الحجارة الكبيرة المتلاصقة.

وكان في صدر الواجهة رتاج عظيم تعلوه عتبة منقوشة من المرمر المعرّق ؛ وفوقها صفّ منظم من الحجر المصقول تتخلله بعض حجارة عكار الحمراء المصفرة. وكان الصفّ يؤلف قاعدةً لمثلث متساوي الأضلاع ، يفتح نافذة لمجرى الهواء ، ويتصل رأسه بجنية بارزة تمنع قطرات المطر عن الرتاج . وعن الجانبين أسدان أصفران مهيبان ، رفعا ذنبيهما بعجب واختيال الى فوق الرأسين ، ونظرا الى الداخلين بعيون ملؤها الغضب والشراسة . اما الباب فكان وافر السماكة من خشب السنديان الملبّس برقائق التوتيا ، وقد غرست فيه ، على خطوط أفقية متوازية ، مسامير سوداء ضخمة الرؤوس. وجُعل في المصراع الأيمن باب صغير ، لأن الباب الكبير لم يكن يُفتح الّا في الاحتفالات الرسمية.

وكان الداخل ، يمرّ في دهليز مستطيل ، سقفه من العقد المصالب يستند الى ركائز ضخمة قصيرة متقاربة تمنع دخول النور والهواء الجافّ ، فتحفظ ليلاً ونهارًا ، رطوبةً مزعجةً ، وظلاماً يكاد يكون متساوياً. وعن جانبي الدهليز كان ديوانان من الحجر يجلس عليهما الخدم ومن ينتظر مقابلة الشيخ. واذا ما تجاوز الداخل هذا الممرّ ، كان لا يملك جفونه ان تطرف شديدًا ، لسرعة الانتقال من الظلّ المظلم الى النور المتألق بانعكاس اشعّة الشمس على تلك الدار الفسيحة البيضاء. فكان يفرك عينيه قليلاً، ثم يحدّق فيرى امامه، في وسط صحن الدار، بركة مستديرة ، قريبة القعر ، تتدافع فيها امواه الشالوط المجرورة في قناة صغيرة من الفخّار . وتجاه البركة قاعة الاستقبال ترتفع عاليةً عن باقي الغرف تنتهي بقبة بيضوية الشكل تحيط بها النوافذ العديدة ، وقد قسمت الى جانبين فسيحين ، وبُني في مؤخرها كشك صغير ، على طراز سراي الامير يوسف.

في هذا الكشك كان يقضي الشيخ قعدان بو غانم باقي ايامه ، فيشرف على قيسارية الحرير من جهة ، وعلى سراي الامير من جهة اخرى ، ويراقب الحوادث الاخيرة ، تارةً يفرح لذكرى ما اتاه من افعال البطش ومظاهر البطولة في ايامه السالفة ، وطورًا يقلق لحراجة موقف الامير بشير تجاه الجزّار وابناء الامير يوسف ، ويتأسف لعجزه عن مساعدة ابن صديقه الامير قاسم . وكيف يمكنه ذلك وقد كلل الشيب هامته ، واثقلت كاهله الثمانون بما جرّت عليه من

متاعب الحروب ومشقاتها ، ومن عظمات الانتصارات وتأثيراتها . فلم تعد رجلاه تحملانه على ظهر الادهم ، ولا يده تقوى على تحريك البندقيّة ، ولا كتفه على نقل الرمح . فرزح خاضعاً لاحكام الله ، مشغلاً فكره بفهم ملاوي السياسة ، مادًّا بآرائه الصائبة حزب الامير الشاب ، مؤملاً ان حفيده غانم يكون افضل خلفٍ له في مساعدة اميره ، فيسعد جدّه في آخر حياته ، ويوفر له الموتَ براحة وسكون .

***

كانت اشباه هذه الخواطر تتلاعب بمخيلة الشيخ ، وهو متكئ في كشكه ، مساء الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٧٩٣ ، وقد حرج موقف الامير بشير في الجبل ، وتوالت عليه مطاليب الجزّار ، واشتدّت مضايقة السرعسكر له . على ان اخبار فوزه على محالفي ابناء الامير يوسف ، وضبطه ما كانوا خبأوه من الكنوز في سراياتهم وفي الاديرة ، مع تغريم النكديّة بخمسين الف غرش ؛ كانت تبعث بوارق الامل في ذاك الجوّ المدلهمّ . فيفرح الشيخ قليلاً، ويلهو بلحيته دقائق ، ثم يجّ طويلاً في ماسورته ، فيندفع الدخان متكاثفاً بين شاربيه . ولكنه لا يلبث ان يتلاشى متقطعاً في مهبّ الهواء ، فيبدو الافق البعيد ، ويرى الشيخ قرص الشمس يبعث آخر دفعةٍ من انواره على قمم الجبال ، ويبط نقطةً حمراء ، في بحر الدامور الاغبر . فتتراكم اذ ذاك الغيوم الدكناء ، ويتقدم الظلام رويداً رويداً سادلاً على البلاد جماء ستر السكون والسكوت . وكأنّ الشيخ رأى مماثلة بين نهاية ذاك النهار المؤثرة ونهاية حياته الطويلة ، وشعر بعجزه عن نصرة اميره الشابّ ؛ فترك حبل الرجاء، واندفع غائصاً في بحار اليأس لا يفكر في شيء واضح . وظلّ في جلسته تلك حتى طفئت ماسورته ، واثقل النعاس جفنيه ، فلم يحسّ بنسيم تشرين النافح ؛ ولم يستفق الّا على صوت جهير ملأ صحن الدار صائحاً :

— يا شيخ بو غانم ! . . . اين اهل الدار ؟

فهبّ الشيخ مسرعاً ، وقبل ان يقف اجاب بكل قواه :

— تفضّل ! تفضّل !

وظهر في الظلّ شبح رجل يميل الى الطول ، يتخطى القاعة بقدم ثابتة ، ووطأة شديدة . وما ان وصل قرب الشيخ حتى وقف قليلاً وضمّ اطراف عباءته ، وقال :

– اسعد الله مساء العم بو غانم !

فوقف الشيخ متمهلاً ، متفرساً في وجه الزائر . ثم اشار بيده الى الديوان في صدر الكشك ، واجاب :

– ومساءك . . . يا معلّم نقولا ! تفضّل !

وصفق بيديه صائحاً :

– برباره !

فاتت الخادمة وانارت مسرجةً من الفخار ، غمست في زيتها عدة فتائل قطنية ، ورُفعت على شمعدانٍ من النحاس المنقوش . ثم اغلقت نوافذ الكشك ، فهدأ اضطراب النور . وظهرت ملامح الزائر فاذا هو شابّ في سن الثلاثين ، خفيف العارضين ، برّاق العينين ، حسن الشعر قد كلّله تحت طربوش مغربيّ قصير ، وارتدى ، تحت العباءة القصبيّة ، جبة طويلةً سوداء مصقولة ، شدّها في وسطه بزنار حرير عريض ، وشكّ في الزنار ، لجهة اليسار ، دواة مستطيلة من النحاس الاصفر ، ولجهة اليمين ، خنجراً معقوفاً كانت تلمع قبضته المرصّعة . هو لباس العلماء في ذاك العصر . وما كان الزائر سوى نقولا الترك ، كاتب الامير ، وشاعره الخاص فيما بعد . فطرح العباءة على الديوان ؛ ثم خلع حذاءه والقاه في الزاوية جنب الباب ، ورجع فارتمى قرب الشيخ ارتماء التعب المنهوك .

وما انصرفت الخادمة حتى تحرّك الشيخ في مركزه قايلاً ، ومال بكليّته الى الزائر ، وقال بصوتٍ يلهثه الرجاء ، ويقطّعه الخوف من سماع ما يكره :

– الحمد لله على السلامة !

– سلّم الله عمرك ! رحلة متعبة والله

– واين تركت الامير ؟

– تركته في جهات حمأنا . كان قد كمن له المتنيون في خان الكحّالة ، واطلقوا الرصاص غدراً على مؤخرة العساكر فقتلوا بعضهم . فعاد اليهم الامير

برجاله فبددهم بعد ان القى منهم عشرات القتلى . ثم قام من هناك الى العبادية فنهبها ، وقتل عددًا كبيرًا من اهلها لانها كانت بؤرة الفساد ، ومجمع احزاب اولاد الامير يوسف . وكان فيها من ودائع تجار بيروت ما لا تقل قيمته عن الثلاثة آلاف كيس ، فغنمها الامير وفرّق الكثير منها على العساكر . ومن هناك سار الى بحمدون فاخضعها ، وكذلك راس المتن.

– سمعنا هنا ان اهل المتن طلبوا اولاد الامير يوسف ، وان الامير حسينًا قدم الى بعبدات بعسكر جزّار من بلاد جبيل وكسروان والقاطع .

– كل هذا صحيح. ولكن كيف تقاوم رجال الامير حسين عسكر الجزّار وعسكر الأمير البالغ عدده ستة آلاف من اشدّ الابطال . هذا فضلًا عن ان المتنيين لما رأوا بطش اميرنا ، أيده الله ، خذلوا الامير حسينًا ولم يساعده احد. فلزمه ان يرجع من حيث اتى. وتقدّم الامراء اللمعيّون الى الامير بشير فاعطاهم الأمان .

– اذن كل شيء على طبق المرام !

وانفرجت ملامح الشيخ ، وبدا بريق الأمل في عينيه ، فصفّق بشدة حتى اتى احد الخدام ، فقال :

– اشعلوا الغلايين ، واحضروا القهوة حالًا !

اما المعلم نقولا فلم يغيّر جلسته ، ولم ينبض عرقٌ في وجهه ، بل بقي مظهرًا جدّ الاهتمام وتابع :

– ولكن المسألة لا تزال معقدة . ولا يهمّنا الآن الانتصار في الحرب بل الانتصار في السياسة. لانّ المركة انتقلت من لبنان الى عكا . . . وشعر الجزّار ان الامير سائر على طريق الظفر فاحبّ ان يستفيد منه. ووافق ذلك ان الشيخ قاسم جنبلاط اعطاك عمره في عكا. .

فقطّب الشيخ بو غانم ، واطرق مفكرًا ، ثم تمتم :

– ولا شكّ ان الجزّار سوف يطلب رهينة عوض الشيخ قاسم.

– طلب رهينتين بدل الرهينة . طلب اولًا الشيخ بشير ابن الشيخ قاسم ، ثم شيخًا آخر من وجهاء دير القمر . . مع ثلاثمائة الف غرش ، يلزم الامير ارسالها

قبل سفر الجزّار الى الحجّ ، اي قبـل كانون. والّا فهو يعزل الامير ، ويخلع على الامراء ابناء الامير يوسف . هذه هي المصائب التي لم تكن في الحسبان. وقد تركت الامير في حمّانا ، واتت قبل ان يعلم بالامر احد ، عساني اتوفّق الى حلّ هذا المشكل.

وكان الخادم قد اشعل ماسورتين فقدّمها . ثم احضر القهوة فتناولاهـا صامتين. والخادم جامد كالصنم يستمع صوت رشف القهوة ، ويرى كلل الدخان المرنة تتصاعد بين الرشفة والرشفة.

واذ وضع الشيخ الفنجان ، مسح شاربيـه ، وتنحنح ، ثم مجّ طويلًا في غليونه ، وقال بتمهّل :

— في صندوقي خمسون الف غرش كنت اعددتها لحفيدي غانم ، يتبلّغ بها بعد وفاتي حتى يفتح الله عليه بمصلحة . واني مستعدّ لبذلها في سبيـل اميرنا . يبقى اثنان وخمسون .

— لقد غرّم الامير النكدية بخمسين الف غرش. وقد يكون جمع مما وجد في سرايات الامراء ، ومخبّآتهم في الاديرة ، ومن الغنائم نحو المئة الف.

— بقي علينا اذن مائة الف غرش

واطرق مفكرًا عدة ثوانٍ ، ثم رفع رأسه متهللًا وقال :

— وجدتها ! افتح دواتك واكتب كتاباً عن لساني ، الى صديقنا وعزيزنا الامير جهجاه في بمذران ، نعرض عليه المسألة مع توصيته بحفظ السرّ ، ونطلب مساعدته ، فلا يتأخر .

— وهل تظنّ ان عنده هذا المبلغ نقدًا ؟

— كيف لا واملاكه في رأس بعلبك ، وسهل البقاع ، تدرّ عليه مئـات الاكياس سنويًا !

— اخاف ان يقع المكتوب بيد عدوّ ، فتُعرف المسألة ، ويتزعزع موقف الامير .

فتوقف الشيخ ، وتذكر ان الامير جهجـاه لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه ثبت على عزمه وقال :

ـ انا أرسل المكتوب مع حفيدي غانم، تلميذك ، وهو يقرأه للامير ، ولا خوف من افتضاح السر .

عند ذلك اخرج المعلم نقولا من صدره ربع ورق ؟ وفتح دواته ، بعد ان سحب من جارورها قلماً دقيقاً من القزاز . وتناول سكينه فقط القلم ، ومسحه بالليقة . ثم كبسه قليلاً على ظفره وبدأ بالكتابة ، والشيخ يملي عليه :

«من الشيخ قعدان بو غانم الى صديقه صاحب السعادة المير جهجاه حفظه الله معلوم لدى سعادتكم الحالة الحرجة التي موجود فيها امير البلاد ومولى العباد المير بشير أيده الله . والجزار لم يكتف بما اخذ من اموال اللبنانيين حتى انه ارسل من مدة قريبة يطلب من اميرنا ثلاثمائة الف غرش لمغ رهينتين عوض الشيخ قاسم جنبلاط الذي اعطاكم عمره في عكا لكم من بعده طول البقاء . وهذا امر ضمن السر فالامل حفظه في صدركم الواسع . كما وان الامل من غيرتكم تسليم حفيدنا غانم الحامل اليكم هذا المكتوب مائة الف غرش نحن والامير بكل حاجة اليها وترد اليكم عند هدوء الخواطر من ناحية الجزار . واني اعتمدت على اعطاء كل ما املك للامير وان ارسل حفيدي المذكور رهينة الى عكاء وهو يودعكم في هذه الفرة ويطلب دعاكم . . . .

واذ وصل الى هذه الجملة انتفض المعلم نقولا وقال :

— وكيف ترسل وحيدك الى عكاء ؟ الا تعلم انه لن يعود من بين مخالب الجزار ؟

فاشار اليه الشيخ بالهدوء وقال :

— اكتب الامضاء : الداعي بطول عمر سعادتكم

الشيخ قعدان بو غانم

عن دير القمر في ٢٥ تشرين الاول ١٢٩٣»

ثم تناول الشيخ الرسالة فطواها ، ونادى الخادم فامره ان يدعو له حفيده غانم .

وما هي دقائق حتى دخل فتى في السابعة عشرة من عمره ، مستقيم القامة ،

واسع الصدر ، ممتلئ العضلات ، دقيق الخصر ، لبس شروالاً من الحرير ، ولف على ساقيه طاقات من الجلد الاسود فانطبقت كل الانطباق على بطتيه القويتين، واظهرت رسغيه الدقيقين . وكان في نظره ثبات وعزيمة ، وفي ملامحه كلها قوة ارادة وحزم ، وفي وطأته شدة وشجاعة ، تجعل من يراه لاول وهلة يجزم بانه شابٌ في الثلاثين من عمره ، لولا خلوّ خدّيه من الشعر ، ووسامة تقاسيم وجهه الدالة على سنّ الفتوة . دخل ذاهلاً لانها كانت المرّة الاولى التي يدعوه فيها جدّه لمقابلة الناس ، وليس من العادة ان يجلس الفتيان والشيوخ في القاعة نفسها ، ولا ان يشتركوا معهم في المحادثات ولاسيما السياسية منها .

ولكنه اذ رأى معلمه نقولا ، ظنّ انه سأل عنه ، فأسرع واكبَّ على يده يقبلها ، فقبّل المعلم رأسه وانهضه بلطف . اما الشيخ فالتفت اليه بحنوّ وغيرة وقال :

— هل تحبّ الامير بشيراً يا غانم !

— كيف لا احبه يا جدّاه ، واقصى مناي ان تسمح لي بالمحاربة في جيشه وبالعمل في خدمته .

— ها انا اسمح لك الآن . ولكن ليس بالمحاربة في جيشه بل بخدمته في عكاء . فاني سوف ارسلك رهينةً عند الجزّار حتى يدفع الامير ما عليه من المال .

فتقدّم غانم صامتاً ، وتناول يد جدّه فقبّلها قائلاً :

— كما تريد .

— ولكن قبل ان تذهب الى عكاء سأرسلك بمهمة الى صديقتنا الاميرة جهجاه في بعذران . فتوصل اليه هذا المكتوب ، فتقرأه له بنفسك ... اتحسن قراءته ؟

فابتسم الفتى والتفت الى معلمه فضحك ، وضحك الشيخ ، ثم تابع :

— فتقرأه له بنفسك دون ان يعرف احد ما فيه . ثم تستلم من الامير مبلغ مائة الف غرش يخبئها هو بمعرفته في اكياس من التبن او الشعير ، وتحملها على البغال وتأتي بها مع خادمنا فرحات ... ثم تودع اهل بيت الامير .

لفظ الشيخ هذه الجملة الاخيرة بصوت خافت ، وابتسم ابتسامة معنوية . فارتجف الفتى طرباً ، واحمرّت وجنتاه حياء طاهرًا . اذ كان في بيت الامير من يسرّه مرآها ويسرّها مرآه .

ثم خرج كي يعدّ فرسه وسلاحه ، وينبّه خادمه ؛ وعاد فقبّل يد جدّه ، ويد معلّمه ، وودّعهما . وسار على بركة الله .

***

الفصل الثاني

الامير مهجاه

تخايل القمر من خلال السحب الرقيقة ، المنتشرة في اعالي الهضبات المتصلة بجبل الباروك جنوباً ؛ فارسل انواره ضئيلة باهتة ، تتدحرج ببطء في ظلمات وادي «الداقوق» الاجرد . فكانت المنعرجات تظهر برشاء بما فيها من الحصى الكثير ، والصخور الضخمة تلقي اظلالها القاتمة فتؤلف اشكالًا غريبة ، تختلف دقة ووضوحاً باضطراب الغيوم امام وجه القمر .

وبدا في وسط الوادي خيّال يسير صعدًا بتمهّل ، والى جنبه ساعٍ يرافقه راجلاً ، متنقّلاً برشاقة على الحجارة النافرة ، واضعاً يده من وقت الى آخر على ركاب الخيّال . وكان الفرس قد تعب من الصعود ، ووجيت حوافره من الحصى المتناثر تحتها ، فاخذ يعارض في سيره ، متطلّباً الناحية الممهّدة من الطريق ، مرسلاً من منخريه المتوحين نفخات منتظمة كانت وحدها تقطع سكون ذاك الليل .

وكأنّ الخيّال اشفق على فرسه ، فاوقفه الى جنب صخرة عالية ، وبعد ان امرّ يده بحنوّ على عرفه ، التفت الى رفيقه وقال :

— تعبت «نعامة» ، يا فرحات . . . ما قولك لو ترجّلت !

— لا لزوم لذلك يا سيدي ! قليلاً ونصل الى رأس الوادي . ومن هناك تصبح الطريق سهلاً .

ثم تابعا الصعود صامتين . حتى رأى فرحات من اللازم تسلية سيّده بالحديث ،

وكان يتردّد في الابتداء بالكلام ، فقال كمن يخاطب نفسه :

— سنصل مع الشمس الى دار المير جهجاه !

فانتفض الخيّال انتفاضةً لم تخفَ على خادمه . وتابع هذا :

— وقد سمعنا في الدير ان المير استقدم العيلة من صيدا . فستستقبلنا «الستّ» بلطفها المعتاد . وسنرى «الستّ» الصغيرة ايضاً تلعب راكضةً وراء كلبها «هوّاش» .

ولو حدّق فرحات الى وجه سيّده لرأى ابتسامةً خفيّة تفرج شفتيه ، وبريقاً لطيفاً يغزل في عينيه ، واحمرارًا خفيفاً يعلو وجنتيه ، فكأنه يضحك بكل جوارحه . على انه تمالك نفسه سريعاً ، وكأنه خجل من وجود الخادم ، فاراد تغيير الحديث :

— لا بدّ لنا من الرجوع غدًا قبل الظهر ، لان جدّي اوصاني بالاسراع

— انا طوع امرك ! ولكن اهل البيت قد لا يتركوننا نعود بهذه السرعة .

فاشمأزّ غانم لإعادة الحديث الى هذه النقطة ، وقال مظهرًا عدم المبالاة :

— كم تظن يبقى من الليل الآن ؟

فالتفت فرحات الى السماء ، وتأمل قليلاً في النجوم . ثم قال :

— هذا «الغرّار» قد مال الى المغيب ، وقد طلع «الميزان» . . .

فاغتنم الشابّ تلك الفرصة لابعاد مجرى الحديث عن بيت المير جهجاه فقاطع خادمه :

— وما «الغرّار» ؟

— «الغرّار» ! انظره ، هو تلك النجمة الكبيرة الشديدة اللمعان التي اصبحت الآن من جهة بعقلين .

وبعد ان اطرق قليلاً ، متذكرًا اقوال الشيوخ في ذاك الكوكب ، رفع رأسه بشيء من العجب والافتخار بانه اضحى كبيرًا مجرّباً ، يعرف اشياء لا تعرفها الشبّان ، حتى من ابناء المشايخ . كيف لا وهو سيشرح الآن لماذا دعي ذاك الكوكب «بالغرّار» . والتفت الى غانم فقال :

— وقد سمّيت تلك النجمة «بالغرّار» لانها تشبه نجمة الصبح . ومعروف

انه متى طلعت نجمة الصبح يكون الفجر قد قرب . ولهذا ينتظر طلوعها جميع المكاريّة حتى يحملوا دوابّهم ويسيروا «على البرود» .

وسكت قليلاً حتى اذا تحقق اصغاء غانم لكلامه ، سرّ وتابع :

— وحدث مرة ان بعض مكاريّة الفريديس كانوا قادمين باحمال القمح من البقاع الى الدير ، في احدى ليالي الشتاء . فداهمهم الظلام قبل الباروك ، واشتدّ عليهم البرد ، فنزلوا في خان هنالك . وقبل انتصاف الليل ، افاق احدهم فرأى هذه النجمة في اول طلوعها ، فغرّته منها شدّة اللمعان فظنّها نجمة الصبح وان الفجر قريب . عندذاك اسرع الى رفاقه فأيقظهم ، وشدوا الاحمال ، ثم ساروا في ذاك الجبل المكلل بالثلوج ، منتظرين الصبح القريب . ولكن الصبح لم يطلع . وكان البرد يشتدّ شيئاً فشيئاً ، والجبل مقفر لا خان فيه ، ولا ضوء في الافق البعيد . ثم لم يلبث ان بدأ الثلج بالسقوط فثقلت الاحمال ، وتلكّأت الدواب ، وجمدت الاطراف . فتوقفت القافلة ، وبدأ المكاريّة بالصراخ ، ولكن من يسمع ! . . . وظلوا يقاسون امرّ العذاب ملتحفين بتلك الثلوج ، حتى صباح اليوم الثاني . فخلّصهم اهل القرى المجاورة وكان قد دنق منهم مكاريّان ودابة . فعرفوا بعد فوات الحين ، انهم غرّوا بذاك الكوكب ، فسمّوه «الغرّار !»

فاظهر غانم سروره بهذا الشرح ، فزاد اعجاب فرحات بنفسه . وكانا قد وصلا الى اعلى الوادي ، فاستراحا قليلاً . ثم عاودا السير الى بعذران .

* * *

كان الامير جهجاه من آل الحرفوش المتاولة ، اصحاب الاقطاعات الواسعة في بلاد بعلبك وجوارها . وقد صرف شبابه في تلك الجهات بكل طمأنينة ، عائشاً عيشة الامراء الكبار يأمر وينهي ، ولا متردّد ولا معارض . حتى نشأ اختلاف طفيف ، على حدود بعض الاملاك ، بينه وبين احد ابناء عمه ، الامير جواد . فتعصّب اخوة هذا على الامير جهجاه الذي كان وحيداً ، وتعمّدوا له الاذى والمكروه . فوشوا به الى والي الشام وحسّنوا له ان يسلب الامير املاكه الواسعة ، ففعل . عند ذاك اشمأزّ الامير جهجاه من تلك الاساليب ، وانف من قرابة تدفع ابناء العمّ الى الغدر بابن عمهم ، وفضّل الهرب على العيش في ظلّ حاكم

ظالم ، فترك دينه ، واهله ، وارزاقه ؛ وهام على وجهه ، ولا رفيق لـه سوى جواده ، ولا مؤنس الا رمحه وسيفه .

وكان نجم الامير يوسف بدأ باللمعان في دير القمر ، وقد استلم خلعة الولاية من درويش باشا سنة ١٧٧٠ ، فاستقلَّ له الامر من « ظـاهر طرابلوس الى ظاهر صيدا . » فقصده الامير جهجاه واثقاً بمساعدته ، فلم يخيّب ظنّه بل عيّنه في خيّالته ، وشمله بانعامه فنزد له غرفة في سرايته . ووافق ذلك هياج الصغيريّة والصعبيّة من متاولة جبل عامل ، وتحرّشهم بحدود لبنان . فنهض الامير يوسف لمحاربتهم بجيش لا يقلّ عن عشرين الفاً من فرسان ومشاة ، وخيّم بالقرب من جسر صيدا . ورأى الاميرُ جهجاه الفرصة سانحة للانتقام من ابناء طائفته ، فاخذ يوالي الهجمات والغزوات ليلًا ونهارًا حتى ضعضع قواهم ، واحرق جميع قرى اقليم التفاح ، الى ان بلغ جباع الحلاوة فنهبها وقطع اشجارها . فسرَّ الامير يوسف بذلك غاية السرور ، واقطعه ارضاً واسعة في مرتفعات بعذران .

وعندما انتهت الحرب استلم الامير جهجاه ارضه فحسّنها وعمّرها . ثم دعا الخوري يوسف ، خوري الضيعة ، واظهر رغبته في الديانة بالنصرانيّـة نكايةً باهله . فعلّمه الخوري المبادئ الاولية ، وعمّده في حفلة مهيبة . ثم زوّجه فتاة من بنات المشايخ ، فرزق منها ابنة دعاها « بدور » على اسم امه . وكان قد استرجع املاكه في بعلبك ، وولّى عليها الحوّل وبقي في بعذران سعيدًا وسط تلك العيلة الصغيرة .

ولما ظهر الامير بشير مال اليه الامير جهجاه كل الميل ، لاسيا بعـد شنق الامير يوسف في عكا ؛ واخذ بمساعدته المادّية والفعلية . وكان الامير قد عيّنه ، في تلك المناوشات الاخيرة ، قائدًا عامًا لجهات الشوف وجزّين ، يحصّن اعالي بعذران ومزرعة الشوف ، ويحرس تومات نيحا ووادي مرج بسري . فقام بالمهمّة خير قيام ، وتمّم العساكر بكل حكمة ، وجعل يزور جميع النقاط كل يوم تقريباً .

وكان ، في ذاك النهار عائدًا من تفقـد نقطة المزرعـة ، اذ سمع هرير الكلاب شديدًا من شرقي بيته . فوقف متطلعاً ، وكانت الشمس قد ذهبت القمم ، فاستكشف . واذا به يرى « زمامه » ، فرس الشيخ قمدان صاعدة بجنيده غانم ، ومعه خادمه الامين فرحات .

(البقية تأتي)

شذرات

هل يجدد الشيخ شبابه ؟

جاء في مجلة المشرق (ص:٣٨٧) نبذة تحت ذلك العنوان . ولاجل تعميم الفائدة اسمحوا لي ان اشرح ما هي الشيخوخة:

ان الشيخوخة سببها الاصلي ليس ضعف بعض الاعضاء وزوال قواها عنصرياً ، بل ان ذلك يحدث من تكاثف وتصلّب عناصر النسيج الموصل ، او النسيج الجامع (tissu conjonctif) وهذا التكاثف طبيعي يعمّ الحيوان والنبات جميعاً .

ان النسيج الموصل هو الجامع بين الخلايا لكي يجري كل فريق منها وظيفته التي يتخصّص لها . فان بعض العناصر من النسيج العضلي مثلاً يجمع بينها ذلك النسيج . وهكذا القول في جميع الانسجة ، اركان الجسم . فان الجامع بينها هو النسيج الموصل . ولولا هذا النسيج لما وجد حيوان او نبات مركباً من جملة خلايا .

ان هذا النسيج تصنعه خلايا خصوصية ، وهو لا يتبدل قط ولا يغتذي ليتجدّد . والخلايا التي تصنعه حاضرة لاجراء وظيفتها كلما دخل الى الجسم شيء يهدّد حياته . فهي تتبيأ لانقاذه ضانعة من ذلك النسيج لتلفه به ، وتحمي الخلايا التي دخل اليها المكروب لتفصلها عن الصحيحة . وبهذه الواسطة يتكاثر النسيج الموصل على مدى اضطراب الجسم بالاوجاع . وهكذا فان كل مرض او التهاب من شأنه تزيد كمية ذلك النسيج يدعو الى الشيخوخة .

ان هذا النسيج ، لما كان لا يغتذي ، فلا يتجدد ، وكل غير متجدد لا يبقى طبيعياً في حالته مذ تكوّنه . فهو يتكاثف ويتصلب . وفي هذه الحال نرى ان الخلايا او العناصر من الجسم ، التي هو قائم بحمايتها ، يكون هو ايضاً سبب هلاكها . لانه بتكاثفه يمنع جريان الدم اليها بواسطة الشرايين ويصدّ الاوردة عن اخذ الفضلات « فتموت وتهلك »

هذا هو سبب الشيخوخة!

اما ضعف الانسجة والعناصر فلا يُعدّ ذلك من الشيخوخة . والطب قد وجد وسائط مختلفة لتقويتها وانعاشها . ومن ذلك وسائط « الدكتور ڤورُنوف » فهذه الوسائط لا تسمّى اعادة الشباب بل تقوية الضعف .

واما طول العمر فهو آتٍ من الاصالة الجنسية ، ومن حماية النفس والجسد عن الشذوذ في الحياة ، وعن استعمال ما يساعد على تكاثف النسيج الموصل مثل المرض الزهري واستعمال المسكرات واقتباس الامراض .

ان تكاثف وتصلب النسيج الموصل في اي عضو كان لا مسوّغ لمعالجته بالاودية ، كما يحصل في التهاب احدى الكلى فلا علاج لها الا رفعها وتنحيتها . هذه شيخوخة بعض الاعضاء من الجسم . واما شيخوخة الجسم بكليته فلا علاج لها الّا الموت

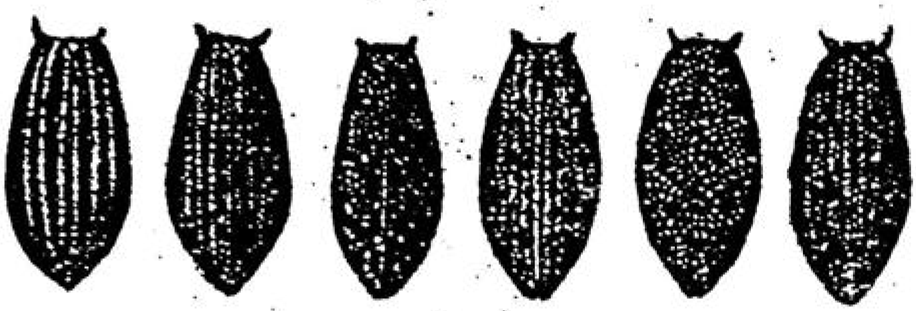
الدكتور سليمان غزاله

عجائب الجعلان

« ليس الجبل بادلّ على الله من الحصاة » ، قال الجاحظ ، ولا الفيل من الحشرة الصغيرة . وان اعمل الانسان النظر فيما حوله من الهولم والحشرات الطائرة ، والدابة ، والزاحفة ، رأى العجائب والغرائب . وها نحن نذكر فصيلة من الجعلان كثيرًا ما نصادفها ونقتلها ، وقليلًا ما نأبه لما في اجنحتها من دقة التركيب ، وجمال الزخرف .

ان الجعلان من ذوات الاجنحة الاربعة ، كما لا يخفى . الّا ان الجناحين الاعليين متصلّبان يؤلّفان غلافًا واقيًا للجناحين الاسفلين . وفي هذا الغلاف الواقي نرى جمال الفنّ ، والمظاهر المختلفة ، شكلًا ولونًا ، التي تميز كل فئة من هذه الهوامّ عن غيرها . امّا الالوان فتتنوّع الى ما لا نهاية له ، وتتحد فتمتزج تارةً بألفة رائقة ، وطورًا بتنافر غريب . واما الاشكال فهي اغرب ؟ والعجيب فيها ان كل فئاتها تقريبًا تحتفظ بجبوب ونقاط يأتي ترتيبها وتنسيقها على صور شتى . وقد جمعنا في الرسم الآتي ستة من هذه الاشكال تمثل غلافات اجنحة فئات متنوّعة من فصيلة الجعلان الكبيرة المشبّهة بالسرطان والمدعوّة (carabes) وهي لا تظهر بالنهار الّا اذا فتّشنا عنها تحت الاحجار ، وفي جذوع الشجر

المقطوعة ، وشقوق الصخور ، وبين الحشائش النابتة بالاماكن الرطبة ، فتوءخذ حالًا بروعة لونها الزاهي المعدني ، المتراوح بين الأسود الصقول اللمّاع والنحاسي المتموّج ، وبين الاخضر الذهبي ، والرمادي القاتم الجافّ . على ان كل هذه الالوان تظهر ثانوية اذا ما فصحنا نوع حبوب الغلاف وترتيبها .

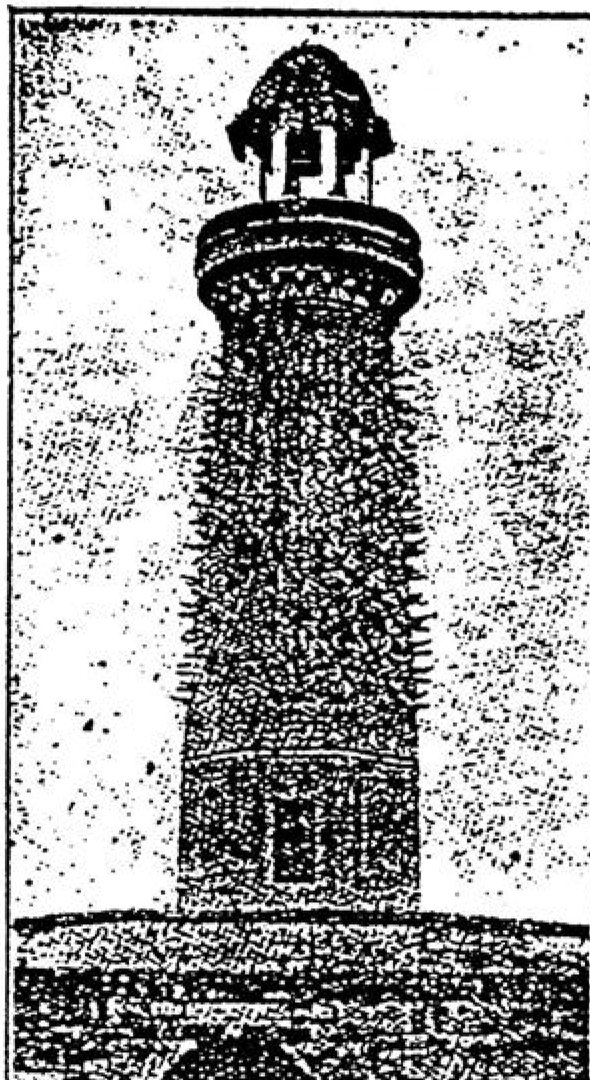


١ محدّب ٢ منقّط ٣ ملألأ ٤ محبّب ٥ مخطط ٦ مضلّع

فهناك الجُعَل ذو الغلاف الأملس الصافي المجموع من عن اطرافه ، ولم يمثّل في الرسم . اما الرقم الاول فيمثل الغلاف المحدّب ، وهو خشن فيه نوعان من الحبوب : اولهما صغير كثير مرصوف عموديًا ، والثاني حبوب كبيرة قليلة تظهر كحدبات متوازية على صفين عموديين ايضاً ، ويُرى منها في الرسم ست حدبات . اما الغلاف الثاني فتكثر فيه النقط الصغيرة دون ترتيب ولا نظام . ثم يأتي الغلاف الثالث وفيه تظهر الحبوب كعقود من اللوءلوء الصافي في غاية الترتيب ، ولهذا سميناه الغلاف الملألأ . الى جنبه الغلاف المحبّب (رقم ٤) ولنلاحظ انّ هذا الحبّ يكون إمّا نافرًا ، واما داخلًا فيصبح على شكل حفر صغيرة . واذا اجتمعت هذه النقاط او هذه الحفر بعضها الى بعض حتى تكوّن خطوطاً متقابلة متوازية سمي الغلاف مخطّطاً كما في الرقم ٥ .

اما الرقم السادس فيمثل الجُعل المذهّب او « المقصّب » وكثيرًا ما نراه في ايدي الاولاد ، ولكن قلّما ننتبه الى اضلاعه العجيبة المتناسقة .

وعدا هذه النقاط والحبوب ، تمتاز بعض الغلافات بوبر ناعم مخملي ، وبعضها بشعر حريري ، وبعضها ايضاً بشوك موءلم . واعجب من هذا كله انه يكون في بعض الفنات غلافات ملساء للذكور ، ومخطّطة للإناث . فسبحان من ملأ الكون بالعجائب والغرائب .



قبر فيل

ليس امامك ، ايها القارئ العزيز ، معبد ديني ، ولا مدفن ملوكي ، ولا قبة انتصار . ان هو الّا قبر حيوان ، قبر فيل نال الحظّ الاوفر بانه كان يحمل ، مدة حياته ، صاحب الجلالة الملك الاكبر . ومن يذكر الملك الاكبر يذكر ذاك الجبّار المنولي ، سليل تيمورلنك ، الذي اخضع الهند ورفعها الى اقصى درجات المجد والترف من سنة ١٥٥٦ الى سنة ١٦٠٥

كان الملك الاكبر قائدًا سفّاحًا ، ولكنه كان ايضاً منظّماً بصيرًا ، ومشيّدًا عاملاً للذكر والخلود . تشهد بذلك الآثار البديعة العديدة التي لا تزال تهزأ بتقلبات الايام في الله آباد ، ولاهور ، فتبيّن رغبة مشيّدها في اتقان الفنّ وميله الى

الجمع بين الطراز الفارسي والطراز الهندي . ولعلّ افخمها واوفرها تأثيرًا قبر اخيه همايون المقام في دلهي . فيظهر كيف كان الملك الاكبر يعتبر ذكريات من تقدّمه من كبار الرجال ، وكيف كان يبرهن عن اعتباره …

ولكنه لم يكن ليقف عند ذكريات الرجال ، بل تجاوزها الى تخليد ذكر الحيوانات ايضاً . وهو امر يتحققه من يتأمل الاثر البديع المصوَّر اعلاه ، او من يفحصه بنفسه في مدينة بومباي ، ويعرف ان لا غاية منه الّا تخليد ذكر فيل الملك الاكبر . يستريح ذاك الحيوان السعيد في اسفل هذا البرج الذي يعلو عن سطح الارض ثلاثين مترًا . وقد بني جميعه بالرخام المصقول ، وزخرف دائره بقطع الخزف المنمق بالالوان المختلفة . وفي وسطه درج لولبي يصعد بالراقي الى شرفة مستديرة يعلوها كشك مثمن الزوايا يرتكز سقفه البيضوي على عواميد لطيفة . على ان اجمل ما في الاثر تلك المنات النافرة التي تظهر ، في الصورة ، كالابر الشائكة . وهي ذات قيمة لا تقدَّر لانها كلها انياب فيلة غُرزت في البرج تكريماً للفيل المائت ، ومعلوم نفاسة العاج والمنافسة في الحصول عليه . وقد قتل الملك الاكبر مائتين وخمسين فيلاً كي يستحصل على موادّ هذا البناء الغريب ، التي بقيت الى اليوم موضوع اعجاب الناظرين ، وقد تتحوَّل بعض الاحيان الى مجاثم تستريح عليها النسور والعقبان

المشرق منذ ثلاثين سنة

شهرا آب وايلول سنة ١٨٩٨

يبتدئ شهر آب بمقال لحضرة الاب انستاس الكرملي البغدادي درس فيه قبيلة غريبة من البدو تُدعى «الصُلَيب» كثيرًا ما اختلف المؤرخون والرحالة في اصلها ، فيميل الكاتب الى الاعتقاد انها ليست من العرب . يلي ذلك نبذة دقيقة لحضرة الاب سبستيان رنزڤال في اصل كلمة زنديق فيستنتج انها «فارسية عريقة في القدم معناها الاصلي رجل السحر ، لا رجل التأويل كما زعم العرب ومن ذهب مذهبهم.» وبعده بحث مفيد عن البيطرة عند الأعراب لحبيب افندي شيحا البغدادي . وخطبة ممتعة القاها المرحوم الاب شيخو عن تدريس اللغة العربية في كلية القديس يوسف . ثم مقال جغرافي لحضرة الاب لامنس قابل

فيه بين جبال الألب وجبال لبنان . ونظرٌ للاديب جول كتسفليس دمي بـه الى درس اخلاق شعبَي الاسبان والاميركان واخصّ علائقهما . ويعود الكلام لحضرة الاب لامنس فيحدّث المطالع عن ذكر كرلس الكبير ملك فرنسة في كتاب «الف ليلة وليلة». وفي هذا الشهر يتابع حضرة الاب سبستيان رنزفال بحثه الطويل المفيد في زينب الزبّاء ملكة تدمر. ويتابع حضرة الاب كولنجت مقاله في التنوير فيخصّ منهُ القسم الكهربائي . وكذلك يتابع حضرة الاب لامنس رواية الشقيقتين ، والدكتور اوغست هَفنر نشر كتاب النبات والشجر للاصمعي . والمرحوم الاب شيخو نشر كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، ويبدأ نشر مقالة فلسفية نفيسة في النفس البشرية لابي الفرج ابن العبري. وينتهي الشهر بوصف ثلاث مطبوعات شرقية جديدة مع عدّة شذرات وبعض الاسئلة.

اما شهر ايلول فيُفتتح بمقال اثري لحضرة الاب جوون اليسوعي يتكلم فيه عن آثار حمص القديمة. يتلوه مقال لاهوتي لحضرة الاب جان باريزو عن اشتراك الكهنة في التقديس. ثم مقالة في اهمية جمع خواصّ الكلام الدارج للمستشرق الالماني الدكتور مرتين هرتمان قابل فيها بين لهجات بيروت ، والقاهرة ، وتونس واللهجة الفصيحة . يتبعها نبذة للخواجا ح. عون ابي خرما في تعليم اصول الشرب . ودرس تاريخي عن اللغة الشائعة في سورية قبل الهجرة للطيّب الذكر المطران اقليميس داود . ومن الابحاث العلمية في هذا الشهر مقال في الهواء الجوّي وميزان ضغطه (البارومتر) لحضرة الاب زموفن ، وبحث يجمع فيه حضرة الاب رنزفال كل مستحدث من الاخبار العلمية المختلفة. ومن آثار المرحوم الاب شيخو متابعة نشره لتاريخ بيروت ، ومقالة ابن العبري في النفس ، ومباشرته نشر « خلاصة معتقد النصارى في التوحيد والاتحاد لبولس الراهب اسقف صيداء الانطاكي» ، وفي هذا الشهر ايضاً نبذة لغوية مفيدة عن حرف العين في الالفاظ المعربة ، ولفظ السوريين لحرف القاف ولفظ الجيم عند العرب ، لحضرة الابوين لامنس وانستاس الكرملي . وبعد ان يبدأ حضرة الاب ريفو نشر روايته « السفر العجيب الى بلاد الذهب » ينتهي المشرق بعدّة شذرات ، واسئلة مع وصف ثلاث مطبوعات شرقية جديدة.

مطبوعات شرقية جديدة

A. Puech : Ce qu'il faut connaître de la Grèce antique. *in*-12°, 157 *pp.* 1928. *Prix*: 7 *f*^{s}. *Paris, Boivin et C*^{ie}.

ما يجب معرفته عن بلاد اليونان القديمة

هذا الكتاب هو الحلقة السابعة من سلسلة عنوانها «ما يجب معرفته» يكتب اجزاءها اختصاصيون في المسائل المختلفة فيعرضونها ثقة لفائدة الجمهور. يشتمل هذا المجلد على بحوث في الآداب، والفلسفة، والعلوم، والفنون اليونانية، مع مقدمة عن اليونان في التاريخ. فيلذّ المطالع ويدفعه الى التعمق في هذه المعلومات النافعة والشائقة، فيكون من ثمّ للمؤلف فضل يُذكر. ج. ل

Silvio Solero: L'Islamismo: sintesi storicocritica. *I-X; pp.* 1-261; *Ulrico Hoepli, Milano,* 1928.

الاسلام : خلاصة تاريخية نقدية

لما كان مؤلف هذا الكتاب يجهل اللغات الاسلامية، ظنّ كافياً ان يجمع في درس واحد نتائج دارسي الاسلام. ولكنه كثيراً ما لم يفهمها. وانه ليطول بنا الكلام اذا اردنا تعداد هفواته التي لا تُحصى، فهو يزعم مثلاً ان كلمة «شيعة» (ص : ٧٨) تُطلق على ترجمة حياة محمد (اي السيرة) ويزعم ايضاً (ص : ١٢١) ان مؤسسي المذاهب السنيّة لا يدعون مالك بل ابو مالك، ولا الشافعي بل ابو الشافعي ... الخ وقد حوّل اسم القائد الشهير عمرو بن العاص الى «عَمْرُو بَرْساد» ('Amrou bar Sad) (ص : ١٢٥). وكذلك فانه يعطي لقب الخليفة للسلطان نور الدين. فلهذه الاسباب لا يمكننا ان ننصح لقرائنا مطالعة هذا الكتاب على الرغم من الاشارات العديدة التي يخصنا بها المؤلف. ه. ل

Julius Richter: Der Islam als Religion - *Wissenschaft und Bildung* n° 239 — 167 *pp.* 1927. *Prix* : 1 *M.* 80. *Leipzig, Verlag von Quelle und Meyer.*

في الدين الإسلامي

ليس مؤلف هذا الكتاب من المستشرقين . نتحقق ذلك بالالتباسات العديدة ، وباغلاط النقل ، فان « دار الحرب » مثلاً ، ينقلها الى « دار الغرب » (ص : ٤٣) ، وهو يدعو المعتزلة (ص : ٥١) « رجال العقل » بدلًا من « رجال العدل » . على ان الفصل الاخير (ص : ١٤٣) الذي يخصّه بالاسلام المصري ، لا يخلو من فائدة . ه . ل

Actes de S. S. Pie XI, *texte latin et traduction française. t. I* 1922-23. *vol. in-8°*, 395 *pp. Paris, Maison de la Bonne Presse.*

آثار قداسة البابا بيوس الحادي عشر

اختصّت شركة « المنشورات الصالحة » (Bonne Presse) بنشر آثار الباباوات ، فطبعت سبعة مجلّدات من آثار لاون الثالث عشر ، وثمانية من آثار بيوس العاشر ، وثلاثة من آثار بنديكتوس الخامس عشر ، وها انها تبدأ نشر آثار بيوس الحادي عشر المالك سعيدًا بهذا المجلّد الذي يحتوي ، فضلاً عن آثار البابا الخاصّة في السنتين ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ، جميع الوثائق الصادرة من المجامع الرومانية

P. Emm. d'Alzon : Méditations sur la perfection religieuse. 2ᵉ *partie, médit. pour retraites.* 486 *pp. Prix* : 12 *f. Paris, Bonne Presse.*

تأمّلات عن الكمال في الحياة الرهبانية

اشتهر مؤلّف هذا الكتاب ، وهو مؤسس رهبانية الاوغسطينيين الصعوديين وأحد اركان الحركة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر ، بأنه من رجال الله الصالحين . وقد اراد بوضعه هذه التأمّلات ، إصلاح اعضاء رهبانيته ومريديها المبتدئين ، والسير بهم الى الكمال في الحياة الرهبانية . وهي مواضيع تفيد غير رهبانه من النفوس المسيحية .

Taufik Canaan : Mohammedan Saints and sanctuaries in Palestine. [*Luzac's oriental Religions series. vol. V*] *London, Luzac*, 1927. *Prix* : 15 sh.

اولياء الاسلام ومزاراتهم في فلسطين

هو كتاب نفيس نتج عن ابحاث طويلة في ديانة العامّة من مسلمي فلسطين قام بها المؤلف بكل إخلاص، فدرس الامثلة المختلفة المزارات ، وطرق العبادة التي تُقام فيها كالنذور ، والذبائح ، والزّيّاحات وغير ذلك. ثم بحث في كيفية تصوّر العامّة لطبيعة الاولياء الذين يكرّمونهم ، ولاخلاقهم. وهناك ليس اولياء فقط ، بل وليّات ايضاً وشيخات ، واولياء بيض ، واولياء سود. وعلى الجملة فان هذا الكتاب نافع لمن يدرسون التوراة فيرون فيه ما بقي من آثار العبادات القديمة التي كان يقوم بها الكنعانيون. ونحن نودّ ان نرى بحثاً كهذا عن اولياء البلاد السورية. هـ. ل.

Bibliothek arabischer Historiker und Geographen herausgegeben von Hans v. Mzik. *Einleitung, inhaltsangabe und Register zum ersten Band. Leipzig. Otto Harrassowitz*, 1928.

مجموعة آثار مؤرخي العرب وجغرافيّيهم

هذه مقدّمة كتاب الوزراء والكتّاب لمحمّد بن عبدوس الجهشياري الذي تكلّم عنهُ المشرق سابقاً. وهي تحتوي ، في ٣٥ صفحة ، على ملخص الكتاب باللغة الألمانية ، مع نشر المقاطع العربية التي تصعب قراءتها في المخطوطة الاصلية ، وجدول واسع بالأعلام المذكورة. هـ. ل.

Jos. Hell: Die arabische Dichtung in Rahmen der Weltliteratur. *Erlangen*, 1927.

الشعر العربي في الآداب العالمية

كان المؤلف نزيل كليّتنا منذ ٣٥ سنة ، وهو اليوم رئيس كلية ارلنجن في باڤاريا، وقد اهدى الينا هذه المحاضرة المختصرة في المقابلة بين تطوّر الشعر العربي وتطوّر الشعر الاوربي في القرون الوسطى ، وتأثير التطورين. وهو يرى رأينا (راجع مشرق آذار من هذه السنة ص ٢٢٩:) فينفي تأثير الادب العربي في « الالعوبة الالهية » لدانتي هـ. ل

Dom. Prümmer O. P. : Manuale theologiae Moralis secundum principia S. Thomae Aquinatis in usum scholarum. Herder. Freiburg. im Br. *Tomus I. Editio* 4ª *et* 5ª (*XXXVIII et* 462 *pp.*) *Marc* 10.

كتاب في اللاهوت الادبي

مرَّ زمن طويـــل واللاهوت الادبي لا يُفصل عن اللاهوت النظري في التعليم والمؤلفـات . الى ان زادت الرغبـة في تسهيل الدرس على الطالبين ، وفي افادة الكهنة القائمين باعمال الخورنيات ، فدفعت المؤلفين الى فصل القسم العملي من اللاهوت . ولكن كان في هذا العمل خطرٌ لم يتجنبه جميع المؤلفين ، وهو خطر المغالاة في عزل الآداب عن المبادئ التي ترتكز عليها . اما حضرة الاب برومير ، مؤلف هذا الكتاب ، فلم يسقط في ذلك الخطر ، بل تبـع عن قرب استاذه الاكبر القديس توما ، فبيّن ان اللاهوت الادبي علم حقيقي ، واثبت قواعده بطريقة راهنة ، واعان مبادئه واحكامه . وهو يقدّم لنا اليوم الطبعة الرابعة والطبعة الخامسة من المجلد الاول . وهذا وحده يدلّ على رواج الكتاب والاقبال عليه ، وقد ظهرت طبعته السابقة سنة ١٩٢٣ ، في ٤٥٠٠ نسخة . ولا شك ان الطالعين قدروا علم المؤلف ، وكثرة المواد التي يخوض فيها ، ووضوح اسلوبه ، والترتيب الذي تبعه تاركاً الطريقة القديمـة باتباع وصايا الله ووصايا الكنيسة ، الى طريقة ارسطو في تقسيم الفضائل . فهو يعرض اولاً ماهية الكمال ودور كل فضيلة بمفردها ، ثم ينتقل الى تحليل الخطايا التي تعاكسها . فيمكن المطالع ، ليس فقط ان يحكم على صفة الاعمال السيئة ومبلغها من الخطأ ، بل ايضاً ان يتجه نحو مثل اعلى في الحياة الكاملة . وهكذا فان المؤلف بعد ان يتكلم عن مبادئ الآداب العامة ، اي عن غاية الانسان ، والاعمال البشرية ، والضمير ، والخطايا والفضائل على الجملة ، ينتقل الى الفضائل الالهية فضيلة الحكمة ، تاركاً للمجلد الثاني البحث في فضائل العدل ، والقوة ، والقناعة . وانهُ ليسرنا في الختام ان نذكر أنَّ في اول الكتاب جدولاً جامعاً باسماء المؤلفين الـذين كتبوا في اللاهوت الادبي ، والمؤلف يردف كل اسم باحكام غاية في الصحة .

الاب مونجان

Wenceslas Pohl : De Vera Religione, questiones selectæ. *in-8°* XX-388, *prix* : 9 *Mark*, *Herder et C^ie*, *Friburgi Brisgoviae*, 1928.

في الديانة الحقيقية

نشر الاستاذ پوهل في هذا المجلّد القسم الاول من محاضراته في اللاهوت ، وقد قسمه الى ثلاثة كتب : ١ً — في اساس الديانة ويشمل الابحاث في وجود الله مع تزييف المذهب النقدي الذي جاهر بهِ الفيلسوف « كانت » ، والمذاهب المادية والحلولية . ٢ً — في الديانة على الجملة وماهيّتها ، وضرورتها ، واصلها . ٣ً — في الوحي : ماهيته ، وامكانه ، وضرورته ، مع البحث في دليليه اللازمين اي العجائب والنبوات . ويذكر المؤلف ، قبل الخوض في كل موضوع ، لائحة في المآخذ مستوفاة خصوصاً في ما يتعلّق بالكتب الالمانية . ومما يستحق ذكرًا خاصًّا هو درس أصل الديانة ، في الكتاب الثاني ، فان المؤلف يبسط بكل دقّة نظريّات تيلر (Tylor) ولونغ (Long) ، ويأتي بالبراهين العديدة على وجود التوحيد مبدئيًّا في الجنس البشري ، يأخذ ذلك من شهادات الديانات الاولية كديانة البغمة ، والديانات الهندية الاوربية ، واليونانية ، والرومانية ، والسامية ، والصينية وغيرها . على ان الطريقة التي سار عليها الكاتب تسهيلًا للطلاب ، رأيناها على جانب من الغرابة . فان الكتاب الاول من المؤلف الذي يختص بذكر البراهين عن وجود الله ، يبدأ باقرار قيمة العقل والمبادئ الاولية . وهي امور كان من الاوفق تركها للابحاث المنطقية . ثم كان من الموافق ، وقد توسع المؤلف كثيرًا في وجود الله ، ان يزيد على كلامه البحث في طبيعته ، فيصبح موضوعه تامًّا كاملًا . والكتاب مطبوع طبعًا جميلًا على ورق حسن يستحق طابعه كل تهنئة.

الاب مصيريان .

Prof. D^r theol. Ludwig Berg : Die katholische Heidenmission als Kulturträger. 2 *Auflage*. 3 *vol. in-12*, 1927 — Abhandlungen aus Missionskunde und Missionsgeschichte, herausgegeben im Auftrage des Franziskus Xaverius Missionsvereins. Aachen - Aachener Missionsdruckerei. *Prix* : 6^m,80 + 5, 90 + 4,40.

مباحث عن الرسالات الكاثوليكية

يبحث هذا التأليف النفيس في الرسالات الكاثوليكية ودورها في تثقيف

الشعوب الوثنية وتمدينها وهو عمل كافٍ وافٍ يجمع كل ما يمكن الكلام عنهُ في هذا الموضوع ، كغاية الرسالات ، وترقيها ، وتنظيمها ، وإرسالها نحو الشعوب الوثنيــة . ثم تهذيب هؤلاء ادبيًا ودينيًا ، بالاعمال والدراسة ، والعلوم ، والآداب ، والفنون كالبناء والتصوير والموسيقى ، ودرس اللغات ، والبحث في البلاد ، وسكانها ، ودياناتهم . واخيرًا يتنـاول الكلام عن الرسالات من حيث هي مشاريع خيرية ، لازمــة لتحقيق ضروريات النفوس والاجساد المتعدّدة ، واداة صالحــة لتحقيق التقارب بين السُلالات المختلفة . في كل هذه المواضيع يخوض المؤلف عارفًا كل المعلومات اللازمة ، ذاكرًا الامثال العديدة على اقواله ، فيهيئ لكل من اراد درس امر منها المواد الصالحة التي لا غنى عنها في ذلك .

ج . ل .

R. Cagnat: En pays romain, *in*-12°, 282 *pp.*, 6 *planches*, *Prix* 12 *f*ˢ. 1927. *Paris, de Boccard.*

في البلاد الرومانية .

يقدّم لنا مؤلف هذا الكتاب ، وهو متضلّع من موضوعه ، مقالات عديدة لذيذة ومفيدة عن مدن الزيا ، نيم ، ڤينة ، ليون ، هركولانُم ، وعن عذارى الرومان المروفات بالڤستال ، وعن المصريين في العصر الروماني ، ثم عن قرطجنة والمدن الكبيرة في افريقية الشمالية كطرابلس الغرب وغيرها .

Tafrali (O.): La Cité pontique de Dionysopolis, *Kali-Acra, Cavarna, Téké et Ecréné.* 79 *pp.* 8°, 16 *pl. Paris, Geuthner*, 1927. *Prix* : 40 *f*ˢ.

مدينة ديونيزوپوليس على شاطئ البحر الاسود

قام السيد تافرالي ، الاستــاذ في جامعــة يـاسي (رومانية) سنة ١٩٢٠ ، برحلة علمية بحث فيها عن الآثار القديمة على شاطئ البحر الاسود ، في مقاطعة دوبرودجا السفلى قرب ڤارنة . وها هو يقدّم لنا اليوم ملخّص هذه الرحلة في مجلّد حافل بالصور المتقنة

معنى ديونيزوبوليس مدينة ديونيزوس وهو الاله باخوس عند اليونانيين . وقد أسس هذه المدينة بعض التجارة اليونانيين في زمن لا يُعرف عنه الّا انه سابق عهد الاسكندر . وظهر ان تلك المدينة هي ميناء بلطشيق وكانت الطريق المحاذية للشاطئ والموصلة الى القسطنطينية تمرّ بها على العهد الروماني . برهنت الحفريات عن صحة ما دلّت عليه النقود من انّ الاله الاعظم في تلك المنطقة كان ديونيزوس اله الخمر والخصب . وكان اهاليها يعبدون مع هذا الاله بعض الهة اليونان، واغرب من هذا انهم كانوا يعبدون ايضاً ، قبل المسيح، اوزيريس وسيرابيس، مما يدلّ على ان الملاقات التجارية كانت متصلة بينهم وبين مصر . على انه لم يكن من تميز عند العامة بين اوزيريس وديونيزوس . وقد اكتشف في ذاك المحلّ تمثال لاوزيريس من الفنّ المصري المحض . اما ما بقي من الاثار المكتشفة فكلها لا ترقى الى ما قبل المسيح وليس فيها ما يخرج عن المعتاد . وبعد هذا يستعرض المؤلف بعض الآثار البيزنطية والتركية الباقية في البلدان المجاورة كاكرينة ، وكافرنة ، وكالي - اكرا ، وتيكه ، وهي دير قديم اوتكية لدراويش الاتراك . والمجلّد ملحق تورد فيه كلّ الرُّقم المكتشفة في تلك المدينة وهي احد عشر منها اثنان باللغة اللاتينية اولها يرقى الى السنة ٤٨ قبل المسيح ، والثاني مسيحي من القرن الرابع س . د .

Koehm (J.): Zur Auffassung und Darstellung des Wahnsinns im Klassischen Altertum [*Beit. z. Jahresber. d. Hessisch. Gymnas. in Mainz*, 1927 / 8.] 8°, 32 *pp.*, *Mainz*, *Wilcken*, 1928.

تصوّر الجنون وتأويله عند اليونان والرومان

ان الجنون ، اذا فهمناه باوسع معانيه ، نرى انه يدفع دائماً مؤلفي اليونان والرومان ، من هوميروس الى فرجيل ، الى التفتيش عن تأويل له خارج عن الطبيعة البشرية . وبكلمة اخرى انهم ينسبون دائماً الى تأثير الارواح او الجنّ كل حالة للنفس البشرية تخرج عن المعتاد ، سواء كانت تلك الحالة من نوع الاحلام ، او الهذيان ، او التصوّرات الوهمية ، او المسّ ، او المتاهة ، او الانجذاب ، او التوسوس ، او الجنون على اختلاف طبقاته . وقد رأى الدكتور كوهن ان

يعرض هذه الآراء لإفادة طلّاب معاهد الدروس اليونانية واللاتينية ، وهو يورد بهذا الصدد كثيراً من النصوص في اللغتين المذكورتين تسير به الى غايته . على ان مما يؤسف له ان المؤلف لم يستشر احداً من المستشرقين . وهو ، لو فعل ، لرأى ان كلمة « جنون » في اللغة العربية مثلاً ، التي تعبّر عن مجمل هذه الحالات هي من مادّة « ج.ن. ن. » التي تأتي منها كلمة « جنّ » للتعبير عن الروح اللابشري ، وأن معنى هذه المادّة الاصلي في اللغات السامية الستر والتغطية ، لاحظ مثلاً التعبير العربي « جنون مُطبِق » س.ر.

Zellinger (J.) . Studien zu Severian von Gabala. [*Münsterische Beitraege zur Theolog.* 8] *VIII*-182 *pp. gr.* 8°, *Aschendorff*, 1926, 7m, 20.

دروس على سيفريانوس الجبلي

كان سيفريانوس ، اسقف جبلة في جنوبي اللاذقية ، معاصراً للقديس يوحنا فم الذهب (اواخر القرن الخامس — اوائل السادس) وابرشيته تتعلق بكرسي انطاكية . اما اصله فمن المقرر انه سوري ، وان من عرفه من المؤلفين يقولون انه كان يتقن اللغة اليونانية ولكنه كان يلفظها على اللهجة السورية . ولا يُعرف الّا القليل عن اعماله الاسقفية في سورية . ولكن يُعرف انه كان له علاقات كثيرة متواصلة مع بلاط القسطنطينية التي زارها مرّات . ولم تكن دسائسه دون تأثير في نفي القديس يوحنا فم الذهب وموته . هذا وقد كان الدكتور زلنغر ، الاستاذ في جامعة مونيخ نشر سابقاً ما يُنسب الى سيفريانوس من المواعظ القليلة في شرح سفر التكوين، وهو كل ما يُعرف من الآثار الكتابية في مؤلفاته . اما ما بقي فهو من الميامر ، ولهذا ظلّت مدة طويلة مُلحقة بآثار القديس يوحنا فم الذهب . فعاد اليها الاستاذ المذكور واخذ يدرس في هذا المجلّد الميامر الباقية في النصوص اليونانية ، والارمنية ، والحبشية . اما الاسقف فينتسب الى المذهب الانطاكي ويدافع بحماسة وجلد عن عقيدة الثالوث الأقدس . وكنّا نودّ لو تعمّق الدكتور زيلنغر في درس ترجمات الميامر السريانية والعربية ، على اننا نؤمل ان يقوم من علماء الشرقيين ، ولاسيما من كهنة الروم الملكيين ،

مَن يفتّش عن آثار الاسقف المذكور، فينشر ما يجده في مخطوطات لبنان الكبير وسورية س٠ر٠

Jean Mars : L'agonie de Georges Marchand, *avec* 10 *bois gravés. Paris, Guillaume et Huot, éditeurs.*1928.

نزاع جورج مرشان

هي شهادة عن حروب الخنادق مؤثرة ببساطتها وبما تتركه في النفس من عواطف الإكبار لأبطال قضوا حياتهم في سبيل الواجب .

Revue des Études islamiques *Année* 1927,*cahier II.Paris,Geuthner,* 1927. *Le prix de l'année est de* 80 *f* *pour la France et de*100 *f* *pour l'étranger*

مجلة الدروس الإسلامية – الجزء الثاني من سنة ١٩٢٧

يقسم هذا الجزء من مجلة الدروس الإسلامية كسابقه الى ثلاثة اقسام : المذكّرات، والابحاث، والوقائع . وهو يبعث على الأمل ان المجلة تسير دائماً على تقدّم تحت ادارة الاستاذ ماسينيون . يرى المطالع، في هذا الجزء، القسم الاخير من مذكّرات مصطفى كمال، وبحثاً في انظمة قبائل البَربر التي لا تزال مستقلّة، مع بحث في بعض الجمعيات الاسلامية من هندية – فارسية ومراكشية . وفي قسم الوقائع نقد الكتاب قاضي الموصل الى ليارت، وبعض ملاحظات بشأن انشاء جدول توقيتي للكتابات العربية، وبشأن بعض مقالات ظهرت مؤخرًا في دائرة المعارف الاسلامية؛ وفي الختام لائحة بأسماء المطبوعات المرسلة للمجلة .

ج٠ل٠

Konstantinopel und die Meerengenfrage von Dr Paul Mohr. *Meereskunde, Band XVI,2, Heft* 178.*Berlin, Mittler und Sohn,*1927. *Prix:* 1 *M.*

القسطنطينية ومسألة المضيقين

يجمع المؤلف في هذا الكتيب ملخص مسألة المضيقين اي مسألة البوسفور والدردنيل، اللذين يجمعهما بحر مرمرة من بحر ايجه الى البحر الاسود . ولقد كان

لتركية ، حتى القرن التاسع عشر ، كل الحقّ في ان تفتح او تسدّ طريق المضيقين بوجه المراكب الحربية الاجنبية . اما في عصرنا فان انكلترة اوجدت هذه المشكلة المهمّة التي سوف لا تحلّ بسرعة ، رغم التفاؤل والآمال العديدة . وان المؤلف يتوقّف بمدل عند الحوادث الاخيرة المؤثرة في مصير المضيقين ، وهي كل ما جرّته الحرب العامّة . وعلى الجملة فان هذا الكتاب يؤلف بحثاً مفيداً يُغني عن كثير من التفتيشات الطويلة ج . ل .

Müller (Karl): Kanon 2 und 6 von Konstantinopel 381 und 382- *Festgabe für Adolf Jülicher — Verlag von J. C. B. Mohr. Tübingen*, 1927. *Prix : M.* 1, 20

قانونا القسطنطينية الثاني والسادس

يبحث المؤلف عمّا اذا كان القانونان اللذان يُنسبان عادة ، تحت رقمي ٢ و٦ ، الى المجمع القسطنطيني المنعقد سنة ٣٨١ ، ليسا فعلاً ، ولاسيما الثاني ، من عمل المجمع المنعقد سنة ٣٨٢ . ان مجمع سنة ٣٨١ المنعقد في القسطنطينيّة دعا اليه الامبراطور تيودوسيوس ، ومع انه لم يكن فيه الّا اساقفة الشرق فقط ، عُدَّ مجمعاً مسكونياً . اما القانونان المذكوران ، فيبحث الاول منهما في تحديد دائرة نفوذ كل اسقف ، والثاني يحدّد ويراقب التهم الملصقة بالاساقفة .

ج . ل

Dr Josef Schmid : Der Epheserbrief des Apostels Paulus - *Biblische Studien XXII Band*, 3/4 *Heft-gr.8° XXIV et 466 pp. Freiburg im Breisgau*, 1928, *Herder*. 16 *M.*

رسالة القديس بولس الى الافسسيين

عمل غاية في الطرافة والتوسّع ، وهو اول عمل كاثوليكي من نوعه ، يعرض فيه المؤلف كل المسائل المتعلّقة بهذه الرسالة من حيث العنوان ، واللغة ، وصلتها باسلوب العهد الجديد . فيظهر متضلّعاً من موضوعه كل التضلّع حتى انه من المستحيل ان يجد الطلّاب من كهنة واساتذة ومتعلّمين درساً اوسع من هذا واوفر دقّة . ج . ل .

Prof. Hickmanns : Universal-Atlas 1927 vollständig neu bearbeitet von Alois Fischer. 90 *vielfarbige Tafeln*, 80 *Seiten Text*. *Petit in-4°*. *Prix* : 10 *M*.

تقويم جغرافي جامع

ان نجاح هذه النشرة المشهورة، واقبال الناس عليها ، يجعلها بحاجة دائمة الى الترقي ومطابقة مقتضى الحال. وان فيها من المعلومات الجغرافية والاقتصادية وغيرها المبسوطة بطريقة سهلة واضحة ما يصيرها لازمة كل اللزوم للصحافي والتاجر ، ولكل من اراد الوقوف على ما يجرى في الكون في زمانه. ج. ل.

Mgr. Jaquet : Grammaire du grec du nouveau Testament. *in-8°*, 165 *pp. Paris, de Boccard*, 1927.

غراماطيق للغة العهد الجديد اليونانية

ليست لغة العهد الجديد من اليونانية الفصحى بل الدارجة . وعليه فترى الفائدة جزيلة من معرفتها وتمييزها. ولما كان همّ المؤلف افادة طلّاب الكهنوت اوّلًا ، قابل في كل صفحة من كتابه اللغة الدارجة باللغة المدرسية. وهو اسلوب حسن لولا انه تشوّه بالاغلاط الطبعية الكثيرة.

Mgr. Louis Prunel : Pour l'Église et pour la Patrie, *discours à des Jeunes Gens. vol in-16, VI-275 pp. Téqui. Paris. Prix:* 12 *f*

في سبيل الكنيسة والوطن

هي مجموعة خطب غايتها حثّ الشبيبة على السير دائمًا في سبيل اعلاء شان الكنيسة والوطن . وان المطالع يشعر فيها بروح الغيرة يدفع الخطيب لعمل الخير دون ان يدركه الضجر او اليأس ، وهو القائل «كما انه لا يمكن للمسيحي وللكاهن الكاثوليكي ان ييأسا من نجاح الكنيسة ، كذلك لا يمكن للفرنسوي ان ييأس من نجاح فرنسة.» اذًا فالكتاب مفيد كل الافادة ، ليس فقط للشبان ، بل ايضًا للكهنة المهتمين بامور الشبان ، ولارباب الاسر المكترثين لتنشئة ابنائهم تنشئة دينية وطنية صالحة ، وبالاجمال لكل الشعوب الكاثوليكية.

Dr Otto Bardenhewer : Der Brief des heiligen Jakobus, *übersetzt und erklaert .gr.8°.VIII et* 160 *pp.Freiburg im Breisgau*,1928, *Herder. Prix* : *M.* 4, 40.

رسالة القديس يعقوب

مقصد المؤلف الاولي ان يبيّن صريحاً ترتيب هذه الرسالة العقلي وغايتها من التعليم وهو يراها ، لا رسالةً فرديةً اعتيادية ، بل كتاب تنشيط ووعظ على نحو ما نشاهده في رسالة القديس بولس الثانية الى اهل كورنتس . والمؤلف يشرح كل ذلك بطريقة وافرة المعلومات صائبة دائماً ، مستحقة كل الشكر . ومن المفيد الملاحظة انه من عهد بعيد لم يُقدم احد كاثوليك المانية على شرح هذا النصّ .

ج . ل

Gustave Kahn : Vieil Orient, Orient neuf. *in*-12, *Paris, Biblioth. Charpentier, Eugène Fasquelle, éditeur*,1928. *Prix*: 12 *f*.

الشرق القديم شرقٌ جديد

ليس هذا العنوان اطروحة فلسفية او اجتماعية . ان هو الا مجموعة حكايات تمثل شرقاً منظوراً من خلال سراب وهاج اكثر من تمثيلها الشرق الحقيقي على ان هذا الشرق يوافق ، في عرف المؤلف ، بلاد مراكش موافقته بلاد العجم ؛ فلا وحدة في ذلك الا الديانة . وكأنّ المؤلف يقول انه كلما تعدّد هذا الشرق وتشعّب ظهر واحداً . واملُ هذا اقرب اقواله الى الحقيقة . والكتاب مقدّم لادوار هريو الذي ينعته الكاتب « بخالق الحقائق الاجتماعية »

ج . ل

فقر وعفاف

او مذكرات شاب فقير ، تأليف اوكتاف فوييه ، ترجمة الاستاذ احمد رأفت

عني بنشرها الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية

لقد اظهر معرب هذه الرواية وناشرها حسن ذوق وغيرة على الآداب العربية تذكر لهما فتشكر . وهذا الكتاب تفيد مطالعته الشبيبة عموماً ، والشبان النبلاء

الذين حطهم الدهر عن عزهم ، خصوصاً :
برون في « المركيز ده شامباي دوتريف » اخاً لهم ومرافقاً في طريق المصائب والشدائد تيتم ولم يرث من ابويه مالاً . فلم يسترسل الى اليأس ولم يستنكف من الدخول في خدمة اسرة « لاروك » الغنية وقد غيّر اسمه وتنكّر . فأدّى به حسن سلوكه وأنفته وطيبة اخلاقه الى امتلاك قلب الآنسة لاروك . على ان تباين الحالة بين العروسين كان يحول دون قرانهما ، لكن الشاب الفقير حظي نجاةً ، بثروة طائلة ، نالها بالوراثة فكُشف النقاب عن تستره وعُرف كرم محتده ومن ثم تمت به الافراح .

واكتاف فويه (١٨٢١—١٨٩٠) واضع الكتاب هو من الرواة المقتدرين والكتبة المجيدين في وصف الحياة الاستقراطية الفرنساوية في زمانه . ورواية « نفر وعفاف » من اعزّ مؤلفاته ادباً ، وفناً ، وتحليل اخلاق . اما لغة التعريب فتينة ، لكنها كثيراً ما تنمّ عن اصلها الافرنسي ف . ت

معجم المطبوعات العربية والمعربة

وهو شامل لاسماء الكتب المطبوعة في الاقطار الشرقية والغربية مع ذكر اسماء مؤلفيها ولمة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة الى نهاية السنة ١٣٣٩هـ-١٩١٩م

جمعه ورتبه يوسف اليان سركيس

الجزء الاول – مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦–١٩٢٨

لولا الفهارس لتورط مريدو المكاتب تورطاً تزايد مع وفرة الكتب في دورها وخزائنها . والفهارس منها تعرض الكتب مرتبةً بعناوينها كفهارس دار الكتب المصرية . ومنها ، تعرض الكتب مصفوفةً بحسب اسماء مؤلفيها طبقاً لعادة الافرنج . ونحن نفضل الترتيب الثاني على الاول وهو اقرب منهُ منهجاً لطالعة الكتب . فلذلك راقنا ما وجدناه في « معجم المطبوعات » من نظام جديد سوف يكون ان شاء الله فاتحة عهد جديد في ترتيب الكتب العربية وتسميتها . فنشكر اصاحب الكتاب همته الشماء وغيرته على ذكر آثار السلف مثالاً جميلاً يقتدي به الخلف . وقد عني السيد يوسف سركيس بوضع ترجمة المؤلفين موجزة وان ذلك لمشروع تنوء دونه اكتاف الاقوياء من الكتاب . فنتمنى لهُ انجازه بالنجاح ونود لو لم يهمل المؤلفات الدينية النصرانية ولها في تاريخ الآداب العربية مكانة لا يستهان بها ف . ت

نقد كتاب الديارات

الوارد في الجزء الاول من مسالك الابصار لابي فضل الله العمري . تحقيق الاستاذ احمد ذكي باشا

بقلم حبيب الزيات

بشرى لطلاب العلم وعشاق التدقيق في البحث، فان لهم في هذه النشرة آية يهتدون بها الى فنّ النقد ، والمقابلة بين النصوص التي تمكن القارئ من الوقوف على متن المؤلفات ، قبل ان تعبث بها اقلام النساخ والخطاطين . ان الاستاذ حبيب افندي الزيات معروف من قراء المشرق وها ان عقله الثاقب أدى به الى اقتراح تصحيحات رآها مفيدةً لكتاب الديارات، فأبداها مدعمةً بالشواهد والحجج بما لا يدع مجالاً للريب في صحتها

اكرم بها محاسنَ قلّدها الاستاذ حبيب الزيات كتاب الديارات فزاده منافع من غير ما يحط من قدره وفضله . وطبعة احمد زكي باشا قد حلّت من العلماء محلاً من الاعتبار لم يبلغه غيرها من امثالها في المطبوعات المصرية الحديثة ه . ل

المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية

الجزء الاول : نصوص المنتخبات

جمع السيدة كلثوم نصر عوده ڤاسيليڤا ، معلمة اللغة العربية في الكلية الشرقية في لينينغراد

قطع وسط ، ص ٢٥٨ + XXV – لينينغراد ١٩٢٨

في عاصمة روسية نهضة لتعزيز الآداب العربية تستحق كلَّ ثناء . وقد تكلمنا مرات في المشرق عن جهود الاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي ، وهو من طلّاب كليتنا الشرقية سابقاً ، في هذا السبيل . وها نحن نرى اليوم شاهداً جديداً على عنايته وغيرته الا وهو مراقبته لنشر هذه المنتخبات العصرية ، وكتابته مقدمتها باللغة الروسية ذاكرًا المصادر التي استقت منها السيدة عوده تلك القطع المختلفة . والكتاب مخصّص كله للنثر العربي منذ تطوّره في اواخر القرن الماضي الى عصرنا . اما زمن كتابة المنتخبات فيتراوح بين السنة ١٨٨٠

والسنة ١٩٢٥ ، واما الكتّاب المذكورون فاكثرهم من اللبنانيين والسوريين من متمصّرين ومتأمركين ، واشهرهم : محمد عبده ، اديب اسحق ، نجيب الحدّاد ، سليمان البستاني ، جرجي زيدان ، فرح انطون ، وليّ الدين يكن ، المنفلوطي ، جبران خليل جبران ، مخائيل نعيمه ، محمود تيمور . ويختم الكتاب بذكر ثلاث سيّدات هنّ ملك حفني ناصف ، وميّ ، وسلمى صائغ. هذا ولا عيب في الكتاب سوى انتخاب بعض قطع لا تفيد شيئاً في درس الادب المصري ، ولا تدلّ على شخصية كتّابها ، اما لكونها ظرفية محضة فقدت قيمتها بسبب مرور زمن انشائها ، واما لكونها كثيرة التكلف فاصبحت قديمة بالنسبة الى التطوّر الذي حصل في عقلية كاتبها ، مع بعض الاغلاط الطبعية التي قد تحول بين القارئ وحقيقة النصّ . وعدا ما تقدّم فالعمل يستحق كلّ ثناء.

ف . ا . ب

سيرة عمر بن عبد العزيز

على ما رواه الامام مالك بن انس واصحابه تأليف ابي محمد عبد الله ابن عبد الحكم

نسخها وصححها وعلق عليها

احمد عبيد

المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦–١٩٢٧

هو الخليفة عمر الثاني وهذه سيرته وهي اقدم ما انتهى الينا عن حياة هذا الرجل الكبير ، منقولة عن نسختين احداهما موجودة في دمشق والثانية في باريس ومنشورة بمعرفة السيد احمد عبيد العلامة المدقق ، السالك في النقد الاسلوب العلمي الحديث . وقد صور في الكتاب مثالين لكل نسخة من النسختين وصدره بمقدمة ترجم بها لابن الحكم مؤلف سيرة عمر واحسن ترجمته

ما اجلّ الخليفة عمر الثاني في نظر المسلمين حكمةً وما اعظمه رقة ووقارًا. كأن الرحمان قد منّ عليه بموهبة الدموع كما مَنّ بها على بعض اصفيائه من الرهبان فكان الدمع ينسجم من عيونه انسجاماً

« دخل عليه رجل ، وبين يديه كانونٌ فيه نار ، فقال عظني . قال : يا امير المؤمنين : ما ينفعك من دخل الجنة اذا دخلت انت النار وما يضرك من دخل

النار اذا دخلت انت الجنة : فبكى عمر حتى طفئ الكانون الذي بين يديه من دموعه » (ص ١٠٩)

وامثال ذلك كثيرة . رواها السيد احمد عبيد ولم يرَ من شأنه ان يتحقق صدق نسبتها وحقيقة امرها وانما مهمته مهمة الناشر فقام بها خير القيام فنشكر له هديته هـ. ل.

مختصر الفرائد الدرية

في اللغتين العربية والفرنساوية

Petit Dictionnaire Arabe-Français

كفاك بعنوان الكتاب منبئاً عن فحواه ؛ فهو ملخص قاموس الاب بلو اليسوعي ، عهدت ادارة المطبعة الكاثوليكية بامره الى لجنة من الرجال المتضلعين من اللغتين العربية والفرنساوية، فوضعوه على ان يجد فيه اصحاب الصناعة والتجارة ما يحتاجون اليه من الالفاظ لمعاملاتهم اليومية ، ويستغني به طلبة المدارس عن المعاجم الكبرى لترجمة الكتب الموضوعة بين يديهم من امثال كليلة ودمنة ومجاني الادب في اجزائه الاولى وغيرها . وعدد صفحاته ينيف على ٨١٦ من القطع الصغير (١٦) وثمن النسخة منه ١٨ غرشاً ذهباً ف. ت.

كتاب المنهاج السوي في التخريج اللغوي

وضع ظاهر خيرالله — استخرجه ابن الواضع امين

مطبعة الاجتهاد بيروت ١٩٢٨ (ص ١٢٠)

هذا الكتاب غرضهُ هداية المتضلعين من اللغة العربية الى التنقيب عن معاني الالفاظ الاصيلة طبقاً لقواعد التخريج . وعلم التخريج ليس هو بعلم الصرف ولا بالنحو ولا بالبيان بل هو قائم بذاته ، او اقرب من علم المعاني. فانه يتناول كل فعل من الافعال المجردة ويبحث في العلل التي تزيد عدد المشتقات منه او تنقصها، لان مزيدات الثلاثي عشرة ولا يؤخذ منها كلها مشتقات لكل الافعال. وان مادة هذا المؤلف النفيس لاوسع من ان نحصر وصفها بهذه الاسطر الوجيزة وحسبنا التنويه بها وحثّ الاساتذة على اقتناء الكتاب فتبدو لهم منه الفوائد الجمة. ف. ت.

رواية شهداء الاخلاص

مترجمة عن الافرنسية بقلم طانيوس عبده

هذا الكتاب نشره ايضاً السيد الياس انطون الياس ، ووددنا لو وقفنا من عنوانه على اسم مؤلفه الافرنسي ، فينال من ذكر اسمهُ بلغتنا بعض ما استحقه من الثناء بوضع كتابه . اما بلاغة المعرّب فمعروفة ولغته رائقة سائغة ارخت سدولها على المتن الافرنسي الاصلي فاناالته رونقاً ف . ت .

هدايا أُرسلت الى المشرق

⟵ الاسرة العلوية في مصر ⟶ هي طائفة من الشعر رفعها الى الملك فؤاد الاول السيد يوسف الحاجّ من الشبانية (لبنان) وصدّرها برسم جلالته ، مع رسم محمد علي باشا ، والخديوي اسماعيل والد الملك الحالي ، والامير فاروق وليّ العهد . فكان هذا الكتيِّب برهاناً عن تعلّق الناظم بجلالة الملك فؤاد ، وشعار ولاء بين القطرين المتجاورين .

⟵ في سبيل الاخلاق ⟶ قصيدة اجتماعية نظمها وفسّر الفاظها السيد احمد عبيد وغايته ان يمثّل ما بلغ اليه من التهوّر والتهتّك بعض جهّال الشبّان من متتبّعي المفاسد العصرية ، وان يدعو الى التمسّك بالحجاب ضدّ دعاة السفور

⟵ استعراض اللغة العربية ⟶ محاضرة القيت في بيروت في ٢٣ ايار سنة ١٩٢٨ بقلم يوسف سعاده ، ثمن النسخة ٥ غروش سورية . مطبعة جدعون بيروت

⟵ طرائف الحكمة ⟶ مجموعة رائعة من اقوال المتقدمين والمتأخرين في الادب والحكمة والامثال العربية من منظوم ومنثور جمعها ورتبها احمد عبيد طبعت بنفقة عبيد اخوان الجزآن الاول والثاني — المطبعة الرحمانية

اتخذ صاحب الكتاب كلام علي بن ابي طالب شعاراً فقال « ان هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة » واهتدى به في انتخاب النصوص فاجاد وافاد .

⟵ فهرس المطبعة السلفية ومكتبتها ⟶ لصاحبيها محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان . بيان فيه شروط المطبعة والمكتبة ، ونماذج من حروف المطبعة ، وذكر المطبوعات الخاصة والعامة واجور التجليد؛ القاهرة ١٣٤٦ . هو كتاب كبير القطع يناهز عدد صفحاته ٢٥٠ وفيه لائحة اهم ما طبع في اللغة العربية من الكتب فهو يشهد لاصحاب المطبعة السلفية بحسن الذوق والنشاط والغيرة على نشر الاداب العربية وعلى رفع لواء لغتها الشريفة

اهمّ حوادث الشرق في شهر

١٥حزيران — ١٥ تموز

نهضت الكنيسة الارمنية المخضبة بدم شهدائها الزكي ، وسارت الى مقر الرئاسة البطرسية بشخص احبارها الموقرين ، وعقدت مجمعها التاريخي فجمعت شتاتها في حمى الكرسي الرسولي ، واسترشدت بهدايته الى ما اتخذته من التدابير الآئلة الى نجاحها : فنقلت الكرسي البطريركي الارمني الكاثوليكي الى الجمهورية اللبنانية (٣٠ حزيران).

* * *

لقد كدّر صفاءنا وآلمنا ما اصاب دمشق من حريق ذهب بارواح عزيزة ، وسبّب اضرارًا ماديةً جسيمة لم نكن قط احوج الى تلافيها منا اليوم . (١٩ حزيران) . واسفنا لما وقع في محافظة صور (٥ تموز) من حوادث التلصص وفي جوارنا من التعديات المخلة بالنظام العام والمشوّهة سمعة البلاد . على انها كوارث حلت بنا كما تحل يوماً في سائر بلاد الله . اما حالة البلاد اجمالًا فكانت مرضيةً حسنة ؛ وقد خيمت الراحة والامن على البلاد من الفرات الى الاردن ومن تدمر الى البحر.

* * *

لم يبلغنا عن اعمال المجلس التأسيسي الدمشقي ما يدعو الى القلق في امر المستقبل ، ومصير البلاد ، وحسن اتفاقها مع الدولة المنتدبة ومع الجمهورية اللبنانية . وكأني بعقلاء الامة قد فطنوا الى مصالح البلاد الحقيقية فاخذوا يشتغلون عن السياسة العقيمة بما هو انفع لمستقبلنا واسرع في مداواة امراضنا المزمنة . ان ثروة سورية ومعدن غناها هو موقعها الجغرافي وهذه حجة دامغة وحقيقة راهنة اثبتها المشرق الحالي (ص : ٢٧ : ٥٨٣—) فالبطل والنابغة فينا هو الذي يهدي مواطنيه الى استنباط تلك الكنوز واستغلالها

وقد بذلت الحكومة في هذا السبيل من المجهودات ما يذكر لها فيشكر: لانَّ الطريق بين بيروت وصوفر تزفّتت ، والمياه في قرية الشهباء في حوران انسجمت. وحامت شركات النور الكهربائي حول مياه العاصي لتشغيلها. ووقفت اللجنة المعهود اليها امر مد الخط الحديدي بين حمص ودير الزور وقفة المتبصر الحزوم المجدّ في العمل

* * *

ان الاخبار الاقتصادية الشرقية فيما يخص الصلة بين بغداد وحيفا ومد انابيب النفط من معادنها الى البحر لأهم من ان تغفل عنها الدولة المنتدبة ؛ ولها الحق في الربع من منابع البترول ، وحياة البلاد السورية ومستقبلها ونجاحها منوط امره بمرور تلك الانابيب في بلادنا لا في سواها . فليست اذن الساعة ساعة ابتذال الكلام ونص القوانين والمتاجرة « بالبارلمانية ». وثروة البلاد وحياتها موضوعة في كفة الميزان . بل علينا نحن السوريين ان نوحد كلمتنا ونضم صوتنا الى صوت الدولة المنتدبة لتقوى شوكتنا ، وتقوى هي بنا على حفظ حقوقها وحقوقنا في بترول الموصل . فيبقى لنا جبل سنجار وما فيه من معادن النفط ، ولا تنسلخ عنا الاراضي التي الحقتها بسورية معاهدات الدول سواء كان ذلك شرقاً او شمالاً او جنوباً.

* * *

ليس المجال لذكر ما تبذله ايطالية من المساعي لتحلّ في الشرق محل فرنسة ربما يتمنى لها ان تزحزح ايضاً انكلترة عن مقامها فتتمتع بمكانة الدولة الالمانية القيصرية في الشرق . وما اعظم ما بذلته من الجهود في هذا السبيل ! فقد ابرمت معاهدة الحياد مع تركية ، واتفقت مع اليمن ، واوفدت ولي عهدها الى فلسطين والقطر المصري تعزيزاً لاسمها . وهي تحرك جهاراً وعلانيةً عوامل السياسة عسى ان تنال من جمعية الامم اعادة النظر في الانتداب السوري . وليست انكلترة باقل غيرة على مصالحها وطموحاً الى انشاء مملكة عربية واحدة تضم سورية الى العراق والى فلسطين والجزيرة ، وتكون تحت سيادة الملك البريطاني وما مزاحمتها لايطالية في اليمن الا شاهد على ذلك الاجتهاد . ونحن

في غضونها نلتهي عن الاهم بالمهم او بما لا يهم . فنستقبل الريح من حيث هبت ولا يقر لنا قرار على مبدأ كأنَّ البلاد مخيرة في ان تغير مصيرها كل عام او عامين . او كأن الشرف والمروءة وحفظ العهود بضاعة تعرض في المزاد

لقد مضت السنون والاحقاب ومصر على غناها وعزها مورطة في امر حماية الانكليز عليها . وكلما حاولت فك قيوذها بالعنف تورطت ؛ وما الازمة الوزارية الاخيرة الا فصل من فصول تلك السياسة وشتان بين مصر الغنيَّة الآهلة بالسكان وبين سورية التي لا يكاد يبلغ عدد سكانها الثلاثة ملايين. فحسبنا اذن بالعقل والفطنة والكرامة مدعاة للخلود الى السكينة وللعمل يدًا بيد مع الدولة التي انتدبناها لتسير وايانا في سبيل خير البلاد الحقيقي

* * *

ولعل البعض ينظرون الى انقرة ويترقمون من حركة التجدد المتواصلة في تركية آمالًا يعللون بها انفسهم بما يعود بالخير على مصالحهم الشخصية . ولعل هذه العاطفة مصدرها العصبية التي جمعت شتات المسلمين حول شخص الخليفة العثماني مدة اجيال . ولكن آخر ما بلغنا عن تركية انها «تقطع آخر صلة لها بالاسلام» (١ باستبدال الاحرف العربية بالاحرف اللاتينيَّة . فلم يبق اذًا بيننا وبين الاتراك ما يربطنا بالصلة الادبية المؤلفة بقلوب الشعوب المتفقة على قراءة واحدة.

وليس مما بلغنا عن معاهدة امان الله خان ، ملك الافغان ، مع مصطفى كمال مما يرجى منه خيرٌ لنا. وتلك المعاهدة مآلها توحيد كلمة العناصر الطورانية وضم مجهوداتها في سبيل الفتح ، اذا ما سنحت لهم فرصة الفتوح . واي خير يرجى منهم ؟ بل اي خير نالته سورية من جدهم تيمورلنك فاتح حلب وناهبها ومدمر دمشق (١٤٠١) الم يكفِ هذه البلاد ما قاسته من ظلم الاتراك مدة خمسة قرون ؟ ف . ت .

---

١) من مقالة للاستاذ الفاروقي في جريدة البلاغ المصرية